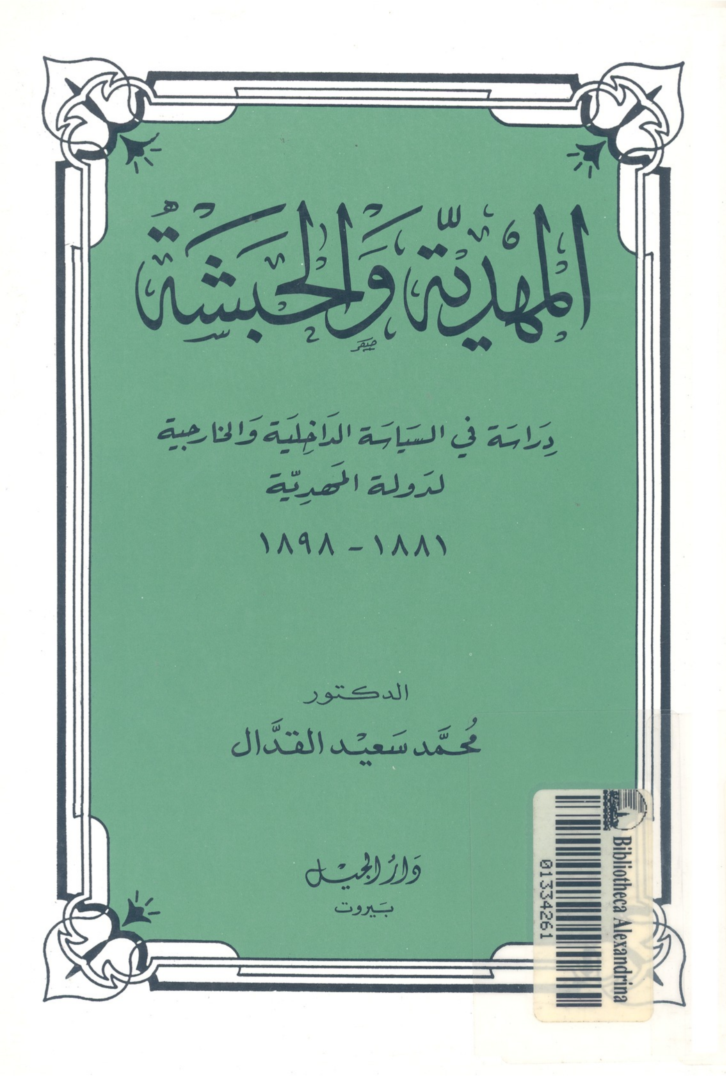


المهدية والحبشة

دراسة في السياسة الداخلية والخارجية
لدولة المهدية
١٨٨١ - ١٨٩٨

الدكتور
محمد سعيد القدال

دار الجيل
بيروت


المهدية والحبشة



دراسة في السياسة الداخلية والخارجية
لدولة المهدية

- ١٨٩٨

الدكتور
محمد سعيد القدال

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الإهـــداء

إلـى والـدي...

تقديم

تنبع أهمية العلاقة بين دولة المهدي والحبشة (اثيوبيا) من أنها كانت في العقدين الأخيرين من القرن الماضي، وهي الفترة التي احتدم فيها الصراع بين الدول الأوروبية في سعيها لاستعمار القارة الافريقية، وبين الدول الافريقية نفسها وهي تستبين معالم قوميتها وتسعى إلى إقامة كيانها السياسي.

وبما أن السياسة الخارجية لأية دولة غالباً ما تكون انعكاساً للأوضاع الداخلية المتشعبة، فالعلاقة بين دولة المهدية والحبشة لا تستقيم بمعزل عن الظروف الداخلية التي اكتنفت البلدين. على أن هذه الدراسة تهتم أساساً بتحديد الاتجاهات العامة لدولة المهدية داخلياً وخارجياً وما ترتب عليها من ردود فعل داخل الحبشة. فالكتاب دراسة لدولة المهدية في منطقة القضارف ـ القلابات في شقه الأول لصلتها اللصيقة بالحبشة، ودراسة لعلاقة دولة المهدية بالحبشة في شقه الثاني.

وأرى لزاماً عليّ وأنا أقدم هذه الدراسة أن أتقدم بالشكر والتقدير للبروفسور مكي شبيكة والدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، والدكتور عباس إبراهيم والبروفسور يوسف فضل، وأسرة دار الوثائق لعونهم لي منذ أن كان هذا الكتاب فكرة أعدها لنيل درجة الماجستير حتى صار كتاباً معداً للنشر.

محمد سعيد القدال

مقدمة

١ ـ منطقة القضارف ـ القلابات:

تعتبر منطقة القضارف ـ القلابات وحدة جغرافية قائمة بذاتها لها خصائصها ومميزاتها الخاصة بها ويسميها الجغرافيون مرتفع القضارف ـ القلابات (Gadarif Gallabat Ridge) وتقع هذه المنطقة بين خطي طول ٣٧، ٣٤ شرقاً، وخطي عرض ١٥ و١٢ شمالاً. وهذه المنطقة هي جزء من أرض البطانة التي تقع بين النيل الأزرق ونهر عطبرة وتمتد حتى الحدود الحبشية، وتقع منطقة القضارف ـ القلابات في الجزء الجنوبي الشرقي منه. وترتفع هذه المنطقة عن بقية أرض البطانة ارتفاعاً تدريجياً حتى تصل إلى ٦٠٠ قدم فوق سطح البحر عند الحدود الحبشية. ويقع مرتفع (القضارف ـ القلابات) على سطح هذه الهضبة.

وتتراوح الأمطار في منطقة القضارف ـ القلابات بين ٤٠٠ و٩٠٠ م م في العام. والأمطار بالنسبة لهذه المنطقة ومناطق السودان المختلفة هي العنصر المناخي الفعال وهي أكثر العوامل المناخية أهمية في السودان وهي العامل الأساسي في تحديد السكان، فالأمطار في هذه المنطقة تصلح لزراعة الذرة والسمسم والقطن. وتنتج منطقة القضارف كميات وافرة من الحبوب فهي المصدر الرئيسي للذرة في الماضي والحاضر. وقد بلغت وفرة الإنتاج في أواخر العهد التركي ـ المصري حداً بيعت فيه الثلاثة جمال المحملة

بـالذرة بنصف ريـال نمساوي. ويـزرع بجانب الحبـوب التمبـاك والفـواكـه. ووصل إنتاج التمباك السنوي ألف وخمسمائة ورقة. وكان التجـار الإغريق هم الذين يقومون بهذا النوع من الزراعـة طيلة العهد التـركي ـ المصري، بـل إن بعضهم أقام مصنعاً للسجائر في القضارف.

وقد ساعدت درجة الحرارة في هذه المنطقة على زراعـة الحبوب إذ أن منطقة القضارف طقسها حار جاف في الصيف وتقل درجة الحرارة كلما اتجهنا نحو الهضبة الحبشية. وعند القلابات يصبح الطقس بـارداً بل من أبـرد مناطق السودان في الشتاء.

ويتخلل منطقة القضارف ـ القلابات عدد من الأنهر الموسميـة. وتنحدر كل هذه الأنهر والوديان من الهضبة الحبشية متجهة غـرباً إلى سهـل السودان. ومن أهمها النيل الأزرق، ونهـر عطبـرة، نهر سيتيت، خـور القاش، الـرهد، سرف سنعيد. وتلعب هذه الوديان دوراً هامًّا في اقتصاديـات المنطقـة إذ يعتمد عليها السكان في الزراعة ويتخذون بعضها سبيلاً للمواصلات ويصبح بعضهـا الآخر موانع طبيعية تعوق الحركة عند امتلائها.

٢ ـ جغرافية الجزء الغربي من الحبشة:

تقع الحبشة (اثيوبيا) بين خـطي طول ٣٣ و٤٨ شـرقاً وخـطي عرض ١ و١٥ شمالاً. وترتفع عن سطح البحـر كثيراً حتى يصـل ارتفاع بعض منـاطقها إلى ١٥ ألف قدماً. ويتخلل الهضبة الحبشية الهـائلة وديان عميقـة يصل عمق بعضهـا ميلاً واتسـاعها ميلَـيْن. ويتخلل هذه الهضبـة أنهر عـديدة ولكنهـا غير صالحة للملاحة لاندفاعها الشديد. وتكون هذه الوديان والأنهر حواجز طبيعيـة خصوصاً عند فيضانها.

ولعل أهم ظاهرة في طقس الحبشة هي أمطارها الصيفيـة التي تشتد في المناطق الجنوبية الغربية حتى يصل منسوبها إلى ١٨٠٠ م م في العـام وتهطل كل هذه الكمية خلال مائة وسبعة وسبعين يومـاً من العام. وتعتبـر الحبشة من البلاد القليلة التي أثرت جغرافيتها على تاريخها تأثيراً بيّناً.

ويكوّن الجزء الجنوبي الغربي من الحبشة المتاخم للقلابات وحدة جغرافية تعرف بمرتفعات (اثيوبيا ـ كافا) التي تمتد من ارتريا في الشمال وتشمل بلاد التقرى والأمهرة وكجام وشوا وكافا. ويبلغ أقصى ارتفاع للأرض في هذه المنطقة ٦٥٠٠ قدم. وينحدر هذا المرتفع إلى جهة الغرب حتى ينتهي عند هضبة القضارف ـ القلابات، وتشتد حدة الانحدار في الجزء الشمالي الغربي والجزء الجنوبي الغربي وتقل حدته في منطقة الوسط وهي المنطقة الملاصقة تماماً للقلابات.

وينقسم طقس هذا الجزء الجنوبي الغربي من الحبشة إلى ثلاثة أقسام تتراوح بين الحرارة والبرودة الشديدة حسب الارتفاع، ويمتد فصل الشتاء من أبريل إلى سبتمبر وهو أيضاً فصل الأمطار. ويختلف شتاء هذه المنطقة عن شتاء السودان الذي يتصف بالبرودة والجفاف.

والنيل الأزرق هو أهم نهر في الحبشة وينحدر من الشرق إلى الغرب مع انحدار الهضبة. ويكون هذا النهر حاجزاً طبيعياً يفصل منطقة كجام عن الجزء الجنوبي من الحبشة. وفي الجزء الغربي تكثر الأنهر الموسمية التي تصبح عند فيضانها حاجزاً يعزل الحبشة عن منطقة القلابات.

وتنقسم الحبشة إلى ثلاث عشرة ولاية تقع ثلاثٌ منها في الجزء المتاخم للقلابات وهي حسب وضعها من الشمال إلى الجنوب: تقرى، أمهرت، وكجام.

٣ ـ أهم القبائل في المنطقة:

أهم ثلاث مجموعات قبلية في منطقة (القضارف .. القلابات) هي: الشكرية والضبانية والتكارير. أما الشكرية فهم من القبائل الكبيرة لا بالنسبة لهذه المنطقة بل بالنسبة لكل قبائل السودان. وقد بلغ عدد أفراد هذه القبيلة في أواخر العهد التركي ـ المصري حوالى نصف مليون شخص كانوا مقسمين إلى تسعين عميرة. ويعمل الشكرية بالزراعة والرعي ويملكون مجموعة كبيرة من الإبل والماشية حتى بلغ مجموع الإبل المخصصة لركوب شيخ القبيلة نحواً من أربعة آلاف. وكانوا يتاجرون في إبلهم مع مصر. ويقال إن الشيخ

أحمد أبو سن مات في مصر عندما ذهب هناك ليتفاوض في أمر هذه التجارة.

وتسكن قبيلة الشكرية في المناطق الزراعية الواقعة حول القضارف وفي منطقة البطانة الغنية بمراعيها. وتعتبر القضارف أهم مركز للشكرية بل هي مقر حكمهم حيث تسكن شيوخ القبيلة من عائلة أبو سن. وتمتعت قبيلة الشكرية بوضع ممتاز في العهد التركي ـ المصري. وفي عهد الخديوي إسماعيل أصبح شيخ القبيلة أحمد أبو سن مديراً للخرطوم وسنار، وأنعم عليه بلقب «باشا» وعلى ابنه عوض الكريم من بعده بلقب «بك».

أما قبيلة الضبانية فهي أقل شأناً من الشكرية ولكنها من القبائل الهامة في هذه المنطقة وقد بلغ تعدادهم في العهد التركي ـ المصري نحواً من خمسين ألفاً مقسمين على سبعة عمائر. ويسكن الضبانية في الخريف في البطانة وينزحون منها في فصل الصيف إلى المنطقة الواقعة بين نهر سيتيت ونهر باسلام (وهو اسم الجزء الحبشي من نهر عطبرة). وتعتبر التومات (تومات ولد زايد) من أهم مدن الضبانية فهي مقر زعمائهم من عائلة ولد زايد. ومن مدنهم التجارية الهامة الجيرة ودوكة. ولقيت هذه القبيلة حظاً كبيراً في العهد التركي ـ المصري ومنح شيخهم محمود عيسى زائد لقب «بك». وعاصر محمود هذا أغلب حكم الخليفة.

وتعرف المجموعة القبلية الثالثة بالتكارير أو تكارير القلابات. وكلمة تكرور نفسها قد اكتنفها الكثير من التحريف والغموض مما أبعدها عن معناها الحقيقي وأصبحت تستعمل في منطقة الشرق الأوسط استعمالاً عامًّا يقصد به كل المهاجرين من غرب افريقيا الذين كان يقودهم طريق الحج عبر بعض بلدان الشرق الأوسط فيطيب لهم المقام في بعضها فيستقرون بها[1]. وعندما نتحدث عن تكارير القلابات فنحن نتحدث عن مجموعة من قبائل غرب افريقيا استقرت، في منطقة رأس الفيل (القلابات) في القرن الثامن عشر الميلادي بعد عودتها من مكة[2]. وبلغ أقصى تعداد التكارير في هذه المنطقة

---

(١) Umar al-Nagar, J.AHP. 372.

(٢) المصدر السابق، SNR, Vol. I, P. 95.

خمسة وأربعين ألفاً. واعتبر بعض المؤرخين هذا العـدد ضئيلاً واستنتجـوا من هذه القلة أنهم عنصر غريب على المنطقة. ولكنا إذا قارنا هذا العدد بالضبانية مثلاً لوجدنا أنهم متقاربون في العدد مما يدفعنا إلى القول بأن غرابـة عنصرهم على المنطقة لا تعـود إلى هذا السبب بـل إلى أسباب أخـرى لعل من أهمهـا اسمهم الغريب على المنطقة.

وأصبح للتكارير في القلابات مشيخة قائمة بذاتها، وكان صالح إدريس (المشهور بصالح شنقا) هو شيخهم عند اندلاع ثورة المهدية. وكـان التكاريـر يقومون بدور الوسيط في عملية التبادل التجاري التي كانت قائمة بين الحبشـة والقلابات. وقد تحصلوا على أرباح طـائلة من تلك العملية وذلـك عن طريق الضرائب التي كانوا يفرضـونها على التجـار باسم الحبشـة أو السودان. وكـان التكارير ينتقلون بـولائهم السياسي حينـاً مع الحبشـة وحيناً آخـر مع السـودان حسب قـوة الدولـة التي كانت تفـرض سيطرتهـا على القلابـات، لذلـك لعب التكارير دوراً سياسياً هاماً في هـذه المنطقـة وفي ترجيـح كفة هـذه الدولـة أو تلك.

٤ ـ المدن التجارية في العهد التركي ـ المصري:

مثلما لعبت الظروف الجغرافية دوراً هامًا في تاريخ هذه المنطقـة لعبت التجارة كذلك دوراً لا يمكن إغفاله وأثرت في تكـييـف العلاقات بين السـودان والحبشة. وسنتعرض لأهم ثلاثة مراكز تجاريـة في المنطقـة وهي: القضارف والقلابات في السودان ثم غندار في الحبشة.

(أ) القـضارف:

تقع القضارف وسط منطقة زراعيـة غنية ولـذلك أصبحت سـوقاً تجـارياً هامًا للمحـاصيل الـزراعية. وسـاعدهـا موقعهـا الجغرافي الحصين أيضـاً، إذ تحيط بها سلسلة من التلال تجعل الدفـاع عنها ضـد الغارات الخـارجية أكثـر يسراً. ومما ساعدها أيضاً على النمـو وقوعهـا على مسافـات متقاربـة بين عدد من المدن الهامـة. فتقع على بعـد ١٤٢ ميلاً من كسـلا، و١٤٦ ميلاً من أبي

حراز، و٩٤ ميلاً من القلابات. وهكذا صارت نقطة التقاء هامة يرد إليها التجار لا من السودان فحسب بل من مصر والحجاز والهند والحبشة وأحياناً من أوروبا. واشتهرت القضارف، بجانب الزراعة، بالتجارة في ريش النعام والماشية. كما كان بها مصنع للصابون وآخر للسجائر. وقد بلغت الضرائب السنوية على التمباك مائة ألف ريال كانت تذهب كلها إلى خزينة الحكومة[١]. وحتى إذا كانت هذه الأرقام غير دقيقة فإنها تعكس الثراء الذي كانت تتمتع به القضارف. ولهذا وجدت القضارف عناية خاصة من الحكام الأتراك إذ ظلت طوال ذلك العهد تابعة للخرطوم، بل كان من فرط اهتمام الحكومة بها أن مدتها ببوستة منتظمة. فالقضارف كانت لها أهمية قبلية واستراتيجية واقتصادية.

(ب) القلابات:

تقع مدينة القلابات على «خور أبو نخرة» في سفح الهضبة الحبشية عند الطريق الرئيسي الذي يصل السودان بشمال الحبشة. وهذا الموقع الجغرافي أعطى القلابات أهمية استراتيجية خاصة فهو موقع دفاعي ومنطلق للهجوم في نفس الوقت.

وتسمى المنطقة التي تقع فيها القلابات «برأس الفيل» وتسمى أحياناً بالقلابات. ولكن استعمالنا لكلمة القلابات هنا يعني المدينة فقط ولا يعني كل المنطقة. وتتحدث بعض المراجع التاريخية عن مدينتي القلابات والمتمة على أنهما مدينتان منفصلتان. وأحياناً تستعمل المتمة لتعني القلابات. والواقع أنهما مدينتان توأمان تقعان في الحدود، تقع القلابات في السودان والمتمة في الحبشة. ولذا فالتفريق بينهما غير مألوف لأنهما مكملتان لبعضهما وعليه سنقتصر على استعمال كلمة القلابات فقط.

ونشأة القلابات غير واضحة المعالم، ولكن يبدو أن العبيد الهاربين ـ الكنجارة ـ هم أول من سكنها. ولعل موقع القلابات المنعزل على الحدود

---

(١) رفعت، ص ٤.

قد ساعدها لتصبح مأوى لأولئك الهاربين. أما أقدم تاريخ معروف للقلابات كمدينة فيرجع إلى مملكة سنار. ويبدو أن ملوك سنار هم الذين أسسوها في القرن الثامن عشر كقاعدة حربية وذلك عندما توترت علاقتهم مع الحبشة.

على أن تاريخ القلابات أصبح أكثر ارتباطاً بقبائل غرب السودان (التكارير) الذين استقروا بها عند عودتهم من مكة، أكثر من ارتباطهم بملوك سنار وأصبح للتكارير مشيخة قائمة بذاتها شبه مستقلة ولهم «نحاس» خاص بهم يحتفلون بتجليده كل عام في شهر رجب (عيد الرجبية).

واستمرت القلابات تابعة لملوك سنار حتى بداية العهد التركي ـ المصري عندما تحولت تبعيتها إلى الحبشة. ولعل الحبشة قد اغتنمت فرصة الفوضى التي صاحبت سقوط مملكة سنار فاحتلت القلابات. وأصبح حاكم الولاية الغربية من الحبشة هو المسؤول عن المدينة. وكان يعين وكيلاً من جانبه من المسلمين ليدير شؤون القلابات. وأهم واجبات الوكيل جمع الضرائب وتسليمها للحبشة وكانت تلك الضرائب تجمع بواسطة شيخ التكارير في المنطقة.

وظلت القلابات تتبع للحبشة حتى عام ١٨٣٨. ففي ذلك العام نشب صراع بين الحبشة والحكومة التركية، فأرسل حكمدار السودان خورشيد آغا حملة إلى القلابات لاحتلالها[١]. واستطاعت الحملة الاستيلاء على المدينة وسلم لها الشيخ «ميرى» شيخ التكارير وفرض الأتراك ضريبة سنوية على المدينة. وتبين لخورشيد أهمية القلابات فأقام بها حامية تركية مؤلفة من مائة جندي من الباشبوزق والأتراك. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تقام فيها حامية في القلابات بجانب قوة التكارير الحربية. أما وضع التكارير الإداري فلم يتغير إذ ظلوا هم الأداة الإدارية المسؤولة عن المدينة

---

(١) يذكر شقير (ص ٥١٦)، أن تاريخ ذلك الصدام هو عام ١٨٣٠ ولكن الصحيح هو عام ١٨٣٨. فقد أشار هل (ص ٣٣) أن ذلك الصدام حدث في عهد خورشيد باشا (١٨٢٦ ـ ١٨٣٨) وكان من نتائجه استدعاء خورشيد ولذلك تكون تلك الحادثة قد تمت في آخر عهده. وكان استدعاء خورشيد بواسطة محمد علي باشا بغرض إرضاء بريطانيا التي رأت أن احتلال القلابات فيه تعد على مناطق نفوذها.

وفي عهد الحكمدار موسى باشا حمدي (١٨٦٣ ـ ١٨٦٥) زادت حدة الصراع بين الحكومة التركية والحبشة حول الحدود، وكثرت تعديات الحبشة على القبائل الخاضعة للحكم التركي ـ المصري. فاستنجد شيخ التكارير جمعة أبو دقن بالحكمدار طالباً حمايته من تهديدات الامبراطور ثيودور. وفي نوفمبر عام ١٨٦٢ قام موسى حمدي على رأس حملة مكونة من ثلاثة آلاف جندي نظامي وخمسة آلاف جندي غير نظامي وسار إلى القلابات وهناك رأى ضرورة تحصين المدينة فأنشأ فيها استحكاماً منيعاً ودعمه بالموانع وأقام بها أورطتين من الجهادية بقيادة آدم بك العريفي. كما فرض ضرائب جديدة على المنطقة بلغت أربعة وعشرين ألف ريال سنوياً. فقام الشيخ جمعة من جانبه بفرض ضرائب جديدة على الواردات الحبشية ليواجه بها التزامه الجديد نحو الحكومة.

وكان من جراء ذلك الاستقرار أن زادت أهمية القلابات كمركز تجاري وأصبحت سوقاً لمختلف البضائع مثل الماشية والذهب والقطن والشمع والزباد والبن والسمن والرقيق والعاج. وبلغ سكانها عام ١٨٦٤ خمساً وعشرين ألف نسمة موزعين على خمس وعشرين قرية. ويبدو أن هذا العدد أكثر واقعية من العدد الذي ذكره شقير، فسكان الخرطوم نفسها في تلك الفترة لم يزيدوا عن ثلاثين ألفاً.

وكان سوق القلابات من أكثر الأسواق تنظيماً، ويجتمع يومي الثلاثاء والأربعاء من كل أسبوع ويزداد نشاطه بين نوفمبر ومايو. ولعل حجم التجارة بين القلابات وسواكن يعطي صورة لما وصلت إليه القلابات من أهمية تجارية. فقد بلغ مجموع ما يصدر منها سنوياً إلى سواكن الآتي:

٢٠٠٠	كيلو بن
١١٠	ألف كيلو شمع
٤٤٥٠	كيلو عاج
١٠٠٠	أوقية ذهب
من ١٥	إلى ٢٠٠ من الخيول في كل يوم سوق
٢٠٠٠	رقيق

وبلغت كمية ما بيع من القطن عام ١٨٦٣ حوالي أربعة آلاف بالة. ولهذا فقد أصبحت القلابات سوقاً شبه عالمي يرد إليها التجار لا من الحبشة فحسب بل من بلاد الإغريق والأرمن وغيرهم(١).

وقد أعطى سعد رفعت وصفاً للقلابات في آخر العهد التركي - المصري فوصفها بأنها بلد ذات «أهوية عظيمة» ومنازلها مبنية من الحجر والقش. وبها قلعة محصنة يحرسها جنود من البيادة والطبجية. وسكانها بجانب التكارير هم الحمدة والكواهلة والضبانية. وقدر سعد رفعت الضرائب المفروضة على القلابات بحوالى ثلاثمائة ألف جنيه في العام(٢). ولعل هذا الرقم مبالغ فيه ولكنه يدل على أهمية القلابات التجارية.

وفي الحقبة الأخيرة في العهد التركي - المصري كان صالح شنقا هو شيخ التكارير في القلابات. وشنقا هذا من مجاوري الأزهر جاء إلى القلابات ليصبح إماماً لمسجدها ويبدو أنه كان عظيم الولاء للحكومة التركية إذ منحوه وضعاً ممتازاً في القلابات. فهو المكلف بجمع الجزية وبخلق علاقات تجارية مع الحبشة. كما كان له جيش خاص به يتكون من أربعة آلاف جندي من الأحباش والسودانيين وجميعهم مزوّدون بأسلحة نارية. ويستعمل هذا الجيش في زمن السلم في أعمال الزراعة الخاصة بشيخ التكارير.

(ج) غندار:

في عام ١٦٣٦ أصبحت غندار عاصمة لاثيوبيا مما أدى إلى ازدياد أهمية الخط التجاري عبر سنار والنوبة إلى مصر. وكانت هناك مدن على الحدود الحبشية السنارية لجمع العوائد الجمركية(٣).

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر أصبحت غندار من أهم الأسواق التجارية في الحبشة، بل أصبحت في وقت من الأوقات أهم مدينة تجارية. وتقع غندار في وسط طريق تجاري هام يبدأ من دارفور ثم مملكة

---

(١) Richard Pankhurst, The Trade of Northern Ethiopia, pp.72-13.

(٢) رفعت، ص ٣٠.

(٣) Merid Walds Aregay & S.H.S., Sudan in Africa, p.70.

الفونج ويمر بغندار إلى عدوة فمصوع. ويمر بها أيضاً طريق تجاري آخر يسير إلى شلقا (Celga) ووهني (Wahani) ثم القلابـات. وتسير القـوافل التجـارية من غندار متجهة غرباً في فصل الجفاف بين أكتوبر ومايو.

وتعتبـر غندار أهم سـوق للذهب في الحبشة ومن أهم الأسـواق لتجـارة البن والعاج. وبالرغم من تدهور أهميتها التجارية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلا أنها ظلت واحدة من اثني عشر سوقاً هاماً في الحبشـة. ولعل حجم تجـارتها عـام ١٨٩٠ يوضـح تلك الأهميـة. فقـد بلغ مـا بيـع بهـا من المواشي في ذلك العام الآتي:

٨٠	ألف ثور
١٨	ألف بقرة
١٠	آلاف نعجة
٢٠	ألف خروف
٦٠	ألف دجاجة

ويبدو أن قرب غندار من الحدود السودانية وتـاريخها التجـاري الحافـل قد خلقا لها صورة زاهية في عقل السودانيـين ولعلها كـانت تمثل بـالنسبة لهم مركز الثراء العريض عبر الحدود.

٥ ـ الـوضـع العسكـري في القضارف ـ القـلابات عنـد انـدلاع الثورة المهدية:

عند اندلاع الثورة المهدية ركزت الحكومة التركية مجهوداتها العسكـرية في غـرب السودان بـاعتبـاره معقـل الثـورة. وأدى ذلـك التـركيـز إلى ضعف المناطق الأخرى عسكرياً وبخاصة منطقة القضـارف ـ القلابـات، فقد حـولت عنهـا الحكومـة بعض فرق الجيش وبعثتهـا إلى الغرب. وسنتعـرض هنـا إلى الـوضع العسكـري في ثلاث مـدن هامـة في هذه المنـطقـة وهي القضـارف، القلابات، والجيرة.

كان بالقضارف عند اندلاع الثورة المهـدية مـائتا جنـدي نظامي وأوردي

من الباشبوزق المغاربة بقيادة محمد باشا آغا. وكان محمد عوض الكريم أبو سن مأموراً عليها. ونقل إليها بلوك من القلابات ولكنه سرعان ما حول إلى عصار لتدعيم موقعها.

وفي عام ١٨٨١ كان بالقلابات ألف وستمائة وعشرة جنود. وعند قيام الثورة في غرب السودان أخذ منها «٥ جي» أورطة بقيادة البكباشي حسن أفندي عارف و «٦ جي» أورطة بقيادة سرور أفندي بهجت وأرسلا إلى الغرب. وبقي بها بلوكان فقط. وبها أيضاً بطارية طوبجية بقيادة محمد أفندي رياض، وواحد أوردي باشبوزق يتكون من أربعمائة وخمسين جندياً بقيادة محمد بك السيد، وأورطة غير نظامية تابعة لصالح شنقا. وعند حلول عام ١٨٨٤ أصبح بالقلابات خمسمائة وثلاثة وتسعون جندياً نظامياً فقط.

أما المدينة الثالثة فهي الجيرة. والجيرة طابية حصينة على الحدود الحبشية مبنية بالحجر على أكمة مرتفعة تطل على نهر سيتيت. وكان بها «٤ جي» أورطة التي تتكون من ثمانمائة جندي بقيادة البكباشي فضل الله حبيب. وعند اندلاع الثورة المهدية أرسلت نصف القوة التي بها إلى سنار، وأرسل منها بلوك إلى كسلا، فبقي بها بلوك بيادة وثلاثة مدافع وصاروخ حربي.

يتضح لنا من الأرقام السابقة بعض الحقائق المتعلقة بالوضع العسكري في هذه المنطقة عشية اندلاع الثورة المهدية فيها. فنلاحظ أولاً أن القوة العسكرية للحكومة كانت متمركزة في ثلاث حاميات هامة بجانب النقاط العسكرية الصغيرة الأخرى. ثانياً أنه في حالة اندلاع ثورة شعبية تصبح تلك الحاميات جزراً معزولة وسط بحر الثورة الهادر وتظل غير متصلة ببعضها البعض. ونلاحظ ثالثاً أن منطقة القضارف ـ القلابات لم تكن تشكل خطورة كبيرة على الحكم التركي ـ المصري ولذلك كانت تعتبر منطقة احتياطية يؤخذ منها الجنود لتعزيز المناطق الأكثر خطورة. ولذلك عندما اندلعت الثورة لم يكن بها سوى ألفين وستمائة جندي موزعين على ثلاث مدن. وعليه فلم يكن

أمـام أولئك الجنـد إلا التسليم أو الانسحاب من مـراكزهم عن طـريق الحبشة باعتبارهـا الطريق الـوحيد المفتـوح. وهكذا دخلت الحبشـة في الصراع ضـد المهـدية في هـذه المنطقـة وأصبحت هي العنصر الحـاسم في ذلك الصـراع واحتلت مكان الحكومة التركية ـ المصرية.

الفصل الأول

المهدي وانتصار الثورة

(١٨٨١ - ١٨٨٥ = ١٢٩٨ /١٢٩٩ - ١٣٠٢ /١٣٠٣)

انقسمت السنوات الأربع الأولى من الثورة المهدية إلى قسمين، فتميزت الفترة الأولى منها بنشر الدعوة والدفاع عنها ضد الحملات التي كانت ترسلها الحكومة التركية ـ المصرية. فقد انقضى العامان الأولان ومحمد أحمد المهدي يجمع حوله الأنصار في جبل قدير ويقضي على حملات الحكومة الواحدة تلو الأخرى. ثم انتقل المهدي من طور الدفاع إلى مرحلة الهجوم، والذي كان يستهدف به المعاقل الهامة للحكومة في غرب السودان وأهمها مدينتا الأبيض وبارا. كما كان المهدي ينظر باهتمام لضرورة إشعال نار الثورة في الجزيرة وفي منطقة سواكن لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية. في تلك الفترة ظلت منطقة القضارف ـ القلابات هادئة نسبياً فلم تقم بها أحداث هامة ولم تأخذ الثورة المهدية فيها شكلاً واضحاً كما حدث في السنوات اللاحقة. ولعل هذا راجع لبعدها عن معقل الثورة وعن مراكز الحكومة الهامة.

وبعد هزيمة هكس في شيكان (٥ نوفمبر عام ١٨٨٣ الموافق في ٤ محرم ١٣٠١) أخذ اهتمام المهدي يزداد بأجزاء السودان المختلفة. وكان هذا الاهتمام جزءاً من خطته للزحف على الخرطوم بعد أن يمهد لذلك بعزلها داخلياً وخارجياً. وما أن حل عام ١٨٨٤ حتى أصبحت الخرطوم جزيرة معزولة وسط خضم من الثورات المتلاحقة. وكانت خطة المهدي في نشر دعوته في المناطق المختلفة هي أن يعين عاملاً من قبله يكون غالباً من أهل

المنطقة المعنية ويبعثه لاستنفار الأهالي للثورة باسم المهدية. واهتم المهدي دائماً بزعماء القبائل وقادة الطرق الصوفية والشخصيات ذات الوزن الاجتماعي والقبلي إذ أن في انضمامهم إلى المهدية ما يقوي من شأنها ويساعد على انتشارها. تدل على ذلك منشوراته العديدة التي كان يبعث بها للسادة المراغنة والعبيد ود بدر وآل أبو سن وغيرهم من الشخصيات السودانية المشهورة. ومن تلك المناطق التي التفت إليها المهدي بعد شيكان كانت منطقة القضارف ـ القلابات.

انهيار الحكم التركي ـ المصري:

لم يلق انتشار المهدية في منطقة القضارف ـ القلابات اهتماماً كبيراً من المؤرخين كالذي لقيته المناطق الأخرى التي ارتبط انتشار المهدية فيها بشخصية المهدي أو بأمرائه الكبار أو بحكام العهد التركي المشهورين. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحاميات التركية في المنطقة لم تكن كبيرة وهامة، بل كان أغلبها قد سحب لتدعيم الحاميات الأخرى في الأبيض وسنار وكسلا، لأدركنا صعوبة التنقيب في تاريخ هذه المنطقة والذي ينتشر بين ثنايا الأحداث التاريخية الهامة وفي منشورات المهدي الشحيحة التي كان يبعث بها إلى عماله في المنطقة. ولكن وجود الحبشة كعنصر هام في تاريخ هذه المنطقة أمدنا بمصادر إضافية تساعدنا في أن نرسم صورة لانهيار الحكم التركي هناك، وهذا بلا شك أهم حدث تم في عهد المهدي في تلك المنطقة.

وقد ارتبط انهيار الحكم التركي وانتشار الثورة المهدية في منطقة القضارف ـ القلابات بقبيلتي الشكرية والضبانية. وببعض العمال الذين بعثهم المهدي من قبله مثل الحسين عبد الواحد[1]، أو القواد الذين تجاوبوا مع المهدية من بعد وأشعلوا نار الثورة بمجهودهم الخاص مثل محمد ود

---

(١) الحسين عبد الواحد نور الدائم هو ابن أخ الشيخ محمد شريف نور الدائم أستاذ المهدي وشيخ الطريقة السمانية في الفترة الأخيرة من العهد التركي ـ المصري. والحسين ومحمد شريف كلاهما أحفاد الشيخ الطيب البشير مؤسس الطريقة السمانية في السودان والمولود عام ١١٥٥ هـ.

أرباب[1]. وقد استهدفت الثورة المهدية الاستيلاء على المدن الهامة مثل القضارف والقلابات والجيرة ولحقتها بعد ذلك المدن الصغيرة الأخرى مثل دوكة وعصار والتومات وغيرهم.

(أ) سقوط القضارف:

أما عن سقوط القضارف فهناك روايتان، الرواية الأولى يرويها نعوم شقير الذي يقول إن المهدي قد عين الحسين عبد الواحد نور الدائم عاملاً على البلاد الواقعة بين النيل الأزرق ونهر عطبرة. كما عين معه ثلاثة من المساعدين هم عبد الله الطريفي الجعلي والسماني ود أحمد والطاهر محمد تاتاي. وقد وقع اختيار المهدي على الحسين لأنه كان عارفاً بأحوال تلك الجهة إذ كان مقيماً بالقرب من تبارك الله على نهر عطبرة. فسار الحسين مع أتباعه حتى وصل إلى قلعة أرانج وهي إحدى مراكز قبيلة الشكرية، فجمع أهلها وزحف بهم إلى القضارف. وكان بالقضارف محمد ابن الشيخ عوض الكريم أبو سن مأموراً عليها ومعه محمد آغا القائد التركي على رأس مائتي جندي وموسى أفندي حسن على رأس مدفعين ومعهم عدد من التجار الأجانب. فأرسل لهم الحسين خطاباً كان يحمله معه من المهدي وخطاباً آخر من عنده يدعوهم إلى اتباع المهدية ويعدهم بحفظ مالهم وسلاحهم. وبما أن الحامية كانت ضعيفة وبعيدة عن مراكز الحكومة الهامة فقد قررت التسليم، وسلمت في ٢١ أبريل عام ١٨٨٤ الموافق في ٢٤ جمادى الثانية عام ١٣٠١، وما أن استلم الحسين المدينة حتى قام بجمع ما بها من أسلحة وذخائر كما صادر بضائع التجار وأودعها جميعها في بيت المال وأجبر النصارى من التجار على دخول الإسلام وقام بقطع خط التلغراف بين القضارف والقلابات[2].

أما الرواية الثانية فقد أوردها سعد رفعت في تقريره الذي كتبه عن

---

(١) محمد ود أرباب من تكارنة القلابات وكان قد سمع بالمهدي فلحق به ثم بعثه المهدي أميراً على أهله في القلابات وذكر سلاطين في كتابه (ص ٤٠٥) أن ود أرباب ابن عم صالح شنقا.

(٢) شقير، ص ٨٩٦ ـ ٨٩٧.

إخلاء القلابات. فقد ذكر أن عبد الله ولد عوض الكريم أبو سن قد توجه إلى المهدي بعد واقعة هكس وأن المهدي قد عينه أميراً على قبيلة الشكرية[1]. ثم يذكر أن المهدي قد أرسل الأمير عبد المحمود[2] ولد الشيخ الطيب بخطاب إلى محمد عوض الكريم أبو سن وعمه عبد الله[3] يطلب منهما أخذ الجبخانة والأسلحة من العساكر. فقاما بدعوة الناس إلى المهدية وسلمت لهما الحامية فنهبوا الأهالي وفرضوا على الأوروبيين الذين يقطنون بالمنطقة اعتناق المهدية[4].

نجد أن الروايتين تتفقا على أن حامية القضارف سلمت دون كبير عناء وأن تسليمها قد تم بمعاونة القبائل المحلية وأهمها الشكرية. ولكنهما تختلفان في شخصية القائد الذي تم على يده سقوط المدينة. فنجد شقير يتحدث عن الحسين بينما يذكر رفعت آل أبو سن في المقام الأول.

من المؤكد أن قبيلة الشكرية بقيادة زعيمها الشيخ عوض الكريم لم تسرع إلى الاستجابة لدعوة المهدية. فقد كان لقبيلة الشكرية وضع ممتاز في التركية. وهي قبيلة غنية زراعياً ولها ثروة حيوانية كبيرة، وكانت على جانب من الاستقرار. لكل هذه الأسباب نجدها قد عارضت الدعوة الجديدة ووقف زعماؤها من المهدية موقفاً متشككاً أو معادياً.

على أن عبد الله أحمد أبو سن كان أسرع زعماء الشكرية استجابة للمهدية ولكن هذه الاستجابة جاءت بعد سقوط القضارف عندما بدأت كفة المهدي ترجح. على أن رواية سعد رفعت قد وجدت قبولاً لدى بعض الكتّاب، فقد أخذ بها ونجت وهولت إذ اعتبرا أن عبد الله عوض الكريم هو

---

(١) الواقع أن المهدي قد عين عبد الله عوض الكريم أبو سن عاملاً على حلة رفاعة وجعله تابعاً لعبد الرحمن النجومي وكان ذلك التعيين في ٢٥ محرم عام ١٣٠٢ الموافق في ١٨٨٤/١٠/٢٥، راجع منشور المهدي إلى عبد الله عوض الكريم أبو سن في: أبو سليم، المرشد، رقم ٤٢٢.

(٢) يقصد عبد الواحد وليس عبد المحمود.

(٣) لا يتحدث رفعت في تقريره عن عوض الكريم أبو سن ولا يعتبره من ضمن من خاطبهم المهدي بل يعتبره من المؤيدين للحكم التركي ـ المصري. وأيده هولت في هذا الرأي.

(٤) رفعت، ص ٢، ٤ ـ ٥.

الذي استولى على القضارف. ومن الواضح أنهم جميعاً خلطوا بين عبد الله عوض الكريم وعمه عبد الله أحمد، والأول قد عين عاملاً على حلة رفاعة ولم يرتبط اسمه بتاريخ هذه المنطقة في المهدية في تلك الفترة المبكرة.

ولقد أخذت برواية شقير لأنها أقرب إلى الحقيقة ولأنها تشبه تماماً الطريقة التي كان يسير عليها المهدي في نشر دعوته في البقاع المختلفة. فالمهدي قد بعث بالحسين إلى القضارف وحمله رسالة أو رسائل إلى زعماء وأهل المنطقة. فقام الحسين بالاتصال بزعماء الشكرية وأهمهم عوض الكريم وأخوه عبد الله، وقد كان المهدي يراسلهم حتى قبيل سقوط القضارف. واستطاع الحسين بمعاونة آل أبو سن أن يستولي على القضارف.

وبما أن المهدي كان يفضل أن يتولى زعماء القبائل إدارة مناطقهم فقد عين عبد الله أحمد أبو سن عاملاً على القضارف ثم دعاه إليه ليقف على حقيقة ولائه، وطلب من الحسين أن ينوب عنه حتى عودته. ومنذ ذلك الوقت والمهدي يشير إلى عبد الله على أنه عامله على القضارف، بل نجده بعد شهرين من تلك المقابلة يعينه عاملاً على جهات «بحر عطبرة»[1]. فالحسين هو الذي استولى على القضارف وعبد الله أبو سن أصبح عاملاً عليها فيما بعد.

وبعد أن استولى الحسين على القضارف زحف بأنصاره على المراكز المجاورة، فتقدم إلى التومات وكان بها محمود بك عيسى زايد شيخ قبيلة الضبانية، الذي سلم استجابة لدعوة المهدي. وبالرغم من استجابة ولد زايد السريعة إلا أنه لم يكن عميق الإيمان بالمهدية وقد تجلى هذا في صراعه مع الخليفة. ثم دعا الحسين عرب الحمران إلى المهدية فاستجاب جزء منهم بقيادة الشيخ عمر ود الكردي، والتجأ الجزء الآخر بقيادة العجيل عوض الحمراني إلى الحبشة في جهة غبتة حيث أخذ يهاجم دولة المهدية هجمات مباغتة ومتكررة بغرض السلب والنهب. ثم تقدم الحسين إلى الصوفي وكان

---

(١) المهدي إلى عبد الله أحمد أبو سن، في ٥ ربيع الثاني عام ١٣٠٢، مهدية، صادر رقم ١٠، ص ٤٤.

بها بعض الجعليين من سلالة المك نمر فانضموا إليه. وانتقل بعدها إلى دوكة وهي من أهم مراكز الضبانية، وبها حامية تركية صغيرة مكونة من عشرين جندياً بقيادة محمود آغا محمد التركي، وبها أيضاً الشيخ عجيب ولد النيسي وكيل ولد زايد وسلموا جميعهم. لم يبق بعد ذلك من المراكز الهامة إلا القلابات والجيرة فالتفتت الأنصار إليهما.

١ ـ احتلال القلابات ودخول الحبشة في الصراع:

يرجع اهتمام الأنصار بالقلابات إلى الفترة الأولى من الثورة المهدية. فقد حدث أول اشتباك مع أعدائهم في مركز زرقة التابع للقلابات حوالى مايو عام ١٨٨٢ الموافق في رجب عام ١٢٩٩، وذلك عندما حضر شخص يدعى محمد ولد ماجوك إلى جهة زرقة ومعه جماعة يقال إنهم من البقارة الموجودين بالرهد. فقام ماجوك وأعوانه بالهجوم عليها واحتلها وقتل من بها من الرجال وغنم ما بها من أموال. وعندما وصلت الأخبار إلى صالح شنقا عين محمد بك السيد على رأس مائة وخمسين من الخيالة وثلاثمائة من البيادة من التكارير وأرسلهم إلى زرقة فوجدوا البقارة مقيمين بها ويستعدون للتوجه إلى سرف عرديبة وهي من المراكز التابعة للقلابات. فنشب بينهم قتال استمر ساعة هزم بعده الأنصار وانسحبوا من زرقة. ولكن ولد ماجوك عاد ثانية في أواخر أغسطس/رمضان بعد أن استعاد قوته بمساعدة مشايخ الحمدة. بل إن أحمد ولد الرضى ابن أخ شيخ الحمدة صحب ولد ماجوك في حملته هذه. فقام ولد ماجوك باحتلال سرف عرديبة وأخذ يستعد للهجوم على القلابات. وكان شيخ سرف عرديبة قد هرب إلى القلابات حيث أفضى إلى صالح شنقا بكل ما حدث. فقام صالح على رأس ثلاثة آلاف نفر من توابعه ومعه محمد بك السيد وأوردي باشبوزق لصد الأنصار قبل وصولهم إلى القلابات. والتقوا بهم عند خور القنا في سبتمبر/ شوال حيث دارت بينهما معركة فقد فيها الأنصار عدداً كبيراً من القتلى من بينهم الشيخ ولد الرضى واستطاع ولد ماجوك أن ينجو بنفسه. ويبدو أن قوة مركز القلابات جعلته لا يكرر المحاولة ولم يظهر له أي نشاط بعد ذلك. ولا تعدو هذه المحاولات أن كانت

مناوشات أولية قامت بها مجموعة من الأعراب بدافع من الحماس قبل أن تصلهم دعوة المهدية في شكلها الرسمي.

وتبدأ المرحلة الثانية من حروب الأنصار في منطقة القلابات بعد سقوط القضارف وتحول قوة الأنصار نحوها. وكان المهدي قد حمل الحسين خطاباً إلى صالح شنقا يطلب منه اتباع المهدية والقيام من أجل نصرتها ويصفح عنه لما سلف منه من أعمال عدائية، ولعل المهدي كان يقصد حروباته مع الأنصار في زرقة وخور القنا. فأرسل الحسين الخطاب إلى صالح مع أحد التجار بالقضارف ويدعى دفع الله الكنز. فرد صالح شنقا بخطاب إلى الحسين بتاريخ ٢٧ أبريل عام ١٨٨٤ الموافق في ١ رجب عام ١٣٠١، قال فيه: «... إني أنا وأهلي التكارنة مسلمون للمهدي ولكن العساكر الذين بيدهم الحامية غير مسلمين فأمهلوني ريثما أدبر الحيلة للخلاص منهم...» وطلب إمهاله ثلاثة أشهر[١] وكان يقصد من تلك المهلة أن يجد الوقت الكافي ليستعد لصد هجوم الأنصار المرتقب. ولذلك ما أن عاد رسول الحسين حتى قام بالاتصال بالضباط في القلابات واتفق معهم على الاستعداد لتحصين الحامية للمقاومة. كما قام بالاتصال بغردون في الخرطوم وبأحمد عفت الحاكم التركي في كسلا يطلب منهما نجدته. ولكنهما لم يكونا في وضع يمكنهما من مساعدته إذ كانا أيضاً يستعدان لمواجهة هجوم مرتقب. وليس بمستغرب أن يقف صالح شنقا موقفاً معادياً للمهدية وأن يستمر على موقفه هذا حتى النهاية، فقد كان له وضع ممتاز في التركية وكان يستفيد من الحركة التجارية التي كانت بين البلدين، وكانت له علاقة ودية مع الحبشة ويستطيع الالتجاء إليها في وقت الشدة.

اما الحسين فقد بقي في دوكة حتى انقطعت الأمطار فطلب من صالح أن يسلم ولكن صالح عاد ثانية إلى المخادعة وطلب مهلة ثلاثة أشهر أخرى، وأرفق طلبه بهدية إلى الحسين عبارة عن كمية من البن والعسل وخمسمائة ريال. عند ذلك أدرك الحسين أن صالح يحاول كسب الوقت فصمم على

---

(١) شقير، ص ٨٩٨.

حربه. وقبل أن يبدأ الحسين في العمليات الحربية مهد لها بخطاب أرسله إلى الشايقية المقيمين بالقلابات وصفهم فيه بالصدق والإخلاص وطلب منهم القيام باسم المهدية. وكان الحسين يرمي من هذا الخطاب إلى إضعاف الموقف الداخلي للحامية وذلك ببث الفرقة بين صفوفها. ولكن الشايقية لم يتجاوبوا معه كما كان يتوقع. فانتقل بعد ذلك إلى العمل العسكري وقسم جيشه إلى قسمين ذهب بقسم لحصار الجيرة وأرسل القسم الآخر إلى القلابات.

استمر صالح شنقا من جانبه في مخاطبة الخرطوم وكسلا آملاً في الحصول على نجدة عسكرية فقد كان يجهل الظروف القاسية التي كانت تمر بها الحكومة التركية في تلك الفترة فكتب إلى غردون في ٢٢ سبتمبر عام ١٨٨٤ الموافق في (ذو الحجة عام ١٣٠١)، قائلاً: «. . . إننا محاطون بالأعداء من كل الجهات، الشكرية والضبانية والجعليين من جهة دوكة، والحمدة من جهة الرهد. ولكننا لا نزال ثابتين على الحصار ولا زلنا نواصل مركز كسلا بالمكاتبات».

بدأ أول هجوم للأنصار على سرف سعيد ومنها تقدموا لحصار القلابات. فبعث صالح بأخيه عثمان على رأس ستمائة من أهله التكارير وأرسل معه محمد بك السيد مع عدد من الفرسان. فالتقوا بالأنصار عند تل بين سرف سعيد ومريود يوم ٧ نوفمبر الموافق في ١٨ محرم عام ١٣٠١، حيث دارت بينهم معركة انتهت بهزيمة الأنصار ورجعت القوة إلى القلابات وجمع الأنصار شتاتهم ليشددوا حصارهم على الحامية.

وفي ذلك الأثناء كان قد تم اتفاق بين الحكومة المصرية والامبراطور يوحنا الرابع امبراطور الحبشة في يوليو عام ١٨٨٤ الموافق في (رمضان عام ١٣٠١)، بشأن سحب الحاميات المصرية على الحدود عن طريق الحبشة. وكانت الحكومة المصرية قد أرسلت الادميرال هيوت[1] وماسون بك للتفاوض

---

(١) الأدميرال هيوت (Hewett) هو قائد الأسطول البريطاني الذي أرسل إلى سواكن لتعزيز الموقف العسكري فيها بعد انتصارات عثمان دقنة على فلتناين بيكر.

مع يوحنا. وقد لجأت الحكومة المصرية إلى هذه الخطوة بعد أن قطع عثمان دقنة طريق سواكن - بربر وبعد أن احتل محمد الخير بربر وأغلق طريق الشمال فلم يعد هناك من طريق لإنقاذ حاميات الحدود الشرقية إلا طريق الحبشة. وانتهت المفاوضات بموافقة يوحنا على تسهيل مهمة سحب الحاميات عن طريق بلاده على أن تعاد له بوقوص ومرتفعات ارتريا التي كانت تحتلها مصر، فوافقت الحكومة المصرية. وقام الكولونيل جير مشايد، حكمدار شرق السودان وسواحل البحر الأحمر بتعيين البكباشي سعد رفعت للقيام بتنفيذ الانسحاب. وعين يوحنا قائده دهنشوم ومعه خمسة وعشرون جندياً لمعاونته. وخرج سعد رفعت من مصوع في ٢ أغسطس عام ١٨٨٤ الموافق في (٩ شوال عام ١٣٠١) قاصداً القلابات التي بلغ ضواحيها في نوفمبر.

وبعد ثلاثة أيام من الراحة عند القلابات تقدم سعد رفعت بجنوده وهاجم الأنصار الذين كانوا يحاصرون القلابات. واستمرت المعركة ثلاثة أيام متوالية تمكنت بعدها حامية القلابات من الخروج من استحكاماتها وانضمت إلى سعد رفعت. أما الأنصار فقد تراجعوا بعد هزيمتهم حتى نهر الرهد. ثم دخلت الحملة المصرية إلى القلابات وقامت بتسليم الأسلحة والذخيرة إلى الحبشة حسب الاتفاق. وفي أواخر عام ١٨٨٤ مطلع عام ١٣٠٢ خرجت الحملة من القلابات وفي ٥ مارس الموافق في (١٨ جمادى الأولى عام ١٣٠٢) تحرك محمد ولد أرباب من سرف سعيد واحتل القلابات.

ثم قام صالح شنقا بتزويد الحملة بكل مستلزمات الرحلة لعودتها وقد انسحبت الحملة ووصلت مصر في مايو عام ١٨٨٥ الموافق في شعبان عام ١٣٠٢[1]. أما صالح شنقا فقد عاد مع الحملة إلى الحبشة وأصبح من ضمن رعية يوحنا وأصبح أحد رؤساء دولته على الحدود الغربية في دبر شينة على مسافة خمسة أميال من القلابات. ومن تلك القاعدة أخذ صالح شنقا يهاجم

---

(١) رفعت، ص ١٤ وما بعدها. وفيها يصف طريق عودته ومقابلته ليوحنا والصعوبات التي واجهته.

دولة المهدية من حين لآخر[1]. وبذا أصبحت دولة المهدية تواجه في جهة القلابات دولة الحبشة التي أدى دخولها إلى تصعيد الصراع في تلك المنطقة، وتواجهت كذلك القبائل المحلية التي انضمت إلى الحبشة وأهمها التكارير بقيادة صالح شنقا.

(ج) احتلال الجيرة:

مثلما واجه الأنصار صعوبات في القلابات متمثلة في قوة تحصين الحامية وتدخل الحبش، واجهوا كذلك صعوبات مماثلة في الجيرة. وقد بدأ حصار الجيرة في مايو عام ١٨٨٤ الموافق في رجب عام ١٣٠١ بواسطة محمود عيسى زايد[2]. فأرسل وَد زايد خطاباً إلى الحامية يطلب فيه تسليمها له واعتناق المهدية. وأوضح في خطابه أن مقاومة الحامية لا طائل تحتها لأنه يقف على رأس مائة ألف مقاتل بخلاف أفراد القبائل المحلية الأخرى. ولكن الحامية رفضت التسليم معتمدة على تحصين قلعة الجيرة ومؤملة وصول الإمدادات لها. ولذلك لجأت إلى التحايل لكسب الوقت فطلبت التفاوض مع وَد زايد وأرسلوا له اليوزباشي موسى أفندي عفت، وهي نفس الخطة التي اتبعتها حامية القلابات من قبل. فأوضح عفت لوَد زايد أن التسليم أمر صعب لأن العساكر لم يفهموا دعوة المهدية وأن إيمانهم بها لن يكون عن طريق القوة بل التريث والإقناع وهذان يحتاجان إلى وقت. فوافق وَد زايد على إعطائهم مهلة ثلاثة أشهر ثم يسلمون بعدها. واغتنمت الحامية هذه الفرصة وأخذت تعد نفسها للدفاع ضد الهجوم المتوقع. فقاموا بتقصير خط دفاعهم وحصروا أنفسهم في نطاق ضيق يتناسب وعددهم المحدود. وبعد انقضاء الأشهر المحدودة رفضت الحامية أن تسلم فهاجمها الأنصار. ومن

---

(١) الطراز، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) كانت بين محمود عيسى زايد والحبش حروبات منذ العهد التركي ـ المصري ولعلها كانت مجرد غارات قبلية على الحدود. وقد خلد ود مرين، شاعر ود زايد، بعض تلك الحروبات في شعره. فيشير في إحدى قصائده قائلاً:

محمود يا صمد البجيك روكة ... صقر الميتر القرع الحبش من دوكة

راجع الطاهر عبد الكريم، ود زايد.

ذلك الوقت وحتى خروج الحامية فيما بعد استمر الأنصار يهاجمون الجيرة دون انقطاع ودون أن يتمكنوا من اختراق تحصيناتها المنيعة. وفي أواخر نوفمبر/ صفر حضر الحسين بجزء من جيشه وقرر أن يفرض حصاراً على الجيرة حتى تستسلم. ويبدو أن الأنصار قد قرروا حصار الجيرة بعد فشل هجماتهم عليها مقتفين اثر المهدي عندما قرر حصار الأبيض بعد فشل هجومه الأول عليها.

أما حامية الجيرة فقد كانت تقوم من جانبها بالاتصال بالحكومة التركية موضحة حالها ومستعجلة نجدتها. فقد أرسل البكباشي فضل الله قائد الحامية خطاباً إلى حاكم مصوع بتاريخ ٢٣ نوفمبر عام ١٨٨٤ الموافق في صفر عام ١٣٠٢ يصف الحصار الذي تواجهه الجيرة قائلاً: «أصبح مركزنا من أحرج المراكز. نعم إن الطابية حصينة ولكن العساكر قليلون كما تعلمون لذلك أرجو أن تسرعوا بإرسال المدد ولو أورطتين تأتيان عن طريق الحمران»[١]. يوضح الخطاب تفاصيل الحصار وحالة الحامية وتدهورها بعد أن أنهكت قواها في صد هجمات الأنصار المتلاحقة وبعد أن اشتد عليها الحصار حتى أكل الجنود القش والجلود. ولكن الحامية ظلت تتعلق بالأمل خصوصاً أن صالح شنقا كان يكاتبهم ويعدهم بقرب وصول النجدة كما استمر في الاستنجاد بغردون.

وكما تقدم فإن خلافاً قد نشب بين الحسين وبقية القواد فرفع الأمر إلى المهدي الذي انتقد الحسين وبعث في طلبه وعين بدلاً عنه محمد وَد أرباب، فجاء وَد أرباب أميراً على القلابات في ٢٥ ديسمبر عام ١٨٨٤ الموافق في ٧ ربيع الأول عام ١٣٠٢ وبقي عبد الله الطريفي على رأس الجيش في حصار الجيرة. وأخذ المهدي يكاتب أنصاره ويناشدهم بالصمود ويستحثهم على تشديد الحصار فكتب إلى وَد زايد خطاباً بتاريخ ١٧ فبراير عام ١٨٨٥ الموافق في ٢ جمادى الأخرى عام ١٣٠٢ يقول فيه: «. . . ليكن التشمير في حصر أهالي الجيرة وقطع المواد عنهم بالكلية حتى يهلكهم الله

---

(١) شقير، ص ٩٠١ - ٩٠٢.

تعـالى فيصيبهم بعـذاب من عنــده. . . وأوصيكم بتقـوى الله مـا استـطعتم والتشمير فيما أنتم فيـه بصدده وعـدم الالتفـات إلى مـا سـوى الله»[1] وكتب خطابات أخرى إلى عبد الله الطريفي والطاهر تاتـاي وعبد الله أحمـد أبو سن وواضح أن المهدي كان يحاول أن يعكس لأنصاره تجربتـه في حصار الأبيض التي أرغمهـا على التسليم بعـد تجـويعهـا. ولكن الأبيض في وسط السـودان معزولة عن بقية المراكز أما الجيرة ومثلها القلابات فهما على الحدود الحبشية والمهدي لم يعط اعتباراً كافياً لوجود الحبشـة على الحدود والتي هي العنصـر الحاسم في إنقاذ تلك الحـاميات. فـاستمر الأنصـار يشددون حصـارهم على الجيرة والحامية تقاوم معتمدة على وضعها الحصين.

ويقول سعد رفعت إن حامية الجيـرة كانت تعتمـد على وَد زايـد الذي كان يمدها سراً بأخبار الحصار وأحوال الأنصـار[2]. وليس هذا بـأمر مستبعـد لأن وَد زايد لم يكن منذ البدايـة عميق الإيمان بـالمهديـة ولعله ضاق بـطول الحصار وتعدد الهجمات وما صاحبها من تضحيات فرأى أن أمر المهدية يسير إلى زوال فآثر أن يعيد ولاءه للحكومة التركيـة. وسنرى كيف خـرج وَد زايـد على المهدية وناصبها العداء.

في تلك الفترة كان قد تم الاتفاق على إرسال سعد رفعت فكتب حـاكم مصوع إلى فضل الله قائد حامية الجيرة يبشره بالخبر: «. . . إن الحبش آتون لإنقاذكم قريباً فأخلوا لهم الطابية وسلموهم الأسلحة والذخائـر وهم آتون بكم إلى مصـوع. . .» فقام فضـل الله بإرسـال الملازم إبـراهيم حزين إلى النقس يوحنا في دبر تابور يستعجله الحضور. وكان صالح شنقا قد أرسل أيضاً رسالة إلى حامية الجيـرة يبلغ جنودهـا بقدوم سعـد رفعت على رأس قوة من الحبش لإنقاذهم. وفي نهاية نوفمبر تمكن اثنان من الجنود الحبش من دخول الجيـرة وسلما قائدها رسالة من يوحنا يبشر الحامية بقرب قدوم الحملة لفك حصارهم وإنقاذهم.

---

(1) المهـدي إلى محمود عيسى زايـد، ٢ جمـادى الثانية عـام ١٣٠٢، مهـديـة، صـادر رقم ١، ص ١٢.

(2) رفعت، ص ٧.

في ذلك الوقت لم يكن المهدي في موقف يمكنه من تقديم أي مساعدة إلى أنصاره في الجيرة والقلابات. فقد كانت تلك الفترة هي الأشهر الأخيرة من حصار الخرطوم إذ كان المهدي قد حضر بنفسه في أكتوبر، محرم/صفر عام ١٣٠٢ وأقام معسكره في أبي سعد. وكان يحتاج لكل قوته وعتاده لتحقيق النصر الكبير بفتح الخرطوم التي تم احتلالها في يناير عام ١٨٨٥ الموافق في (ربيع ثاني عام ١٣٠٢). وبعد فتح الخرطوم انشغل الأنصار بانتصارهم وبوضع أسس الدولة الجديدة ثم بوفاة المهدي المبكرة في ٢٢ يونيو عام ١٨٨٥ الموافق في (٩ رمضان عام ١٣٠٢) وبالخطر الأكبر من الشمال.

في تلك الفترة الحرجة بالنسبة للسلطة المركزية في أم درمان وهي عاجزة عن تقديم أي مساعدة تم سحب حامية الجيرة عن طريق الحبش الذين أرسلوا قوة قوامها خمسون ألفاً وعلى رأسها عدد من القواد هم دجاج تسما، ورأس حقوص تكازي، ورأس أكسم قبرو حاكم دمبيا. ووصلت الحملة إلى نواحي الجيرة يوم ٢٩ يونيو الموافق في (١٦ رمضان) وكان أمراء الأنصار وقتها في خلاف فيما بينهم، فلما شاهدوا العدد الضخم من الجيش تفرق أغلبهم من أمامه ودارت المعركة مع من ثبت من الأنصار فانتهت بهزيمتهم ودخول الحبش إلى الجيرة يوم ٣ يوليو الموافق في (٢١ رمضان). واستلم الجيش الاثيوبي كل ما لدى الحامية من أسلحة وذخيرة. وبعد انسحاب الحامية دخل الأنصار واحتلوا نقطة الجيرة.

وقد سجل قواد الأنصار هذا الحدث في خطاب بعثوه إلى الخليفة - إذ كان المهدي قد توفي. وذكروا للخليفة أنهم صمدوا أمام الحبش الذين لم يتمكنوا من دخول المدينة إلا من جهة بحر سيتيت.

لم يقتصر الصراع بين الأنصار والحبش على القلابات والجيرة فحسب، بل امتد إلى جبهات أخرى على الحدود مثل قدبي وتبارك الله، حيث أشعل الأنصار ثورة أخرى بقيادة النور وَد فقرا. وَوَد فقرا هذا من الجبرتة وهم مسلمو الحبشة وكان في القضارف عند اندلاع الثورة المهدية

فهاجر إلى المهدي في كردفان حيث بايعه أميراً وبعث بـه لرفـع راية المهـدية وسط أهله. فعاد النور إلى القضارف وجمع حوله عدداً من الضبانية ونزل بهم على قدبي وهي قريـة على الحدود الحبشيـة يسكنها تكـارير وحبش فـاستنجد أهلها بصالح شنقا الذي اتصل بدوره بدهنشـوم وكان قـد وصل القـلابات مـع سعـد رفعت. وطلب صالـح من دهنشوم معـاونته لصـد هجـوم الأنصـار على قدبي لأن جزءاً منها تابع للحبشة. فتجمـع لدى صـالح خمسـة وأربعون ألف مقـاتل سـار بهم إلى قدبي وهـاجم بهم الأنصار يـوم ٢٦ نوفمبـر عـام ١٨٨٤ الموافق في ٧ صفر عام ١٣٠٢، وهزمهم وفقـد الأنصار في المعـركة حوالي سبعمائة قتيلٍ وجرح ولد فقرا نفسـه. فاستنجـد بالأنصـار المحاصـرين للجيرة ووصلت نجدتهم بعد ثلاثة أيام. فقام بإعادة الهجـوم على قدبي ولكنـه انهزم للمرة الثانية فتراجع عن قدبي وانضم إلى الحسين في حصار الجيرة[1].

يبدو أن النور وَد فقرا لم يجد تعاوناً من أمراء الأنصار في الجيرة فكتب يشكوهم إلى المهدي خـاصة وهـو من القلائـل الذين ثبتـوا حول الجيـرة عند حضور الحبش إليها. وقـام وَد فقـرا بمخاطبـة أهله في الحبشة وفعـلاً انضم إليـه عدد منهم. ثم انفصـل عن بقية الأمـراء وسار بـأهله إلى تبارك الله حيث أخذ في شن الغارات على الحبشة.

٢ ـ الإدارة في عهد المهدي:

بـاحتلال القضـارف والقـلابـات والجيـرة أصبحت منـطقـة القضـارف ـ القـلابات خـاضعـة للمهـديـة، فكيف أدار الأنصـار هـذه المنـطقـة في عهـد المهدي؟ لـم يعش المهدي طويلاً بعد فتح الخرطوم ولكنه استطاع بالرغم من قصر إقامته في أم درمان، أن يحدد الخطوط العـريضة لـدولة المهـدية ونـظام الحكم فيهـا[2]. فقسم السودان إلى أقـاليم وعين على كل إقليم أميـراً يسمى أحياناً عاملاً. أما الأمير فهو القائد على المنطقة التي بها جيوش والعامـل على

---

(١) رفعت، ص ٥ ـ ٦، شقير، ص ٨٩٩.
(٢) شبيكة، ص ٣٤١.

المناطق الأخرى. وكانت القضارف ـ القلابات إحدى هذه الأقاليم أو العمالات، وأصبح محمد وَد أرباب عامل المهدية عليها. وقد حدد المهدي مسؤولية ولد أرباب بوضوح. وكان اختيار ولد أرباب مبنياً على معرفته بالجهة ولوجود أهله في التكارير هناك. كما عين المهدي عمالاً على كل مركز من المراكز الهامة وحرص أن يكون عامل كل جهة من نفس المنطقة أو من زعماء القبائل والبيوت الحاكمة فيها. فعين عبد الله أحمد أبو سن عاملاً على القضارف، ومحمود عيسى زايد على الضبانية، والنور وَد فقرا على تبارك الله، وبشير طه على الجيرة. وحرص المهدي على تنبيه عماله بالتعاون والتشاور فيما بينهم[1].

كما عين المهدي الحسين عبد الواحد وعبد الله الطريفي والطاهر تاتاي والسماني أحمد أمناء، وجعل الحسين مقدماً عليهم وحدد مهمة هؤلاء في منشور بعث به إليهم بتاريخ ٢٢ يوليو عام ١٨٨٤ الموافق في ٢٩ شوال عام ١٣٠١ وحصر مهامهم في النظر في أحوال الناس وإجراء الأحكام بينهم على أن يترك التنفيذ لرؤساء الجهات[2]. وقد جرى المهدي في هذا التعيين على غرار الأمناء الذين كونهم في أم درمان من عقلاء الناس وأوكل إليهم مهمة النظر في الخلافات التي تنشأ بين كبار الأنصار وإصدار أحكام بصددها. ويبدو أن مهمة هؤلاء الأمناء كانت مهمة استشارية غير محدودة المعالم مما أدى إلى صراع بين الأمناء أنفسهم وبينهم وبين بقية العمال.

وكان صراع الأمراء والعمال فيما بينهم من القضايا التي شغلت دولة المهدية من حد إلى حد. وقد بدأت تلك الخلافات حول قضايا شخصية مثل تقسيم الغنائم أو تضارب اختصاصات العمال ولكنها تطورت في السنوات اللاحقة إلى صراع كبير بين أولاد البلد وأولاد العرب مما شغل الدولة الفتية، وفت في عضدها. ونذكر الخلاف الذي نشب بين الطريفي والحسين والذي استمر لفترة من الزمن حاول خلالها المهدي أن يسوي الأمر بالحسنى فلم

---

(١) مهدية، فلم، ١/١/١٠٠، ص ١٤.
(٢) أبو سليم، المرشد، رقم ٣٦٤.

يوفق. ويبدو أن الخلاف بينهما كان حول تفسير مشكلة من المشاكل واجتهد كل منهما في تفسيرها بطريقة مختلفة عن الآخر. ثم تطور الأمر إلى صراع حاد بينهما حتى انقسم الأمناء إلى فريقين: الحسين ومعه السماني من جانب والطريفي ومعه تاتاي في الجانب الآخر، وأخيراً اضطر المهدي لحسم الخلاف بعزل الحسين وجماعته وإبقاء الطريفي.

ولعلنا نذكر أيضاً الشكوى التي تقدم بها النور ولد فقرا ضد القواد الذين رفضوا التعاون معه مما اضطر ولد فقرا أخيراً إلى ترك القلابات والإقامة في تبارك الله. وفي آخر عهد المهدي نشب صراع آخر بين ولد أرباب وعبد الله الطريفي. فرفع وَد أرباب الأمر إلى المهدي وطالب بنقل الطريفي وتأكيد إمارته على المنطقة. فانتقد المهدي مسلكه وذكره بأن المسلمين يجب أن يتعاونوا ويكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً. كما نصحه بأن يستفيد من وجود الطريفي وبقية الأمراء لأنهم أرسلوا إليه بغرض مساعدته وتقديم العون له. ثم أكد المهدي إمارة ولد أرباب على المنطقة.

اهتم المهدي كذلك بموضوع الزكاة والغنيمة لأنهما يكونان الدخل الرئيسي للدولة التي ينوي إقامتها، ويكونان المحور الذي ارتكزت عليه الإدارة في تلك الدولة. وحرص المهدي على تطبيق الشريعة الإسلامية في هذا الصدد. لذلك نجده يأمر بجمع الزكاة حسب قوانين الشريعة الإسلامية ووضعها في بيت المال. كما كتب منشوراً إلى محمد خليل عامله على الحمدة، حدد فيه الزكاة الواجبة على المواشي والحبوب والذهب والفضة. كما طلب من عامله هذا أن يتصل ببقية العمال في الجيرة وغيرها من المراكز لتعميم هذه الآراء[1]. وعين المهدي إبراهيم عدلان مندوباً عن بيت المال من أم درمان وأرسله إلى عماله في منطقة القضارف ـ القلابات بغرض «خدمة الزكوات» وإرسالها إلى العاصمة.

كذلك انشغل المهدي بموضوع الغنيمة وطريقة جمعها وصرفها. فقد أمر بأن تترك الغنيمة للمجاهدين الذين لا حرفة لهم إلا الجهاد وأن يؤخذ

---

(١) مهدية، فلم، ١٠٠/١/١، ص ١٤.

الخمس من الذين لهم حرفة يعودون إليها بعد انتهاء الجهاد، وأن يصرف للمجاهدين المنقطعين للجهاد من بيت المال[1]. بهذا يكون المهدي قد وضع الأساس لتكوين جيش نظامي يعتمد على الدولة في معاشه ويبقى دائماً على أهبة القيام للجهاد. وقد تطور هذا التنظيم بشكل أكبر في عهد الخليفة.

ولكن مشكلة الغنائم لم تكن سهلة فهي من القضايا التي شغلت دولة المهدية وبرزت إلى السطح منذ الأشهر الأولى. فمنذ أيام المهدي الأولى في قدير وهو يحذر أصحابه من كثرة الاهتمام بالغنيمة لأنها عرض زائل ومتاع الدنيا الفانية. واستمر المهدي يرسل تحذيراته هذه باستمرار حتى وفاته. وربما راعه تكالب أنصاره على الغنائم واهتمامهم الشديد بها وهو الذي بنى دعوته على أساس روحي بحت وانطلق بها من مواقع الصوفية والزهد. حقاً، لقد جمعت الثورة المهدية غنائم طائلة من انتصاراتها العديدة كانت مصدر إغراء للأفراد بل إن بعضاً منها انضم إلى المهدي لم يكن «بجذب من نوره الساطع» أو لاقتناع يقيني بدعوته بقدر ما كان جرياً وراء الأسلاب التي عادة ما تأتي بها الحروب، وجرياً وراء الفرص المعيشية الجديدة التي قد يخلقها العهد الجديد. وكان المهدي يرى في نمو هذا التيار الدنيوي البحت ما يهدد قلب الدعوة ويصرفها عن تحقيق أهدافها ومراميها التي خطها لها. ولذلك نجده ينهي عن عرض الدنيا الزائل وقيمتها التي لا تساوي «جناح بعوضة». فأمر المهدي بالتشديد على الأنصار الذين يجرون وراء الغنيمة وطلب ضبطهم وزجرهم وأخذ غنيمتهم وإحالتها إلى بيت المال[2]. وهكذا نجد أن مشكلة الغنائم قد برزت إلى سطح الحياة في الدولة المهدية وهي لم يمض على تثبيت أقدامها سوى بضعة أشهر.

٣ ـ علاقة المهدي بالحبشة:

سارت السياسة الداخلية لدولة المهدية في منطقة القضارف ـ القلابات وفق الخطوط العامة التي رسمها المهدي لدولة المهدية كذلك سارت سياسة

(١) المهدي إلى محمود عيسى زايد، ٢ جمادى الثانية عام ١٣٠٢، مهدية، صادر رقم ٨، ص ١١.
(٢) المصدر السابق.

المهدية تجاه الحبشة وفق الإطار العام الذي حدده المهدي للسياسة الخارجية.

لم تخرج علاقة المهدي بالحبشة عن حدود علاقته بالبلدان الأخرى فلم تكن دعوة المهدية قاصرة على السودان فحسب بل كانت تسعى إلى نشر نفوذها أيضاً خارج حدود السودان وفي العالم الإسلامي بالذات. فالمهدي لم يكن يرى العالم دار سلام ودار حرب فحسب كما كان معروفاً في الفكر الإسلامي السائد، بل كان يراه على أساس أناس مؤمنين بالمهدية وأناس غير مؤمنين بها، لذلك اعتبر كل من لا يؤمن بالمهدية فهو كافر. وعلى رأس هؤلاء الكفار كان يضع الأتراك، فهم أعداء الدين الذين شوهوا وجهه وخربوه. ولذلك كان هدف المهدي الأول في سياسته الخارجية هو مصر. لأنها مقر هام للأتراك وربما لأهميتها الاستراتيجية[1]. وقد حدد المهدي الاتجاه العام لسياسته الخارجية في نبوءة واضحة قال فيها إن الرسول أخبره فيها قائلاً: «. . . فكما صليت بمسجد الأبيض تصلي بمسجد الخرطوم ثم بمسجد بربر ثم بمسجد المدينة المنورة ثم بمسجد مصر ثم بمسجد العراق ثم بمسجد الكوفة. .»[2]. يتضح لنا إذاً أن المهدي كان ينظر شمالاً إلى مصر وما بعدها، وأن الحبشة لم تكن تحتل جزءاً من اهتمامه مثل اهتمامه بمصر والبلاد الإسلامية الأخرى.

ولكن علاقة المهدي بالحبشة لا تخرج عن حدود الفكرة العامة للمهدية التي ترى أن انتشارها يجب أن يعم العالم، وبذلك تصبح الحبشة دار حرب. ولم تغير مسيحية الحبشة من نظرة المهدي. ولكن الذي أثر مباشرة على علاقته بالحبشة هو دخول الحبشة إلى جانب الحكومة المصرية ومساعدتها في إخلاء الحاميات على الحدود. بهذا أصبحت الحبشة في موقف عدائي مباشر مع دولة المهدية. وقد رأى المهدي خطورة وجود دولة معادية له على حدوده الشرقية. فهي إن لم تعرقل فكرة زحفه شمالاً فستهدد سلامة الدولة في تلك

---

(١) شبيكة، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٢) مهدية، حيدر آباد، ٥/٨، ورقة رقم ٦.

المنطقة. ولذلك كتب المهدي إلى عماله في منطقة القضارف ـ القلابات بمراقبة الحبشة والتشديد عليها وتأمين الحدود قائلاً: «. . . أما الحبشة فعما قليل سيهلك الله باقيهم حيث أنهم تعينت لحراستهم الأنصار من هنا. . . (فلتكونوا) راصدين لهم في الثغور التي تكون مرصداً لهم. . .»[1].

إذاً، لا تختلف نظرة المهدية إلى الحبشة عن نظرتها لبقية البلاد المسلمة التي لا تؤمن بالمهدية فلم يكن هناك مجال لأي التقاء بينهما دون الإيمان بالمهدية. وقد كان المهدي واضحاً في هذه الفكرة وهي تمثل الأساس الفكري لسياسته الخارجية. ولذلك عندما رد على طلب يوحنا لتوضيح أمر المهدية ومراميها، كتب المهدي خطاباً لا يختلف عن بقية الخطابات التي بعثها داخل وخارج السودان والتي يدعو فيها لاعتناق المهدية. فكتب المهدي في ١٥ يونيو عام ١٨٨٥ الموافق في ٢ رمضان عام ١٣٠٢ إلى يوحنا مخاطباً إياه «بعظيم الحبشة» مثلما كان يخاطب الولاة والملوك بألقابهم الرسمية. ثم أخذ يشرح له في أسلوب رقيق فكرة المهدية وأنه مرسل من عند الله ليدعو لفكرة المهدية ثم ذكر له الملوك الذين قتلوا والدول التي انهارت لأنها فقدت نور الإيمان ثم ذكره بانتصاراته على الأتراك والإنكليز. وهدده برفق من أن مصيره لن يختلف عنهم إذا هو لم يؤمن بدعوة المهدية. ثم شكره على مبادرته بطلب المكاتبة ودعاه للإسلام والمهدية. وتبدو براعة المهدي عندما ذكر ليوحنا سلفه النجاشي ومعاونته للمسلمين الأوائل وكيف أكرمه الله بأن حضر عهد الرسول. ثم طلب من يوحنا أن يكون كسلفه وأنهى خطابه بتهديد قاطع عندما قال: «. . . وإن أبيت إلا الإعراض فإنما عليك إثمك وإثم من تبعك ولا بد من وقوعك تحت يدنا. . .»[2]. ولعل خطاب المهدي هذا كان أقل حدة من خطابه الذي أرسله إلى الخديوي توفيق.

وقد رد يوحنا على المهدي بخطاب آخر أرسله إلى وَد أرباب ووصل القلابات في سبتمبر عام ١٨٨٥ الموافق في ١٤ ذي الحجة عام ١٣٠٢ أي

---

(١) المهدية إلى محمود عيسى زايد، ٢ جمادى الثانية عام ١٣٠٢، مهدية، صادر رقم ١، ص ١٢.

(٢) المهدي إلى يوحنا، ٢ رمضان عام ١٣٠٢، مهدية، صادر رقم ٣، ص ٦٥١.

بعد وفاة المهدي بفترة طويلة. بدأ يوحنا خطابه برفض الطريقة التي خاطبه بها المهدي كما رفض دعوة المهدي له لدخول الإسلام بل سخر وهزأ من تلك الدعوة، وتعرض لشخص المهدي بالإساءة. ثم دعا يوحنا المهدي وولد أرباب لدخول المسيحية لأنها في نظره هي الدين الصواب والحق[1]. وبهذا الخطاب يكون يوحنا قد أكد الحاجز الديني بين الحبشة والمهدية وأصبح هذا الحاجز واحداً من الأسباب الأساسية التي قام عليها الصراع بين البلدين، فإذا أضفنا إلى هذا تحرشات الحبشة الأولى ضد المهدية لاتضح لنا الخط الذي سارت عليه العلاقة بين البلدين.

لقد استطاعت الثورة المهدية في السنوات الأربع الأولى من تاريخها أن تفرض سيطرتها على كل منطقة القضارف ـ القلابات وأن تتصدى لبعض التنظيمات الإدارية والمشاكل الداخلية في محاولة لحلها. وبقيت علاقتها مع الحبشة يحفها الكثير من عناصر العداء والتحرش. وتوفي المهدي ليأتي من بعده الخليفة وليتصدى لكل هذه القضايا خلال الثلاثة عشر عاماً التي حكم فيها السودان.

---

(١) هذا الرد متضمن في: محمود أرباب إلى الخليفة، مهدية ٥١/٢/١٣. (بدون تاريخ).

الفترة الأولى من حكم الخليفة

(١٨٨٥ ـ ١٨٨٨ = ١٣٠٢ ـ ١٣٠٥)

يمكننا أن نقسم هذه الفترة إلى عهدين: الأول يبدأ بوفاة المهدي ويمتد إلى هجوم الحبشة على القلابات ومقتل محمد أرباب في ديسمبر عام ١٨٨٦ الموافق في (ربيع ثاني عام ١٣٠٤) والثاني يشمل الفترة التي كان فيها يونس الدكيم قائداً لجيوش المهدية في القلابات وينتهي بتعيين حمدان أبو عنجة واستدعاء يونس الدكيم في يناير عام ١٨٨٨ الموافق في (ربيع ثاني عام ١٣٠٥) وسنتعرض في كل عهد منها للمشاكل والقضايا الداخلية التي واجهت دولة المهدية في تلك المنطقة والتي أثرت بدورها في علاقتها مع الحبشة.

١ ـ إمارة محمد ولد أرباب:

(أ) السياسة الداخلية:

كانت المشكلة الداخلية الأولى التي واجهتها دولة المهدية في هذه المنطقة هي مشكلة الحدود بين العمالات وتحديد سلطات العمال المختلفين. ولم تكن هذه المشكلة قاصرة على تلك المنطقة بل عرفتها بقية أنحاء الدولة الفتية، على أن عمالة القضارف عانت أكثر من غيرها من حيث الاضطراب المستمر في حدودها طوال عهد المهدية وذلك لتغير الظروف السياسية والاحتياجات الحربية والاستراتيجية والاقتصادية.

لم تبرز مشاكل الحدود والصراعات بين العمال في عهد المهدي بشكل

واضح إذ طغت ظروف الثورة على كل اعتبارات تنظيمية أخرى. وعندما جاء عهد الخليفة كان من الضروري معالجة هذه القضايا بما تطلبه مهام الدولة الجديدة. فقام الخليفة بتقسيم دولته إلى عمالات تتطابق حيناً وتختلف حيناً آخر مع التقسيمات التي وضعها الحكم التركي ـ المصري. فقسم مديرية كسلا إلى عمالتين هما عمالة طوكر وعمالة القضارف. وتشمل الأخيرة ثلاثة مراكز هامة هي القلابات والقضارف والجيرة[1]. ثم قسم هذه العمالة إلى قسمين وجعل محمد ولد أرباب عاملاً في منطقة القلابات وتولى عدد من العمال أمر القضارف. ويبدو أن الخليفة قد لجأ إلى ذلك الإجراء لتفادي الصراع الذي نشب بين عماله في تلك المنطقة إذ كتب إلى ولد أرباب قائلاً: «... فقد حررنا لكم جواب وصورته بلصق هذا وذكر الجهات التي به هي جهات القلابات لا غير فالان ورد لنا جواب من الحبيب عبد الله الطريفي ومعه جواب محرر منكم للمذكور بأنكم المناظرين لأمور القضارف والقلابات وكافة الجهات الشرقية... والحال يا حبيبنا... فلفظ الجهات المذكورة بجوابنا هي جهة القلابات خاصة لا غير أما جهة القضارف وراشد فهذه جهات مستقلة عن القلابات لوحدها...»[2]. ويبدو أن ولد أرباب لم يقتنع بتحديد الخليفة لسلطانه فطلب منه الإشراف على جهات القضارف وراشد بحجة أنه يتوقع هجوماً من الحبش. ولكن الخليفة أصر على رأيه الأول. وبهذا ظلت القلابات في هذه الفترة منفصلة عن القضارف.

أما القضارف فقد تولى إدارتها عدد من العمال في هذه الفترة. ففي بداية عهد الخليفة استمر عبد الله أحمد أبو سن عاملاً عليها، ولكن بعد تمرد محمود عيسى زايد واعتقاله[3]، تشكك الخليفة في نوايا عبد الله فاتبع القضارف لمحمد عثمان أبي قرجة في كسلا ولكن هذا الوضع لم يستمر سوى بضعة أسابيع. ثم أصبح عوض الكريم كافوت عاملاً على القضارف.

---

(١) هولت، ص ٢٢٥.

(٢) الخليفة إلى محمد أرباب، ١ شوال عام ١٣٠٢، صادر رقم ١١، ص ١٩ ـ ٢٠ وكتب الخليفة إلى عبد الله الطريفي رسالة في نفس المعنى.

(٣) انظر ص ٤٤ و٤٥ من هذا الفصل عن تمرد ولد زايد.

وكان عثمان دقنة قد أرسله إلى القضارف لاعتقال ولد زايد ومراقبة عبد الله أبو سن. ويبدو أن كافوت لم يكن على وفاق مع قادة الأنصار في القضارف ولذلك أمره الخليفة بالعودة سريعاً إلى كسلا هو ومن معه من الأنصار. وخلفه عبد الله الطريفي، وقد كان حائزاً على رضاء الخليفة حتى ذلك الوقت، ولكنه لم يستمر طويلاً إذ ارتكب بعض المخالفات المالية مما أدى إلى عزله واعتقاله في نوفمبر عام ١٨٨٦ الموافق في (صفر عام ١٣٠٤)[١]. وجاء من بعده إدريس أحمد وديدي. وفي عهده قام الخليفة بتوسيع عماله على القضارف بضم منطقة النور ولد فقرا إليها في يناير عام ١٨٨٧ الموافق في ربيع ثاني عام ١٣٠٤، على أن يكون ولد فقرا مندوباً عن إدريس وديدي على «ذمة الجهاد» أما المراكز الأخرى الصغيرة فكانت تتبع إلى أحد المركزين الكبيرين.

وحدث في بداية عهد الخليفة تحول مركزي في أمانة بيت مال المسلمين. فقد عزل أحمد سليمان أمين بيت المال في ٢٦ أبريل عام ١٨٨٦ الموافق في (٢٢ رجب عام ١٣٠٢) وخلفه إبراهيم عدلان. وتبع هذا التغيير أن تغيرت أمانة بيت المال في القضارف فأوكلت إلى محمد عثمان حاج خالد وذلك في يوليو عام ١٨٨٦ الموافق في (شوال عام ١٣٠٣). واستمر ولد حاج خالد في ذلك المنصب حتى خلفه العوض المرضي[٢] في أواخر عام ١٨٨٦ مطلع عام ١٣٠٤. وقد شغل الخليفة بيت المال والمشاكل المتعلقة به، ولعل اهتمامه في هذا الصدد لم يكن بأقل من اهتمام المهدي.

وكان أول إجراء اتخذه الخليفة في أمر بيت المال أن طلب من إبراهيم

---

(١) انظر ص ٥٠ - ٥١ - ٥٢ من هذا الفصل.

(٢) العوض المرضي: اسمه الحقيقي العوض المهدي. وعند قيام الثورة المهدية غير اسمه إلى المرضي حتى لا يختلط مع محمد أحمد المهدي. وقد ولد العوض المرضي في عام ١٨٣٠. وفي أثناء العهد التركي - المصري عمل باشكاتباً لمديرية التاكا. وهاجر إلى أم درمان بعد سقوط الخرطوم. وأوكل إليه الخليفة القيام بالعديد من الأعمال المالية حتى عين فيما بعد أميناً لبيت مال العموم. وفي أواخر عهد الخليفة سجن وغرم وظل بالسجن حتى دخول الإنكليز إلى البلاد وأطلق سراحه، وبقي في كسلا حتى توفي عام ١٩١٠ م.

عدلان أن يستمر في المهمة التي أرسله لها المهدي في القضارف. وكانت تلك المهمة تتعلق بتنظيم أحوال بيت المال وطريقة الصرف منه وتأكيد السلطة المركزية لبيت المال في أم درمان. ويبدو أن إبراهيم عدلان قد أنجز مهمته بدقة إذ انتقل من القضارف ليخلف أحمد سليمان في أمانة بيت مال العموم.

وأصدر الخليفة في بداية حكمه منشوراً إلى أهالي القضارف بخصوص الغنائم والأعمال الزراعية قال فيه: «. . . ولما كان أوان نزول الغيث المبارك فقد رأينا من باب الرفق بكم والشفقة عليكم والرأفة بحالكم أن نرفع عنكم الخدمات المتصلة بالغنائم وحقوق الله غير زكاة الفطر والمواشي وذلك في شهري شوال والقعدة لكي تنتبهوا في زراعة أطيانكم وإصلاح شأنها وقد نبهنا على كافة الأنصار والمندوبين لذلك لرفع أيديهم عنكم وتخلية سبيلكم في هذين الشهرين. . .»[1]. ويظهر من هذا المنشور اتجاه الخليفة الواقعي حيال المشاكل المالية. ولعل الخليفة كان يرمي من وراء تلك السياسة المرنة ألا تتأثر منطقة القضارف اقتصادياً وهي من الشرايين الهامة التي يعتمد عليها اقتصاد دولة المهدية ولذلك آثر أن يعطي الأهالي الفرصة لاستغلال موسم الأمطار حتىٰ على حساب «الغنائم وحقوق الله».

(ب) إخضاع قبيلة الضبانية وعناصر المعارضة الأخرى:

وكانت أكبر مشكلة واجهت الخليفة في تلك المنطقة في بداية عهده هي مشكلة محمود عيسى زايد وقبيلة الضبانية عموماً. وهي تمثل فصلاً من المعارك القليلة التي واجهها الخليفة في تلك الفترة. فبعد أن اعتلى الخليفة كرسي السلطة طلب من كل القواد والعمال وزعماء القبائل أن يحضروا شخصياً إلى أم درمان لتقديم فروض الولاء والطاعة وذلك بإعطاء البيعة له ليطمئن على سلامة موقفه في الأقاليم ضد عواصف المعارضة التي أخذت سحبها تتجمع في الأفق البعيد. وكان الخليفة يرمي من وراء تلك المقابلة، أو المعاينة، عدة أشياء: منها أنه يستطيع بالمقابلة والحديث المباشر أن يسبر

(١) الخليفة إلى أهالي القضارف، في ٢ شوال عام ١٣٠٢، مهدية، صادر رقم ٢، ص ٢٥.

غور الأشخاص أكثر من طريق المراسلات. ولعل نظرة الخليفة الثاقبة وقدرته على معرفة الأشخاص كانت إحدى مميزاته. ثانياً، بحضور أولئك القواد والزعماء إلى أم درمان يستطيع الخليفة أن يبقيهم معه أطول مدة ممكنة إذا ما أحس بعدم ولاء أحد منهم، ويصبحون بذلك في حالة ضعف وهم على بعد من مركز قوتهم وأهلهم وعشيرتهم، ويسهل بالتالي القضاء عليهم. وقد كانت تلك المقابلات التي تمت في بداية عهد الخليفة، والتي أصبحت طابعاً عاماً لحكمه، من العوامل التي استخدمها في معرفة أنصاره والقضاء على معارضيه. وكان الخليفة قد طلب فيمن طلب حضورهم إلى أم درمان محمود عيسى زايد، وعبد الله أحمد أبو سن، والطاهر تاتاي، وعبد الله الطريفي، ومحمد أرباب. وقد حضر جميعهم إلا ولد زايد فإنه لم يستجب لدعوة الخليفة. وعندما أحس الخليفة بإبطائه كتب إليه رسالة في أواخر عام ١٨٨٥ مطلع عام ١٣٠٣ يستحثه للحضور قائلاً: «. . . وكان سابقاً قد تحررت لك الأوامر بالحضور ولم يقدر الله ذلك فقد سامحناك ظاهراً وباطناً فبادر الآن بالحضور لمقابلتنا ولا تخش من شيء فعليك أمان الله ورسوله ومهديه. . .»[1] من الواضح أن الخليفة كان رقيقاً في أسلوبه ومتسامحاً في روحه وقد ملأ رسالته هذه بالوعظ والتذكير بطاعة الله إذ لم يكن في مقدوره أن يفعل أكثر من ذلك وولد زايد بعيد عن قبضته مستقر بين أهله وعشيرته. ولكن ولد زايد ظل في تباطئه مما قوى الشك في نفس الخليفة ولذلك رأى أن يستعمل معه الحيلة ويستدرجه قبل الدخول معه في مواجهة حاسمة فكتب إليه رسالة أخرى يطلب إليه أن ينضم إلى عثمان دقنة إذا كان ذلك أهون عليه من الحضور إلى أم درمان. ولكن ولد زايد لم يستجب حتى لهذه الدعوة. على أن الخليفة ظل يراسله بنفس الأسلوب الرقيق والروح المتسامحة فكتب له قائلاً: «. . . والحال يا حبيبنا أنك من الأصحاب السابقين الذين بادروا بإجابة داعي الله والانقياد للمهدية رغبة فيما عند الله تعالى وبذلك لا زال سعيك مشكوراً عندنا ومحبتك ثابتة في قلوبنا. . . وكان أيها الحبيب أكثرنا لك التحرير بالحضور والمشاهدة معنا وأخذ البيعة وكذلك حررنا لك بالتوجه

(١) الخليفة إلى محمود عيسى زايد، في ٢٨ محرم عام ١٣٠٣، مهدية، صادر رقم ٩، ص ٥٢.

لعثمان دقنة وما قدر الله لك حضور وطننا أنكم إذا لم تكونوا مشغولون هناك بمصلحة دينية لكنتم حضرتم وقد سامحناكم في التأخير ولا حرج عليكم فيه... فينبغي بوصول جوابنا هذا عندك... تحضر لطرفنا...»[1].

ومما زاد من موقف وَد زايد تعقيداً حادثتان: الأولى أنه تكاسل في إحدى المرات في أمر المهدية. فقد ترك حلة أو سحنون وبها كميات كبيرة من الذرة دون حماية حتى هجم عليها الحبش وأخذوا أغلب ما بها من مؤن. وكان محمد إبراهيم ضاوي ـ أحد العمال في تلك المنطقة ـ قد نبه ولد زايد إلى ضعف موقف الحلة ولكن ولد زايد لم يعر كلامه انتباهاً. وبالرغم من أن الخليفة لم يهتم لتلك الحادثة في وقتها، إلا أنها ظلت عالقة بذهنه إذ ذكرها لولد زايد في إحدى خطاباته منبهاً له من عدم التهاون في أمر المهدية. ثانياً، أن ولد زايد قد دخل في صراع مع عمال المهدية في تلك المنطقة وأهمهم عبد الله الطريفي والنور ولد فقرا. وعلى الرغم من أن وَد زايد قد كتب إلى الخليفة متضرراً من سلوكهما نحوه، وأن الخليفة قد نبه على عامليه بعدم التعرض لوَد زايد، إلا أن الخليفة اعتبر ذلك الصراع نوعاً من عدم تعاون ولد زايد ومظهراً من مظاهر تضجره من المهدية. فكتب إلى عبد الله الطريفي في نفس الوقت أن يلاحظ ولد زايد ويراقبه إذ قال: «... وطيب نفسك معه ولا تظهر له إلا ما يسره ومع ذلك كن ملاحظاً عليه ومتى ما صدر منه شيء مخالف فيدنا به فوراً...»[2].

لقد حاول الخليفة أن يضم ولد زايد إلى صفه وأن يكسبه بكل الأساليب، ولكن يبدو أن وَد زايد لم يكن على يقين من أمر المهدية، أو لعله كان يشك من نوايا الخليفة، أو ربما كان مفتوناً بقوته وقوة قبيلته ولذلك آثر أن يظل محتفظاً باستقلاله، غير مدرك للتطورات التي أحدثتها المهدية في علاقتها بالقبائل وإصرار النظام الجديد بضرورة الولاء لسلطة مركزية واحدة،

---

(١) الخليفة إلى محمود عيسى زايد، في ٢٢ صفر، مهدية، صادر رقم ٩، ص ٦ج.
(٢) الخليفة إلى عبد الله الطريفي، في ٧ ربيع الأول عام ١٣٠٣، مهدية، صادر رقم ٢٥، ص ١٢٠.

كـانت في بادئ الأمـر في يـد المهـدي ثم الخليفـة من بعـده. فكـان لا بـد للخليفة، من القضاء عليه.

فقام الخليفة بتكليف عبـد الله الطريفي ـ وليس عـوض الكريم كـافوت كما تقول رواية الضبانيـة السماعيـة ـ باعتقـال ولد زايـد. فسار الـطريفي ومعه النور فقرا على رأس قوة من الأنصار إلى منطقة كعبـر شرق نهـر عطبـرة حيث كان ولد زايد يعسكر على الضفة الغربية مستعداً للحـرب. واستطاع الـطريفي أن يعتقل ولد زايد مستعملاً الخـدعة. فـأخبر ولـد زايد بـأنه مـرسل من قبـل الخليفة لمساعدته للمحافظة على الحدود الشرقية من غارات الحبشة، وأقسم لولد زايد على المصحف بحسن نواياه. فصدقه ولد زايـد وقام بـإرجاع قبيلتـه إلى مـراعيها بعـد أن جمعها للحـرب. وفي اليوم التـالي ذهب ولد زايـد إلى معسكر الأنصار بدعوة من الطريفي وهناك تمت مباغتـته واعتقـاله وهـو في قلة من أنصـاره بعد مقـاومة ضعيفـة استشهد فيهـا ستـة من الأنصـار. وقـد صـور الشاعر الحاردلو كيف خدع ولد زايد إذ قال في قصيدة له:

اكتب لي جواب يا صاحبي لا تنساني   ود زايـد يقول ظـاهر الأمـان غشاني

وتذهب رواية الضبانية إلى أن ولد زايد وأنصـاره على قلتهم قد حـاربوا ببطولة وقاوموا بعنف[1]. ولكننا لا نثق كثيراً في صحة هذه الـرواية لأن أحفـاد وَدّ زايد ربما حاولوا أن يظهروا أسلافهم على جانب من الشجاعـة ولعل وَدّ زايد وابنه محمد قد أبديا نوعاً من المقاومة التي أخمدت في حينها.

وقـد أبدى الخليفـة ارتياحـاً لاعتقال ولـد زايـد وطلب من الـطريفي أن يسلم وَدّ زايد إلى عوض الكريم كافوت ليقوم هذا بدوره بتسليمه إلى عثمـان دقنة بدلاً من إرساله إلى أم درمـان. ويبدو أن الخليفـة رأى من الأفضل حفظ وَدّ زايد في الشرق حتى ينتهي من صراعـه الذي بـدأ مع الأشـراف في ذلك الوقت خوفاً من أن يستفيد الأشراف من وجود ولد زايد في أم درمـان أو يغتنم هو ظروف ذلك الصراع فيهرب عائداً إلى أهله. وكان للدور الذي قام بـه ولد

---

(١) الطاهر عبد الكريم، ود زايد، ص ٧٥ ـ ٧٩.

كافوت في إرسال وَد زايد إلى دقنة ما جعل رواية الضبانية تعتقد خطأً في أن كافوت هو الذي قام باعتقال ولد زايد.

أما تاريخ اعتقال ولد زايد فغير محدد تماماً. ولكن يبدو من الخطابات المتبادلة بين الخليفة وعماله أنه اعتقل في منتصف يناير عام ١٨٨٦ أوائل ربيع الآخر عام ١٣٠٣. ثم أرسل ولد زايد إلى دقنة حيث احتفظ به أسيراً حتى سبتمبر عام ١٨٨٦ أوائل عام ١٣٠٤ ثم أرسل إلى أم درمان وسجن في «الساير».

وحتى بعد سجن ولد زايد فإن الخليفة لم ييأس تماماً من كسبه إلى جانبه. فكتب له رسالة عند حضوره إلى سجن أم درمان ذكر له فيها أن ما حل به إنما هو أمر أراده الله وقدره، وتمنى أن يكون ذلك من أسباب رشاده وإصلاحه. . ثم أخبره أنه ما زال من المظنونين بالخير، وأن حضوره إلى البقعة لم يكن إلا لصالحه. وأخيراً اقترح عليه أن يحضر عائلته إلى أم درمان ليقيموا معه لأنه قد اختير ليكون بجانب الخليفة[1]. هذا بلا شك خطاب رقيق استعمل فيه الدهاء وكان بعيد النظر. ولعله عندما طلب من وَد زايد أن يحضر عائلته أراد أن يكسب جانبه، أو ربما كان يرمي من وراء ذلك أن يكون ولد زايد تحت سيطرته التامة هو وأهله.

وقد أورد الأستاذ الطاهر عبد الكريم رواية للضبانية تقول إن وَد زايد هو الذي طلب من الخليفة أن يسمح له بإحضار عائلته إلى أم درمان لتقوم بخدمته في المعتقل[2]. وهذا الرأي ضعيف إذ يستبعد أن يضع وَد زايد نفسه وأهله تحت السيطرة المباشرة للخليفة وأن يعيش على إحسانات الخليفة. ثم نجد أن خطاب الخليفة السالف الذكر يكذب هذا الرأي أيضاً. وعليه فقد قام وَد زايد بإرسال ابنه محمد لإحضار عائلته وحمله الخليفة رسالة إلى عمال المنطقة لمساعدته والأخذ بيده والإسراع في إنجاز مهمته

(١) الخليفة إلى محمود عيسى زايد، مهدية، صادر رقم ١١، ص ٨٩.
(٢) ود زايد، ص ٨٠.

وهي «إحضار كافة أهالي منازل الحبيب محمود عيسى زايد ونساؤه وعشيرته». وفعلاً تم جمع عائلة ولد زايد وإرسالهم إلى أم درمان.

أما قبيلة الضبانية فقد بقيت بعد اعتقال زعيمها دون رئيس خصوصاً وأن محمد وَد زايد كان معتقلاً مع والده. عند ذلك برز عوض الكريم عيسى زايد، أخ محمود وَد زايد وتقلد زعامة القبيلة ليجمع شملها حتى يحفظها من التشتت والضياع. فجمع ما بقي من أفراد القبيلة وكتب للخليفة يطلب منه الانضمام إلى الراية الزرقاء، كما طلب أن ترفع عن القبيلة «المعارضة» ووعد بالوقوف بجانب المهدية والجهاد في سبيل الله. فقبل الخليفة طلبه وعينه عاملاً على قبيلته. وكتب الخليفة إلى عبد الله الطريفي يخبره بتعيين عوض الكريم زايد وطلب منه أن يرفع عن الضبانية بقية العملاء وأن يترك جمع الزكاة إلى عوض الكريم، كما أوصاه بمعاملتهم بمقتضى العدل والإنصاف إذ أن «المقصود راحة العباد وهدايتهم إلى الطريق الرشاد بالحكمة وطريق الرفق»[1].

وبعث الخليفة بخطاب آخر إلى كافة عربان الضبانية يحثهم فيه على نبذ الدنيا والعمل من أجل الفوز بالآخرة ثم أوصاهم قائلاً: «... وعليكم أمان الله ورسوله ومهديه عليهما السلام وتم أماننا فاطمئنوا وابقوا في محلكم الذي أنتم فيه الآن واشتغلوا بمزارعكم وقضاء حوائجكم وكونوا قائمين بأمور دينكم على الوجه المطلوب في محلاتكم ولا تخشوا حصول شيء عليكم لا في أنفسكم ولا في أولادكم...»[2]. لقد كان الأمان الذي بعثه الخليفة إلى الضبانية ضرورياً لهم بعد سنوات الشدة التي مرت بهم وهم هائمون بعيداً عن أرضهم، وكان ضرورياً كذلك لأن الخليفة كان يود أن يعيد لقبيلة الضبانية استقرارها لتساهم في الإنتاج الزراعي خصوصاً بعد أن انكسرت شوكتها وعادت طائعة إلى حظيرة المهدية. ويبدو أن الخليفة كان يعول على

---

(١) الخليفة إلى عوض الكريم عيسى زايد، في ١٩ جمادى الأول عام ١٣٠٣، مهدية، صادر رقم ٧، ص ١٧.

(٢) الخليفة إلى كافة عربان الضبانية، في ٢٥ جمادى الثاني عام ١٣٠٣، مهدية، صادر رقم ٢٩، ص ٣٥٦.

أهمية الضبانية الاقتصادية وقد أوضح هذا في رسالة بعث بها إلى إدريس أحمد ومحمد عثمان خالد يقول فيها أن للضبانية منفعة كبيرة لبيت المال، ولذلك أوصاهما خيراً بها[1]. إذاً، فقد استطاع الخليفة أن يعيد قبيلة الضبانية إلى حظيرة المهدية، مستشعراً أهميتها الاقتصادية، ولكن يبدو أن إعادة الضبانية هذه كانت لها تكاليف باهظة في الأرواح والأموال. ويمكننا أن نقول إن مسلك الخليفة تجاه الضبانية كان مسلكاً مرناً متسامحاً. وهذا يعطينا صورة لسياسة الخليفة تجاه القبائل المعارضة. ويمكننا أن نقول أيضاً، إن الخليفة لم يكن يقضي على معارضيه إلا بعد أن يضطر إلى ذلك اضطراراً.

أما عبد الله أحمد أبو سن فقد اختلف مصيره عن مصير وَد زايد. فقد حدث عند اعتقال ولد زايد أن اعتقل عبد الله وزج به في السجن اعتقاداً بأنه كان مشاركاً له في العصيان. ولكن تبين للخليفة أن عبد الله لا دور له في أحداث وَدّ زايد ولذلك أمر إخلاء سبيله وعدم التعرض له وإرساله إلى أم درمان فوراً.

والتفت الخليفة بعد ذلك للقضاء على عبد الله الطريفي عامله في القضارف. وبدأ الخليفة يشك في سلوك الطريفي بعد اعتقال وَد زايد والاستيلاء على ثروته. ولعل ثروة ولد زايد كانت من أسباب القضاء عليه. فطلب الخليفة إلى الطريفي أن يقسم أموال ولد زايد إلى أخماس وأن يرسل أربعة منها إلى عثمان دقنة والباقي إلى أم درمان. ويبدو أن الطريفي لم يكن دقيقاً في تصريف تلك المهمة المالية. فطلب منه الخليفة ألا يقوم بأي أعمال مالية أخرى خاصة أموال ولد زايد وأرسل محمد عثمان حاج خالد ليتولى كل الأعمال المالية المتعلقة ببيت المال والغنائم وطلب من الطريفي أن يطيعه وأن يقدم له أي مساعدة ممكنة.

ويبدو أن مهمة حاج خالد هي أن يقوم بجرد عام لبيت المال ثم يبعد عنه الطريفي كلياً. ولكن الطريفي لم يقبل أن تسلب منه سلطات بيت المال

---

(١) الخليفة إلى إدريس أحمد ومحمد عثمان حاج خالد، في ٤ ربيع الثاني عام ١٣٠٤، مهدية، صادر رقم ١١، ص ١٠٩.

وهي مصدر نفوذ كبير له، ولذلك لم يتعاون مع محمد عثمان حاج خالد ولم يقدم له المساعدة المطلوبة. فنشب بينهما خلاف من نوع تلك الخلافات التي يزخر بها تاريخ المهدية. وحسماً لذلك النزاع قام الخليفة بإرسال العوض المرضي بغرض استلام أموال ولد زايد من الطريفي، وأن يكون المسؤول عن بيت المال على أن يعاونه محمد عثمان خالد في تلك المهمة. ويبدو أن الطريفي قد تردد في قبول الوضع الأخير كذلك. فبعث له الخليفة بخطاب حاد اللهجة قال فيه: «. . . سبق التحرير لكم بتسليم كافة ما هو بطرفكم من حقوق بيت المال إلى الحبيب العوض المرضي وأكدنا عليكم بإبراء ذمتكم وتنظيف طرفكم. . فينبغي لكم أن تسعوا في ذلك وتسلوا أنفسكم من الحساب في يوم المآب. . .»[1].

وعلم الخليفة ببعض التصرفات غير المقبولة من جانب عبد الله الطريفي والتي أدت في نهاية الأمر إلى اعتقاله. فقد علم أن عبد الله الطريفي وأخاه محمداً يقومان «بأمور مغايرة» للدين ومخالفات مالية. ويبدو أن الطريفي كان قد استبقى لديه بعض أموال بيت المال ولم يسلمها لمحمد عثمان خالد. كذلك قام الطريفي بالتعدي على محمد عثمان خالد الذي قام بإبلاغ الأمر للخليفة، الذي اعتبرها مخالفة دينية. كما تأخر الطريفي في إرسال سرية الطاهر تاتاي عندما طلب منه الخليفة ذلك، فاضطر الخليفة إلى تعنيفه في هذا الشأن. ونتيجة لمخالفات الطريفي المتكررة قرر الخليفة أن يحسم الأمر، فأرسل إدريس أحمد وديدي إلى القضارف ليقوم باعتقال الطريفي وتجريده من أمواله وجهاديته. وفعلاً ذهب إدريس إلى القضارف واعتقل عبد الله الطريفي مع أخيه محمد ومعهما أمين بيت المال يوسف طاهر، وقام بوضعهم في الحديد وأودعهم السجن. وتبين لإدريس أن عبد الله الطريفي قد استولى على كميات من الذهب وأنه قام بإرسالها مع أخيه محمد الطريفي إلى «السافل». ثم قام إدريس بالاستيلاء على كل جهادية

---

(١) الخليفة إلى عبد الله الطريفي، في ٢٧ ذو القعدة عام ١٣٠٣، مهدية، صادر رقم ١١، ص ٥٦.

الطريفي فأصبح بلا قوة حربية وبلا مال. ورأى الخليفة أنه من الصواب إرسال الطريفي وجماعته إلى أم درمان حتى يتفرغ إدريس لتنظيم الجهادية فأرسل الطريفي مع جماعته إلى البقعة يصحبه النقيب حمزة صديق يعقوب، فوصلوا في آخر فبراير عام ١٨٨٧ الموافق في أوائل جمادى الثانية عام ١٣٠٤. وبهذا يكون الخليفة قد تمكن من القضاء على عامله في القضارف بعد صراع استمر قرابة العام. ثم أصبح إدريس وديدي عاملاً على القضارف.

تبرز لنا من الحادثة الماضية بعض الحقائق عن الأوضاع الداخلية في دولة المهدية نشير منها إلى حقيقتين: الأولى أن الغنائم وأموال بيت المال عموماً كانت في كثير من الأحيان مصدر إغراء للعمال في الأماكن النائية، وأن بعض أولئك العمال قد كون لنفسه منها ثروة شخصية. فهل يرجع تصرف أولئك العمال إلى بعدهم عن مراقبة السلطة المركزية، أم يرجع لعدم تعمق روح المهدية فيهم، ونظرتهم لها على أنها سلطة سرعان ما تزول، ولذلك قاموا بإثراء أنفسهم لمواجهة أي تحولات قد تطرأ في المستقبل؟ لعل ذلك راجع إلى كلا السببين. وقد شهدت منطقة القضارف عدة أمثلة من تلك المخالفات المالية لأنها كانت من أغنى مناطق الدولة المهدية. والحقيقة الثانية هي أن الخليفة كان يجد صعوبة في القضاء على العمال الخارجين عن سلطته في المناطق البعيدة خاصة إذا كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذاتي وهم وسط جهاديتهم وحاشيتهم وأقاربهم الذين يحيطون بهم ففي مثل هذه الأحوال كان الخليفة يلجأ إما إلى الحيلة بأن يستدرج العامل إلى أم درمان أو يرسل له من يباغته ويعتقله ويجرده من مصادر قوته.

(ج) الصراع مع الحبشة:

قبل التعرض لتفاصيل هذا الصراع وأحداثه نقف قليلاً عند الأسس النظرية التي ارتكزت عليها سياسة الخليفة الخارجية.

اعتنق الخليفة فكرة الجهاد كما حددها المهدي ونادى بها. والجهاد، سواء كان على النطاق المحلي أو الخارجي، كان من الأفكار الأساسية في دعوة المهدية. وقد رأى الخليفة في استمرار فكرة الجهاد استمراراً لدعوة المهدية وقوة دافعة لها. لذلك تميزت سياسة الخليفة الخارجية باستمرار فكرة الجهاد والفتح ونشر الدعوة المهدية[1]. فكانت حروب الخليفة مع الحبشة تعتمد على هذا الأساس الفلسفي الهام. ولكن كانت لتلك الحروبات دوافع أخرى. أولها أن الخليفة كان يريد أن يشغل جيوشه، التي تكونت خلال الصراع ضد الحكم التركي ـ المصري، بالغزوات والحروبات والأعمال الحربية الأخرى. فالخليفة لم يكن يريد أن تبقى تلك الجيوش في حالة هدوء مما يدفع بها للتعدي على الأهالي في المناطق المختلفة خصوصاً المناطق الزراعية، أو ربما تدفع حالة الاستقرار والتعطل بعض قواد تلك الجيوش للانفراد بالسلطة والاستئثار بها لأنفسهم. ثانياً، كانت الغنائم من الأسباب التي دفعت بعدد من القبائل للانضواء تحت راية المهدية، ولذلك فإن استمرار الحروبات من أجل الغنيمة سيجعل تلك القبائل تحتفظ بولائها للمهدية مستعدة للجهاد في البوغازات الهامة. فلم يكن في مقدور الخليفة أن يحتفظ بجيش كبير مثل جيش بوغاز القلابات، وأن يقوم بمده بالغذاء والكساء فكان لا بد لذلك الجيش من الغزو حتى يعيش نفسه. ثالثاً، منطقة القلابات لها أهميتها الخاصة. لها أهمية تجارية فالاستيلاء عليها والدفاع عنها كان أمراً ضرورياً إذ يعود بفوائد تجارية كما يضمن السيطرة على سير التجارة نفسها. ولها أهمية استراتيجية كذلك. فثغر القلابات ثغر حصين على الحدود الحبشية وحفظ السودان يقضي بحفظه مسدوداً. لذلك كانت حروبات الخليفة مع الحبشة لها أسبابها ودوافعها ولم تكن حروبات بلا هدف ولا مبرر كما يقول ثيوبولد ويكرره محمد فؤاد شكري[2]. وسنحاول في هذا الفصل وفي الفصول القادمة أن نثبت صحة تلك الأهداف ونرى مدى قوتها كمحرك

---

(١) شبيكة، ص ٣٧٥ ـ هولت، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) A.B. Theobold, The Mahdia, p.151.

لسياسة الخليفة تجاه الحبشة[1].

بقيت قضية أخيرة في علاقة الخليفة بالحبشة وهي الخاصة بحديث الرسول ﷺ عن الحبش الذي يقول فيه «اتركوا الحبش ما تركوكم» فإذا كان الرسول قد دعا إلى ترك الحبش فكيف توفق دولة المهدية بين الحديث الشريف وحروباتها مع الحبشة؟ يبدو أن هذا التناقض قد شغل ذهن الخليفة ومن حوله من المفكرين. لذلك نجد أن إسماعيل عبد القادر الكردفاني قد تصدى لهذه القضية في شيء من التفصيل في كتابه «الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش». يبدأ الكردفاني مناقشته بالحديث عن دولة الحبشة فيقول إنها من الأمم القديمة ذات البأس والقوة في الحرب. وعندما ظهر الرسول كان مهتماً بنشر الدعوة في الجزيرة العربية وكان هذا هو هدفه الأول. ولذلك لم يشأ أن يشغل أنصاره بحرب مع دولة قوية مثل الحبشة قد تشغلهم عن تحقيق الهدف الأساسي. لذلك أمر المسلمين بترك الحبش والاشتغال بمقاتلة غيرهم، ويرى الكردفاني أنه قد جاز ترك مقاتلة الحبش في ذلك الزمان والاشتغال بغيرهم. وبما أن ترك قتال الحبش أمر جائز فيصبح قتالهم جائزاً كذلك إذا لم يقفوا عند حدودهم مثل ما كانوا من قبل. ويستمر الكردفاني ليقول إن الأتراك قد انشغلوا بالشهوات وتركوا القيام بشعائر الإسلام وأهملوا أمر الجهاد وأهملوا الثغور حتى تمكن الكفار ـ أي الحبش ـ من دخول أرض الإسلام وملكوا ضواحيها ووضعوا النواقيس على الكنائس. وامتدت يدهم حتى القلابات وغيرها من بلاد المسلمين وجعلوا عليها عمالاً من عندهم وألزموا أهلها بدفع الجزية (القبر) كل رأس سنة. ثم إن ملكهم يوحنا قد اتخذ سياسة معادية للإسلام، فقد بث جنوده على سواحل البحر

(١) حدد هولت مراحل ثلاثاً لسياسة الخليفة الخارجية وهي:

١ ـ ١٨٨٥ ـ ١٨٨٩ وهي المرحلة التي حدثت فيها أهم حروبات الخليفة مع الحبشة.

٢ ـ ١٨٨٩ ـ ١٨٩٦ فترة ركود في السياسة الحربية على اثر هزيمة عبد الرحمن النجومي في توشكي.

٣ ـ ١٨٩٦ ـ ١٨٩٨ بداية تدهور الخليفة وتغول الدول الأوروبية على دولة المهدية ثم نهاية الخليفة.

P.M. Holt, The Sudanese Mahdia and the outside world, Bulletin of S.O.A.S., Vol. XXI, 1958.

الأحمر وأخذ من الأتراك عدة مدن. ويصفه الكردفاني بأنه من أشد ملوك الحبشة بغضاً للإسلام حتى أنه كان يتشاءم من مقابلة المسلم في الصباح. كما قام بإرسال جنوده إلى القلابات حيث قاموا بقتل المسلمين. ولذلك يرى الكردفاني أن محاربة الحبش ليست أمراً جائزاً فحسب، بل هي واجب، وأن الحديث الشريف «اتركوا الحبش ما تركوكم» لم يعد قائماً بعدئذ[1]. وعليه فإن حرب المهدية مع الحبشة لها أسباب سياسية واقتصادية ودينية. فكيف بدأ ذلك الصراع في عهد الخليفة وكيف تطور؟

بعد وفاة المهدي وصل رد يوحنا على الخطاب الذي أرسله له المهدي والذي تحدثت عنه في الفصل السابق (ص ٣٩). وقد بعث يوحنا مع ذلك الرد بخطاب إلى الخليفة، ويبدو أنه لم يختلف في محتواه عن الخطاب الذي بعثه إلى المهدي. فلا غرابة إذا أحدث رد فعل عنيف عند الخليفة إذ نجده يشير إلى خطاب يوحنا بقوله: «... ورد الجوابين من الكافر النقس.. ونقول الله أكبر على كل من كفر وتمرد وفجر (و) الله ولي الذين آمنوا ... والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت..»[2] وكتب إلى عبد الله الطريفي معلقاً على نفس الخطاب قائلاً: «... أما في خصوص عدو الله ريس الحبشة فإن خطابه وصل وعلم ما هو منطوياً عليه خذله الله وأذله ولا تخشوا من جهته فإنه مطرود مخذول..»[3] هكذا كانت بداية العلاقة بين الخليفة والحبشة علاقة يكتنفها العداء ويحفها العنف. وقد انعكس هذا الاتجاه في المعارك المتكررة التي شغلت حيزاً كبيراً من عهد الخليفة.

في نوفمبر عام ١٨٨٥ الموافق في صفر عام ١٣٠٣ طلب محمد أرباب إذناً من الخليفة بالهجوم على كنيسة للحبش تقع على مسافة يوم من القلابات وقد كان الحبش اتخذوها نقطة لشن الغارات على حدود دولة المهدية. فرد عليه الخليفة مؤيداً، وناشده ألا يدع الحبش «يفسدوا ديار الإسلام وينهبوا المسلمين»، وسمح له بتخريب الكنيسة إذا كان ذلك ممكناً ثم حذره من

---

(١) الطراز، ص ٥٠ ـ ٥٤.

(٢) الخليفة إلى محمد أرباب، في ١٢ محرم عام ١٣٠٣، مهدية، صادر رقم ٩، ص ١٧.

(٣) الخليفة إلى عبد الله الطريفي، في ١٢ محرم عام ١٣٠٣، مهدية، صادر رقم ٩، ص ١٧ ـ ١٨

التسرع في الهجوم على الحبش لأنهم متحصنون في أماكنهم، وأكد عليه أن يكون دائماً في حالة تأهب واستعداد[1]. ولعل الخليفة لم يكن متأكداً من قوة ولد أرباب ومن مقدرته على مصادمة الحبش، ولعله قد خشي كذلك من وقوع هزيمة حربية على جيشه وهو ما زال في بداية حكمه قد تعود بنتائج وخيمة ولذلك كانت رسالته إلى ولد أرباب مزيجاً من الحماس والتريث.

وفي يناير من العام الجديد ربيع ثاني عام ١٣٠٣ قام صالح شنقا ومعه أحد قواد الحبشة ويدعى دهناشوم، بالهجوم على القلابات. ويبدو أن الهجوم كان ضعيفاً إذ تمكن الأنصار من صده وقتلوا خمسة من أتباع دهناشوم، وتمكن صالح شنقا من الفرار مع عدد من أتباعه. وقام الأنصار باقتفاء أثرهم وقضوا على فلولهم الهاربة، أما صالح شنقا فقد استطاع أن ينجو بنفسه[2]. وقام الحبش كذلك بهجوم مماثل على جهة تبارك الله استطاع النور فقرا من صده وغنم عدداً وافراً من نساء الحبش. ثم سار النور فقرا على رأس ألف مقاتل لتعزيز جبهة القلابات لأنها أكثر تعرضاً لهجمات الحبش، خصوصاً وأن الأخبار قد بدأت تتواتر عن استعداد الرأس عداد للهجوم عليها. كما انضم أحمد البصيري علي محمد أرباب كذلك.

وفي يونيو عام ١٨٨٦ الموافق في رمضان عام ١٣٠٣ قام ولد أرباب بالهجوم على جبل غورة بالحبشة، وقد لاقت هذه الحملة مصاعب شتى مثل وعورة الطريق، وانضمام بعض الجبرتة في تلك المنطقة إلى جانب الحبش على عكس ما كان يتوقع الأنصار. ولكن بالرغم من تلك الصعوبات استطاع محمد أرباب أن يهزم الحبش وأن يحتل جبل غورة، وعين أحمد البصيري وكيلاً عليه[3]. وكان ذلك أول امتداد لدولة المهدية داخل حدود الحبشة.

وكان منتصف عام ١٨٨٦ أواخر عام ١٣٠٣ هو فصل الأمطار الذي لا

---

(١) الخليفة إلى محمد أرباب، في ٢١ صفر عام ١٣٠٣، مهدية، صادر رقم ٩، ص ٩٢، لعل هذه هي كنيسة غبتة التي قام الحاج علي ولد سالم من قبيلة الكواهلة بالهجوم عليها. واتخذ رأس عدار ذلك الهجوم سبباً في هجومه على القلابات. راجع سلاطين، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

(٢) الخليفة إلى عبد الله الطريفي، في ١ جمادى الأولى عام ١٣٠٣، مهدية، صادر رقم ٩، ص ٢٥٦.

(٣) الخليفة إلى محمد أرباب، في ٢٧ شوال عام ١٣٠٣، مهدية، صادر رقم ١١، ص ٣٥.

يستطيع فيه الحبش القيام بأي أعمال حربية. فاغتنم الخليفة هذه الفرصة، إذ كان عليماً بطبيعة الأحوال الجغرافية، فطلب من قواده في المنطقة أن يحضروا إلى أم درمان. ولعله كان يرمي من تلك الزيارة أن يقف بدقة على تحركات الحبش وإمكانية صمود جيوشه ضد هجومهم الذي كان يتوقع أن يشنوه بعد نهاية موسم الأمطار. وقد استطاع الخليفة خلال تلك الزيارة أن يقف على ضعف الحاميات على الحدود الحبشية، لأنه ما أن عاد ولد أرباب والنور فقرا حتى أتبعهما بخطاب إلى إدريس أحمد وديدي عامل القضارف يطلب منه أن يمد يد العون لهما لأنهما مكلفان بسد البوغازات وحراستها. وكان الخليفة يتوقع أن يقوم الحبش بهجوم على بوغازات المهدية بعد نهاية فصل الخريف وفعلاً كان توقعه صحيحاً.

بدأ الحبش هجومهم على المناطق الأكثر قرباً إليهم، فهجموا أولاً على جهة التومات. فخف إدريس أحمد لملاقاتهم، ولكن تحركات الحبش في تلك المنطقة لم تكن إلا مجرد مناوشات فلم تحدث معارك رئيسية. ثم قام الحبش بالهجوم على جبل غورة وقتلوا أحمد البصيري عامل المهدية هناك وأعادوا سيطرتهم على الجبل[1]. وفي يناير عام ١٨٨٧ الموافق ربيع الثاني عام ١٣٠٤ شن الحبش هجومهم الرئيسي على جبهتي تبارك الله والقلابات وكان السبب المباشر الذي برر به الحبش ذلك الهجوم هو أن أحد أمراء ولد أرباب ويدعى الحاج علي ولد سالم قد قام بالهجوم على كنيسة غبتة وخربها. فأرسل الرأس عدار، حاكم مقاطعة أمهرة، خطاباً إلى ولد أرباب يطلب فيه تسليم الحاج علي وكان ذلك الخطاب قد أرسل بإيعاز من صالح شنقا والفكي المضوي عبد الرحمن[2]. وعندما رفض ولد أرباب

---

(١) الخليفة إلى محمد أرباب، في ٢٥ ربيع الثاني عام ١٣٠٤، مهدية، صادر رقم ١١٩.

(٢) الفكي مضوي عبد الرحمن من خريجي الأزهر. عاد إلى السودان في العهد التركي ـ المصري حيث أنشأ حلقة للدرس في كركوج. وعندما سمع بالمهدي هاجر إليه في جبل قدير فعينه المهدي عاملاً على سنار. ولكنه لم يكن عميق الإيمان بالمهدي فذهب إلى الخرطوم وبعد سقوط الخرطوم التحق بالمهدي للمرة الثانية ثم هرب إلى الحبشة وأصبح ضمن العناصر التي تهاجم دولة المهدية على الحدود. . . وتزوج الشيخ المضوي من الحبشة. وفي عام ١٨٩٠ ذهب إلى مصر. وبعد =

تسليمه قام عدار بالهجوم عليه. وكان هجوم الحبش من اتجاهين: الأول بقيادة عجيل الحمراني على النور فقرا، والثاني بقيادة الرأس عدار على القلابات[1].

كان هجوم الحبش على جبهة النور فقرا هجوماً مفاجئاً وسبب ذلك أن الطلائع التي كان يرسلها الأنصار لاكتشاف أخبار الأعداء كانت تأتيهم بمعلومات خاطئة «خيانة منهم لأنهم من قبائل الحمران والضبانية» والتي لم تكن لها مصلحة كبيرة في المهدية. ففي أواخر يناير عام ١٨٨٧ أواخر ربيع الثاني عام ١٣٠٤ قام عجيل بمباغتة النور فقرا بجيش يتكون من حمران وضبانية وشكرية وهدندوة وتكارير، وقتلوا نحواً من خمسمائة من الأنصار واستولوا على الديم وغنموا ما به من نساء وأموال[2]. ولكن ولد فقرا استطاع أن ينجو بنفسه. وبعد أيام وصلته نجدة بقيادة إدريس أحمد وحامد علي وشايب أحمد ولكنها وصلت بعد أن تمكن الحبش من العودة إلى بلادهم ليستعدوا لهجوم آخر. وعاد إدريس لأنه لا يستطيع أن يدافع عن البوغاز ويترك القضارف دون حماية، خصوصاً وأن هجوم الحبش الأخير قد أحدث نوعاً من الفوضى في المنطقة ولذلك آثر إدريس أن يتحصن في التومات. ثم قام عجيل بالزحف نحو التومات، وفي طريقه هاجم قافلة كانت محملة بالذرة في طريقها لكسلا. وسار عجيل حتى صار على مسافة يوم من التومات. فقام بتقسيم جماعته إلى مجموعتين، جزء يهجم على التومات والجزء الآخر على محمد عثمان خالد الذي كان متحصناً في دوكة. وكان الخليفة قد أمر إدريس أحمد بعدم الهجوم على الحبش وطلب منه أن يتحصن في مكانه حتى تصله النجدات. ولعل الخليفة كان يخشى من أن أي هجوم غير مركز من جانب

= الغزو الإنكليزي ـ المصري رجع إلى السودان وذهب إلى حلة العيلفون وحاول أن يجمع حوله بعض الأتباع ويخلق اضطراباً للحكومة فاعتقلته السلطات البريطانية.

(١) يقول شقير (ص ١٠٥٩) أن رأس عدار هو الذي قام بالهجوم على النور فقرا ولكن الوثائق لم تثبت هذا الرأي ولعل شقير وقع في هذا الخطأ لأن الهجوم على القلابات كان بعد الهجوم على النور فقرا ولذلك اعتقد أن الهجومين قام بهما شخص واحد.

(٢) الخليفة إلى حمدان أبو عنجة، في ٣٠ ربيع الثاني عام ١٣٠٤، مهدية، ٢٩٢/٤/٢٥/١.

الأنصار قد يؤدي إلى نتائج ضارة. وقد عبر الخليفة عن قلقه للموقف الحربي في تلك المنطقة في خطاب إلى حمدان أبو عنجة. أما عجيل فلم يقم بأي هجوم آخر على الأنصار، ولعله خشي من تحصينات الأنصار، فآثر أن يعيث في الأرض نهباً وسلباً دون الحاجة إلى الدخول في معركة حربية.

وفي اليوم التالي لهزيمة النور فقرا قام الرأس عدار، على رأس ستين ألف مقاتل، بالهجوم على محمد أرباب الذي كان كل جيشه لا يتعدى ستة آلاف مقاتل ولعل هذه الأرقام التي ذكرها سلاطين مبالغ فيها ولكنها تعكس التفوق العددي لجيش الرأس عدار على أنصار محمد أرباب. وتمكن رأس عدار من هزيمة الأنصار، بل أوشك أن يبيد الحامية عن آخرها لولا أن عدداً قليلاً بقيادة محمد أرباب تمكنوا من الانسحاب إلى مكان يبعد يوماً ونصفاً من القلابات. واحتل الحبش القلابات وأحرقوها وغنموا كل ما بها من مال وعتاد ثم قاموا بمطاردة فلول الأنصار وقتلوا محمد أرباب وذلك في أواخر يناير عام ١٨٨٧ آخر ربيع الثاني عام ١٣٠٤[١].

ونتيجة لتلك الحروب فقد أصبحت كل المنطقة من «حد القلابات إلى القضارف في اضطراب شديد» بل إن بعض القبائل هناك تطلعت للانضمام للحبش[٢]. أما الحبش فقد عادوا إلى بلادهم بعد تلك الانتصارات ولم يوالوا زحفهم. وربما فعلوا ذلك ليستعدوا لهجوم آخر أو لعلهم اكتفوا بما حققوه من نصر. أما فلول الأنصار في القلابات فقد التفوا حول محمد أرباب سكر الذي كان وكيلاً لمحمد ولد أرباب.

أحدثت تلك الهزائم رد فعل عنيف عند الخليفة، وربما خشي أن يواصل الحبش زحفهم على كل منطقة القضارف ـ القلابات. فقام باتخاذ إجراءات حاسمة وسريعة تمثلت أولاً في إرسال يونس الدكيم فوراً إلى المنطقة، وثانياً استدعاء حمدان أبو عنجة من جبال النوبة على وجه السرعة.

---

(١) الخليفة إلى إدريس أحمد، في ١٥ جمادي الأول عام ١٣٠٤، مهدية، صادر رقم ١١، ص ١٥٠.

(٢) الخليفة إلى حمدان أبو عنجة، في ٣٠ ربيع الثاني عام ١٣٠٤، مهدية، ٢٩٢/٤/٢٥/١.

وهكذا انتهت فترة محمد أرباب في القلابات والحركة المهدية تمر بأيام من أصعب أيامها هناك، فمصيرها معلق وقوادها بعضهم قتل وبعضهم متحصن في مكانه في انتظار النجدة. وتحرك يونس الدكيم إلى القلابات ليبدأ عهده في تلك المنطقة.

٢ ـ عهد يونس الدكيم[١]:

تمتد فترة يونس الدكيم في منطقة القضارف ـ القلابات إلى عام وبعض عام برزت خلالها ثلاثة جوانب جديرة بالدراسة. أولاً مسألة تعيين يونس على القلابات ومسيرته من أم درمان إلى القلابات، ثانياً معالجته للقضايا الداخلية التي واجهته، ثالثاً حروباته مع الحبشة.

(أ) مسير يونس الدكيم إلى القلابات:

ترجع صلة يونس الدكيم بمنطقة القضارف ـ القلابات إلى مطلع عام ١٨٨٦ وذلك عندما عينه الخليفة عاملاً عمومياً على الجزيرة والقضارف ـ القلابات. وقد وقع اختيار الخليفة على يونس الدكيم لصلة القرابة التي تربطه به ولثقته فيه وهو على حد قوله «مفضي سره». وكان تعيين يونس للجزيرة تعييناً سياسياً لأن الجزيرة من المناطق الهامة التي يريد الخليفة أن يوطد نفوذه فيها. وأمضى يونس العام الأول الذي امتد حتى يناير عام ١٨٨٧ الموافق في جمادى الأولى عام ١٣٠٤ وهو مقيم بالجزيرة دون أن يمارس سلطانه على المناطق الأخرى من عمالته مع احتفاظه بالنفوذ الأسمي فقط. ولم تكن الفترة التي قضاها يونس الدكيم في الجزيرة ناجحة تماماً وذلك لأنه أطلق العنان لجيشه لسلب ونهب الأهالي مما أدى إلى ارتفاع أسعار الذرة. فاضطر الخليفة إلى استدعائه بكامل جيشه إلى أم درمان حيث بقي بها إلى أن ذهب إلى القلابات. ولعل الخليفة رأى في القلابات مكاناً مناسباً يبعد فيه

---

(١) يونس الدكيم من قبيلة التعايشة وهو ابن عم الخليفة. وقد لمع اسمه عندما عين عاملاً على الجزيرة والقلابات. ثم نقل عاملاً على دنقلا لفترة وجيزة. وعاد ثانياً إليها عام ١٨٩٥ بدلاً من محمد خالد زقل. واشترك مع الخليفة في واقعة أم دبيكرات حيث وجد مختبئاً بين القتلى فأسر. ونقل إلى مصر ثم أعيد إلى السودان حيث توفي في عام ١٩٢٨.

يونس الدكيم بجيشه ريثما يصل حمدان أبو عنجة الذي كان قد استدعي من كردفان على عجل.

أخذ يونس الدكيم يستعد للذهاب للقلابات وذلك بعد أن وصلت أخبار هزيمة الأنصار في تلك المنطقة. وفي آخر ديسمبر عام ١٨٨٦ أواخر ربيع الثاني عام ١٣٠٤ خرجت راياته للعرضة خارج أم درمان استعداداً للسفر. وكتب الخليفة إلى عدد من عماله لينضموا إلى يونس الدكيم في الطريق ومن هؤلاء أحمد المكاشفي والمرضي أبو روف ومحمد حامد جفون ومحمد علي أبو ضلع، وكما كتب بذلك إلى «كافة الأنصار على طريق جيش يونس الدكيم». وفي يوم ٣١ يناير عام ١٨٨٧ الموافق في ٦ جمادى الأولى عام ١٣٠٤ تحرك يونس بجيشه من الشاطئ الشرقي للنيل الأزرق متجهاً إلى القلابات. وأكد الخليفة على يونس أن يسير بجيشه بطريق الشرق، كما كتب إلى أهالي الجزيرة بذلك قائلاً: «. . . وقد تأكد على عموم الأنصار السير بالطريق المذكور وحذرناهم عن القطوع إلى الهوى لأنه ليس بطريق لهم ولما أنكم من جملة الأنصار فيلزم أن كل من تجدونه قطع إلى الهوى من الجيش المذكور تضبطوه وتشعبوه وتوصلوه إلينا لأجل مجازاته لا سيما إذا كان معه عائلة. . .»[1]. كما أكد على يونس الدكيم عدم التعدي على أهالي الجزيرة والتزام طريق الشرق في مسيره.

والسبب في اختيار طريق الشرق هو أن الخليفة كان يخشى من أن يحدث عبور ذلك الجيش في قلب الجزيرة نوعاً من الفوضى من جراء النهب والسلب. والسبب الثاني أنه كان يخشى من أن يستقر عدد من المجاهدين في الجزيرة أثناء عبورهم بها ويتركوا أمر الجهاد إيثاراً لحياة الاستقرار والأخذ بالزراعة ولذلك فقد شدد على ضبط الأنصار الذين لهم عوائل لأنهم أكثر ميلاً من غيرهم لحياة الاستقرار. وهذا يكشف لنا بعض الجوانب المتعلقة بالمهدية. أولها أن حماس الجهاد أخذ يفتر عند الأنصار وأنهم آثروا حياة

---

(١) الخليفة إلى أهالي الجزيرة، في ٥ جمادى الأولى عام ١٣٠٤، مهدية، صادر رقم ١١، ص ١٢٧.

الاستقرار في المناطق الزراعية خصوصاً وأن أغلب جيش يونس الدكيم من أهالي غرب السودان الذين ربما خرجوا من أماكنهم جرياً وراء الحياة المستقرة. ولم تقتصر ظاهرة الهروب من الجهاد على أولاد العرب فحسب بل امتدت لتشمل الجهادية. فقد لاحظ الخليفة أن عدداً من الجهادية قد تسلل من جيش يونس وعادوا إلى أم درمان لأخذ عوائلهم. وقد انزعج الخليفة لوجود تلك الظاهرة بين الجهادية وهم عصب الجيش المقاتل. فكتب إلى يونس ليزجر مقاديم الجهادية على إهمالهم وأن ينذرهم في أن «من يتهاون في ضياع نفر واحد أو بندق لا بد من إرساله لطرفنا بالشعبة لأجل مجازاته». كما أكد على يونس ليجمع الجهادية صباح مساء للتمام عليهم.

تحرك يونس إلى القلابات وكان معه من القواد عربي دفع الله وإبراهيم الدفيعة وآدم أبوش وهنون النيل ومحمد النور مدرع وعبد الباقي خليفة الذي كان مسؤولاً عن الجبخانة. وفي يوم ٨ فبراير عام ١٨٨٧ الموافق في (١٤ جمادى الأولى عام ١٣٠٤) وصلت السرية إلى أبي حراز حيث عبرت النيل إلى الضفة الغربية بعد أن تجاوزت جزءاً كبيراً من الجزيرة. ومن هناك أرسل يونس رجلاً يدعى يوسف أبو تفة عاملاً على الحمدة لاستنفارهم للجهاد. وفي يوم ١٤ مارس الموافق في ١٨ جمادى الثانية وصلت الحملة إلى ود البتول حيث قابل محمد عثمان خالد واستفهم منه يونس عن أحوال المنطقة وتحركات الحبش ثم أرجعه قبل الحملة ليعمل على جمع الغلال لمؤونتها. وكان يونس قد رفض اقتراحاً لمحمد عثمان خالد بإرسال جزء من السرية وذلك لتطمين الأهالي وتهدئتهم. فقد فضل عدم تفريق الجيش ورأى أن يسير كله دفعة واحدة ولكنه وعد محمد عثمان خالد بأن يسرع في مسيرته، ولكنه وصل القلابات يوم ٩ أبريل عام ١٨٨٧ الموافق في ١٥ رجب عام ١٣٠٤.

من الواضح أن الحملة كانت تسير ببطء وذلك لكثرة عددها وعدد العوائل التي تصحبها حتى بلغ مجموعها عند أول تعداد في يونيو/رمضان واحداً وثلاثين ألفاً.

وكان الجهادية يمثلون أهم عنصر في جيش يونس الدكيم بل وبالنسبة لكل جيوش المهدية. فقد كانوا جنوداً نظاميين يجيدون فن القتال واستعمال الأسلحة النارية. ولذلك أعطاهم الخليفة اهتماماً خاصًا. فقد طلب من يونس أن يضع الجهادية في مستوى واحد مع أولاد العرب في حمل الأسلحة النارية[1]. ولكن الجهادية احتجوا على دمجهم مع أولاد العرب فوافق الخليفة على فصلهم منهم وأوصى يونس بحسن معاملتهم واعتبارهم من «جملة الأنصار»، كما غير الخليفة قراره الأول القاضي بعدم اصطحاب الجهادية لنسائهم فسمح لهم بأخذ عوائلهم بغية إرضائهم. وبالرغم من اهتمام الخليفة الخاص بالجهادية إلا أنه لم يكن كبير الثقة فيهم ولعل هذا راجع لتعدد حوادث الفرار من بينهم ولعدم تأكده عن تغلغل روح المهدية في نفوسهم. ولذلك نجده يوصي يونس بأن يقسم الجهادية إلى مجموعات من خمسين شخصاً وأن يضع على رأس كل مجموعة قائداً من أولاد العرب وذلك «لكي يسهل ضبطهم بهذه الكيفية والتتميم عليهم» بل طلب من يونس ألا يسلم الأسلحة النارية إلا للجهادية الذين يثق فيهم. فنجده يوصيه قائلاً: «. . . والجهادية. . . ليست مدروكة حقيقتهم عندنا لأن بعضهم من أهل تلودي والبعض من خلافه فتفحص في أحوالهم فالذي ترى فيه الصداقة لا مانع من أن تسلموه سلاح رامنتون والذي لا تثقوا به فلا تسلم إليه شيء. . .»[2] ولذلك ما فتئ الخليفة يكرر للجهادية نصائحه بالامتثال والطاعة. كما أمر كل العمال بمنطقة القضارف ـ القلابات بتسليم كل الجهادية الذين معهم إلى يونس الدكيم. وكان يرمي من وراء ذلك التجميع إلى وضع الجهادية تحت قيادة يثق فيها. ويرمي كذلك إلى تقوية جبهة القلابات وجعلها تجمعاً لجيوشه.

(ب) السياسة الإدارية:

وكانت مشاكل الحدود بين العمالات والصراعات بين العمال المختلفين

---

(١) الخليفة إلى يونس الدكيم، في ٢٧ جمادى الأولى عام ١٣٠٤، مهدية، صادر رقم ١١، ص ١٣٦.

(٢) الخليفة إلى يونس الدكيم، في ١٦ شعبان عام ١٣٠٤، مهدية، صادر رقم ١١، ص ١٩٠.

من المشاكل الأولى التي تصدى الخليفة لحلها. وقد جاء الصراع بين يونس الدكيم وأبي قرجة حول الحدود بين عمالتيهما على رأس تلك المشاكل. فكتب الخليفة إلى يونس قائلاً: «. . . وصار على مقتضى هذا جميع من بغرب بحر اتبرة فهو تبعاً لجهتكم من أي الأجناس كانَ ومن جهة شرق البحر المذكور تبعاً للحبيب محمد عثمان أبي قرجة. . . (وهذا) كيلا يحصل استحواذ على الحدود المذكورة وينشأ من ذلك تشويش. . .»[1] ولكن بالرغم من هذا التحديد القاطع فإن علاقة القائدين لم تخل من «تشويش» وتعدى على حدود عمالتيهما مما اضطر الخليفة لتكرار قراره في عدة مناسبات.

ونشب خلاف مشابه بين إدريس أحمد عامل التومات، ومحمد ولد علي عامل القضارف. فقام يونس بتحديد حدود لكل عمالة فأصبحت القضارف تشمل راشد وعصار، وتبعت التومات بقية المنطقة المحيطة بها حتى حدود الحبشة. وقد وافق ذلك الوضع هوى في نفس الخليفة لأنه يرى أن بوغاز التومات هام ويحتاج إلى شخص يثق به مثل إدريس أحمد.

واهتم الخليفة اهتماماً كبيراً بإعادة الاستقرار للمنطقة بعد الفوضى التي لحقت بها من جراء غارات الحبش. فرأى أن أول عوامل الاستقرار هو تركيز كل السلطات في يد يونس الدكيم وتأكيد رئاسته على المنطقة. فكتب إلى «كافة عباد الله المؤمنين بجهة القضارف» وإلى جميع العملاء يطلب منهم طاعة يونس الدكيم والامتثال لأوامره. وعندما حدثت بعض الاحتكاكات بين يونس وبقية العمال لم يتردد الخليفة في استدعائهم إلى أم درمان. فقد شكا يونس من محمد أرباب سكر واتهمه بالخيانة وعدم الصدق. فطلبه الخليفة إليه، على أن يونساً رأى بقاءه في القلابات خوفاً من أن يؤدي استدعاءه إلى ثورة أهله في التكارير فينضموا إلى صالح شنقا. ورأى يونس أن يرسل سكر بعد هطول الأمطار وامتلاء الأنهر والوديان إذ يصعب حينئذ تحرك القبائل.

---

(١) الخليفة إلى يونس الدكيم، في ١٩ جمادى الثانية عام ١٣٠٤، مهدية، صادر رقم ١١، ص ١٥٧.

وتضرر محمد عثمان خالد من معاملة يونس له وتعدي جماعته عليه. فكتب الخليفة إلى يونس بأن يحسن معاملة محمد عثمان. ولكن عندما تأزمت الأمور بينهما لم يتردد الخليفة في استدعاء محمد عثمان خالد إلى أم درمان. ولم تخل علاقة يونس وإدريس أحمد من شوائب. فقد ظل إدريس ينتقل بين التومات والقلابات حسب رغبة يونس، ودائماً ما يوافق الخليفة على رغبات يونس دون اعتبار إلى تظلمات العمال. وقد حدث أن أخذ إدريس يهتم بجمع أموال بيت المال حسب الأوامر التي وصلته من إبراهيم عدلان. ولكن يونس الدكيم لم يقبل ذلك التدخل من أمين بيت المال في شؤون عمالته. فكتب للخليفة متهماً إدريس أحمد بأنه أصبح يهتم بأمور الدنيا دون الالتفات إلى أحوال جهته العسكرية. ولكن الخليفة أدرك ما يرمي إليه يونس فكتب إلى إدريس قائلاً: «إن يونس الدكيم هو عامل الجهة... وأنتم تبعه وجهاتكم إلى الآن في اضطراب فأمركم متسنى بالحبيب يونس لا بولد عدلان وما يفعله معكم المذكور اقبلوه واصرفوا النظر عن محررات ولد عدلان فإن أمر الدين مقدم على أمر الدنيا...»[1]. هكذا اهتم الخليفة بتأكيد رئاسة يونس الدكيم على المنطقة وتركيز كل السلطات في يده وإبعاد أي عامل لا ينسجم معه.

(ج) السياسة القبلية:

واهتم الخليفة كذلك بتطمين الأهالي ليعودوا إلى قراهم وأعمالهم وذلك رغبة منه في إعادة الاستقرار في المنطقة. وقد وضح هذه السياسة قائلاً: «... حينما أنك متوجه إلى جهات القلابات وما والاها كالقضارف وراشد وغيرها من الأماكن الموالية لتلك الجهات ومعلوم عندك أن سكان الجهة المذكورين أغلبهم تشتتوا وتحوشوا نظراً للخراب الحاصل من جهة أعداء الله الحبشة لا بد لهم من التأمين والتطمين ليستقروا بأماكنهم وينتبهوا في دينهم ويرجعوا بما كانوا فيه من الهروب وترك الدياز خالية فيلزم يا حبيبنا بوصولك إلى تلك الجهات أن تجري تأمين كل من ترى منه تحوش وتحرر لهم المكاتبات اللازمة بالأمان والرجوع إلى الأوطان كما كانوا سابقاً...

(١) الخليفة إلى إدريس أحمد، في ١٩ رمضان عام ١٣٠٤، مهدية، صادر رقم ١١، ص ٢١٣.

بـالخصـوص الشكـريـة والضبـانيـة والحمـدة ونحـوهم من قبـائـل تلك الجهـة. . .»[1]. كما طلب منـه بمجرد وصـوله أن يحـرر الأمانـات الكـافيـة للأهالي وأن يوجههم إلى الرجوع إلى مساكنهم والعمـل بالـزراعة في الـوقت الذي تتوقف فيه العمليات الحربية. كما رأى الخليفـة أن توضـع كل قبيلة مـع بعضها لعل هذا يساعد على استقرار القبائل وبقائها.

وبالرغم من هذه السياسـة المتسامحـة فقد واجهت المهـدية ضعفـاً في ولاء بعض القبائل وبالذات التكارير والضبانية والشكرية حتى أن يونس الدكيم وصفهم بأنهم «خائنين بـلا استثناء. . . ولا محبـة لهم ولا معاملة لهم مـع الله بل مع أعدائه»[2]. فمـا هو مـوقف المهديـة في تلك القبائـل في عهد يـونس الدكيم؟

أما التكارير فقد كانوا موزعين في ولائهم ينظرون حيناً عبر الحـدود إلى صـالح شنقـا وإلى أيام انتعـاش التجارة مـع الحبشـة وحينـاً آخـر إلى سـطوة المهدية وقوتها. وقد كان وجود محمد أرباب سبباً في بقـاء بعضهم على ولائه للمهدية لأنه منهم. ولذلك عين محمد أرباب سكر خلفاً لمحمد أربـاب حتى لا يتمرد التكارير ويتسربوا عبر الحدود إلى الحبشة.

أما قبيلة الضبانية فقد تبينا شأنهـا في بدايـة عهد الخليفـة عندمـا سجن زعيمهـا محمـود عيسى زايـد ممـا أدى إلى تشتتهـا حتى سمـح لهـا الخليفـة بالاستقرار تحت زعـامة عـوض الكريم عيسى زايـد. وفي عهد يـونس الدكيم اتهم عوض الكريم بـظلم الأهالي فقـرر الخليفة عـزله وولى بـدلاً عنه حـامد مروس، وأرسل إلى الضبانية لرفع ظلاماتهم ضـد عوض الكـريم إلى يونس. فقام يونس الدكيم باستـدعاء عـوض الكريم وألقى بـه في السجن ووضعه في الحديد وشدد عليه حتى يعترف بما ارتكب من مـظالم. وبقي عوض الكـريم في السجن مدة ثلاثة أشهر دون أن تـرد إلى يونس أي شكـوى ضده. فـأطلق

---

(١) الخليفـة إلى يونس الـدكيم، في ٢١ جمـادى الثانية عـام ١٣٠٤، مهـديـة صـادر رقم ١١، ص ١٥٩.

(٢) يونس الدكيم إلى الخليفة، في ٢١ رجب عام ١٣٠٤، مهدية، ٣١/٣/٢٢/١، ٧١.

سراحه ووجده ما زال على استعداد لخدمة المهدية. كما قام بمد يونس بكميات من الذرة كان يختزنها لجيشه. وقام يونس من جانبه بمخالفة أوامر الخليفة فعزل حامد مروس وأعاد تعيين عوض الكريم وذلك لأنه رأى أن وجود حامد قد زاد القبيلة «زعزعة واضطراباً».

وكان الخليفة قد قرر إعادة الضبانية المحتجزين في أم درمان إلى أوطانهم بعد أن عاهدوه على الوقوف بجانب المهدية ووعدوا أن يقوموا بترصد أخبار الجيش الحبشي. ولكننا نجد أن الخليفة لم يأخذ بوعدهم كاملاً فأرسل إلى يونس ليكون على حذر منهم وأن يتأكد من أنهم مهتمون بالتجسس على الحبش، كما طلب من يونس أن يرسل دائماً معهم أشخاصاً موثوقاً بهم ليرافقوهم عبر الحدود حتى لا ينقلبوا عن وعدهم وينضموا إلى الحبش على الجانب الآخر من الحدود[1]. ولعل هذا الوضع يعكس منتهى عدم الثقة بين الخليفة والضبانية. ولكن رغبة الخليفة في خلق جو من الاستقرار في المنطقة، وأملاً في الاستفادة من الضبانية في عمليات التجسس وفي الزراعة فقد أطلق سراح زعمائهم وبعث لهم بالأمان الكافي.

أما قبيلة الشكرية فقد اهتم بها الخليفة اهتماماً خاصًا، إدراكاً منه لأهميتها في تلك المنطقة. وحتى قبل أن يصل يونس الدكيم إلى القلابات كان الخليفة قد كتب إليه يوصيه خيراً بعبد الله أبو سن وبأخيه «عبد الإله» وقبيلة الشكرية عامة، كما طلب منه أن يحسن مخاطبتهم بما يشرح صدورهم. وحرصاً من الخليفة وللتأكد من ولاء الشكرية فقد طلب حضور كل القبيلة إلى أم درمان، ويبدو أن طلب الخليفة هذا قد جاء نتيجة لأن الشكرية قد أهملوا مسألة القيام للجهاد كلياً واهتموا بأمور الدنيا من زراعة ورعي وتجارة. وكانت هذه نقطة الافتراق بين الشكرية والمهدية. فكان لا بد من استدعاء الشكرية إلى أم درمان لإزالة ذلك التناقض. وعلى الرغم من مجيء الشكرية إلى البقعة ومعاهدة الخليفة للقيام بأمر الجهاد، إلا أن الخليفة رأى أن يعيدهم إلى أماكنهم وأن يوزعهم إلى ثلاث مناطق متفرقة ليضعف من

---

(١) الخليفة إلى يونس الدكيم، في ٢١ ذو الحجة عام ١٣٠٤، مهدية، ٤١/٩/٢٢/١.

شأنهم. فطلب من شكرية «العاديك» الحضور إلى أم درمان «بكلياتهم» فقد خيرهم بين كسلا والبقعة. وأمهلهم حتى آخر أكتوبر عام ١٨٨٧ الموافق في (صفر عام١٣٠٥) لتنفيذ هذا الاتفاق، ومن يوجد منهم بعد ذلك مخلاً به فسيقع عليه الجزاء الشديد «بالتغنيم أو ما هو أشد». وعبر الخليفة عن عدم ثقته بالشكرية بوصفه لهم «أنهم أصحاب حيل»، ولذلك طلب من يونس أن «يرفع عنهم كل العملاء كيلا يتحججوا... فيما بعد بأن جماعتكم (تعدوا عليهم)». وقد اتخذ الخليفة قراره هذا بشأن الشكرية لاعتقاده «بأنهم ليسوا أهل تربية ورأسهم خالي من جهة الدين وحيلهم كثيرة...»[1].

على أن قبيلة الشكرية لم تستجب كلها لدعوة الخليفة فقد هرب جزء منها إلى الحبشة وناصبوا دولة المهدية العداء. فقام الخليفة باعتقال بعض زعمائهم الذين كانوا في أم درمان وأودعهم السجن وبلغ عددهم حوالي مائتين وعلى رأسهم عوض الكريم أحمد أبو سن الذي توفي في نفس العام وهو في السجن ولحق به عدد من زعماء قبيلته. وبهذا ينتهي فصل هام من علاقة دولة المهدية بقبيلة الشكرية.

ولا تختلف قبيلة الشكرية عن قبيلة الضبانية في موقفها من المهدية. فكلا القبيلتين قد قاستا كثيراً من التشتت والمرارة. فإذا كان موقف المهدية من أكبر قبيلتين في المنطقة هو ما سلف ذكره فلا بد لنا أن نستنتج أن المهدية لم تضرب جذوراً اجتماعية وفكرية عميقة في المنطقة بل ظل وجودها يعتمد إلى حد كبير على وضعها العسكري وقوتها. ولكن لا بد لنا أن نشير كذلك إلى أن تلك القبائل وقد وقفت من المهدية موقفاً جعل علاقتها مع المهدية لا تقوم إلا على القوة والعنف. ولعل هذا راجع إلى أن تلك القبائل لم تكن تريد التغيير الذي كانت تدعو له الحركة المهدية. فقد كانت تلك القبائل تتمتع بوضع اجتماعي وسياسي واقتصادي ممتاز تحت ظل الحكم التركي - المصري مما جعلها تتشبث به. ولذلك لم تكن معارضتها للمهدية مجرد نزوة من زعمائها بل لارتباط مصالحها مع النظام السابق.

---

(١) الخليفة إلى يونس الدكيم، في ٢٥ ذو الحجة عام ١٣٠٤، مهدية، صادر رقم ١١، ص ٢٦٢.

(د) الصراع مع الحبشة:

لم يشأ الخليفة أن يدخل في حرب مع الحبشة منذ بداية حكمه خصوصاً وأن المنطقة مضطربة والقبائل مزعزعة الولاء، وجيش يونس الدكيم لا يوثق به كثيراً في مجابهة جيوش الحبشة، وحمدان لم يصل بعد من الغرب. فقام الخليفة في فبراير عام ١٨٨٧ الموافق في (جمادى الأولى عام ١٣٠٤) بإرسال خطاب إلى يوحنا. ويختلف هذا الخطاب في نغمته وروحه عن الخطابات التي أرسلها الخليفة فيما بعد. ويمكننا أن نقول إن الخليفة كان يرمي من ذلك الخطاب إلى كسب الوقت حتى يقوي موقفه. يبدأ الخليفة خطابه بالديباجة المعهودة ويتحدث عن قدرة الله ويستشهد بآيات من القرآن. ثم ينتقل للحديث عن دعوة المهدية وأهدافها ويخاطب يوحنا قائلاً: «فإن شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله نطقا بلسانك واعتقاداً في جنانك وأجبت دعوتي وألقيت زمام أمرك طوع إشارتي فقد دخلت في حرم الإسلام». ثم يذكر له الحديث الشريف عن الحبش «ونحن كنا ملاحظين إشارة قول سيد المرسلين اتركوا الحبش ما تركوكم ومن ثم لم نصرح لجيوش المسلمين بغزو جهتكم حتى حصل منك التعدي». ويستمر الخليفة في الحديث عن اعتداءات الحبش المتكررة وسلبهم ونهبهم وإيوائهم المرتدين من المسلمين أمثال صالح شنقا وعجيل وأبي جن الشكري والمضوي عبد الرحمن. ثم وضع الخليفة ليوحنا ثلاثة شروط لينفذها حتى يسلم من الحرب وهي أن يرجع جميع الأسرى الذين بطرفه، ثانياً أن يعيد المرتدين إذا كانت لهم رغبة أو يحصل على تنازلات كتابية يعلنون فيها تنازلهم عن دينهم حتى يعتبروا من غير المسلمين. وأخيراً أن يكف يده عن التعدي على «بلاد الإسلام» وأن يلزم حدوده. فإن أوفى بهذه الشروط فإن الخليفة يعده بأن يكف عنه الحرب ولا يدع «جيش المسلمين» يدخل بلاده، وإن أبى فلا سبيل إلا الحرب بينهما[1].

---

(١) الخليفة إلى يوحنا، جمادى الأولى عام ١٣٠٤، مهدية، ٩/١٢/٣٤/١.

يشير هذا الخطاب إلى عدة قضايا هامة. أولها أنه يضع شروطاً للسلم بين دولة المهدية والحبشة بغض النظر عن مسيحية الحبشة، وهذه فكرة غريبة عن المهدية في ذلك الطور المبكر من تاريخها. ففكرة التعايش السلمي بين الدولتين فرضتها ظروف التدخل الأجنبي فيما بعد. وثانيها أن الحبشة هي الدولة المعتدية وليست المهدية. ويمكننا أن نلاحظ كذلك أن أسلوب الخطاب يتصف بالهدوء وهذا يختلف عن أسلوب التهديد والعنف الذي ظهر في خطابات حمدان فيما بعد. ولعل الخليفة كان يهدف من ذلك الخطاب أن يتجنب الدخول في حرب مع الحبشة قبل أن يتأكد من قوته العسكرية وموقفه الداخلي. ولذلك يمكننا أن نصف خطابه إلى يوحنا بالذكاء وحسن التصرف. فقد كان خطابه، على حد تعبير سلاطين خطاباً سلمياً. ولكن الخليفة لم يستلم أي رد على خطابه وبهذا يكون باب التفاهم السلمي قد أغلق تماماً.

وظل الخليفة ينتظر وصول حمدان أبو عنجة في الوقت الذي اتبع فيه يونس سياسة تجنح حيناً نحو السلم وحيناً نحو الحرب ولكن دون أن يدخل في معارك رئيسية مع الحبش. ويمكننا أن نلخص سياسة يونس في ثلاثة مظاهر: أولها السماح باستمرار التجارة بين البلدين، ثانياً إرسال حملات للقيام بأعمال حربية محدودة على الحدود الحبشية، وأخيراً استطلاع أخبار الحبش وتحركاتهم وإرسال المعلومات عنهم إلى الخليفة أولاً بأول.

لم تتأثر تحركات القبائل عبر الحدود الحبشية السودانية بالأوضاع السياسية والعسكرية التي تطورت في المنطقة. فقد كان التكارير ينتقلون بين القلابات ومنطقة صالح شنقا وينقلون أخبار المهدية أو يتجسسون على الحبش. على أن يونس الدكيم كان يرى بأنهم جواسيس للحبش لا للمهدية ولذلك قام باعتقال عدد منهم ووضعهم في الحديد بل واتهم محمد أرباب سكر في الاشتراك معهم ولكن يونس لم يفقد الأمل في استمالة صالح شنقا وعلى أقل تقدير أن يخلق جواً من التفاهم معه. لذلك بادره بالكتابة طالباً منه أن يسلم الأسرى الذين معه. ولعل يونس الدكيم كان يرمي من تلك المحاولات عدم عرقلة الحركة التجارية. واستمرت عملية التبادل التجاري

كذلك على يد النقادية[1]. وقد سمح لهم يونس بدخول دولة المهدية لأنهم في رأيه «من مساكين المكادة. . . أهل بيع وشراء فقط لا أهل محاربة» ولذلك لم ير مانعاً من السماح لهم بالتنقل بين الحبشة ودولة المهدية على الرغم من علمه بضعف إيمانهم وتظاهرهم بالإسلام في القلابات وعدولهم عنه إذا عادوا لبلادهم. وكتب إلى الخليفة يستشيره في أمرهم فرد عليه بأن النقادية «مساكين وضعاف وليس متراء لكم منهم ضرر وحاصلة الثمرة في حضورهم للمجاهدين فلا مانع من تركهم والتصريح لهم بالحضور إذا كان لم تروا ضرر في ذلك ولكن يؤخذ منهم الثمن من جملة الأشياء التي يحضروا بها»[2]. وواضح أن الخليفة قد غلب المنفعة التجارية والمصلحة التي سيجنيها المحاربون من ذلك. وطلب أكشم قبرو، أحد زعماء المكادة، من يونس أن يسمح باستمرار التجارة بين البلدين على أن يظل كل على دينه، وأن ينسى الأنصار مقتل محمد أرباب وينسى المكادة كذلك مقتل دهناشوم. فلم ير يونس مانعاً من ذلك. وكتب إلى أكشم قبرو بأن قصد الأنصار هو تسليم صالح شنقا فقط. وقد وافقه الخليفة على فعله تماماً[3].

ولكن هذه الروح المتسامحة وذلك النشاط التجاري وتلك الحركة الدائبة على حدود البلدين لم تدم طويلاً. ففي مايو عام ١٨٨٧ الموافق في (منتصف شعبان عام ١٣٠٤) حضرت إلى القلابات قافلة تجارية كبيرة مكونة من ٤٠٢ من المكادة والجبرتة فقام يونس باعتقالها ومصادرة بضائعها وإرسالها إلى أم درمان. فارتفعت أسهم يونس لدى الخليفة حتى أطلق عليه عدة ألقاب مثل «عفريت المشركين» و «مسمار الدين».

وكانت حجة يونس في اعتقالهم أنهم من الحبش الذين يتبعون لإمارة برهى الحبشي ودجاج تسما وكلاهما من أتباع الرأس عدار، وأنهم من

---

(١) نقادية كلمة حبشية معناها تجار وهي جمع لكلمة نقادي. واستعملها الأنصار لتعني التجار الحبش. أما المكادة فتعني الحبش عموماً ولكنها تستعمل عند الأنصار كثيراً لتعني الحبش المتاخمين لمنطقة القلابات.

(٢) الخليفة إلى يونس الدكيم، في ٦ شعبان عام ١٣٠٤، مهدية، صادر رقم ١١، ص ١٨٠.

(٣) يونس الدكيم إلى الخليفة، في ١٨ شعبان عام ١٣٠٤، مهدية، ٤٧/٣/٢٢/١.

المضلين الذين لا يقيمون الصلاة ويدفعون «القبر» للحبشة. ووافق الخليفة على كل الخطوات التي اتخذها يونس بينما كان الخليفة نفسه قد وافق من قبل على استمرار الحركة التجارية على الرغم من علمه بأن المكادة غير مخلصين في أمور دينهم. فما الذي أدى إلى ذلك التحول في اتجاهات الخليفة وعامله يونس الدكيم؟ يعتقد سلاطين أن امتناع يوحنا من الرد على خطاب الخليفة هو الذي جعل الخليفة يوافق على خطوات يونس الأخيرة، بل وموافقته على القيام بعمليات حربية محدودة[1]. وفي رأي سلاطين هذا ربما تكمن بعض الحقيقة، ولكنه لا يعطي تفسيراً كافياً للتحول الذي طرأ على سياسة يونس. من المرجح أن يونس الدكيم قام بمهاجمة تلك القافلة لكثرة عددها وكمية الثروة التي كانت تحملها، ورأى يونس أن تقديم تلك الثروة سيرفع من شأنه أمام الخليفة. ومما شجعه للقيام بتلك الخطوة تأكده من أن الحبش لن يتمكنوا من القيام بعمليات حربية إذ كانت تلك الفترة بداية فصل الأمطار مما يجعل تحركات الجيوش أمراً صعباً بل ربما مستحيلاً. ووافق الخليفة كذلك لمعرفته بتلك الحقيقة بل ووافق يونس على القيام ببعض الأعمال الحربية. وفعلاً أرسل يونس بعض الحملات الحربية إلى حدود الحبشة وذلك في شهري مايو ويونيو/شعبان رمضان، بلغت جملتها أربع حملات.

كانت الحملة الأولى إلى قدبى[2] في مايو/شعبان، وكانت بقيادة الياس علي كنونة. فبعد وفاة محمد أرباب تحول عامل قدبي يحيى ولد الوكيل نحو الحبش، بل وأحضر بعض قادتهم إلى منزله وأحسن وفادتهم وأعطاهم عدداً من البنادق «الرامنتون» وعلم يونس أنه هنأهم بقتل محمد أرباب. كما سمح لهم بقتل الأهالي الذين يعتقدون أنهم ضد الحبشة. وجعل سوق قدبي مفتوحاً للحبش حتى بيع فيه التمباك. وكان يحيى يأخذ العشور على البضائع

---

(١) سلاطين، ص ٤١٥.

(٢) تقع قدبى على الحدود الحبشية للشمال من القلابات. وهي سوق تجاري، وكان محمد أرباب قد عين يحيى ولد الوكيل عاملاً عليها.

وسمح للحبش بأخذ ثلثين منها. كما قام بإرسال كل أمواله ومتاعه للحبشة استعداداً للهرب.

يبدو أن هذه الرواية التي بعثها يونس إلى الخليفة فيها بعض المبالغة. فلعل يحيى ولد الوكيل قد سمح للحبش ببعض الحرية التجارية حفاظاً على انتعاش التجارة. أو لعله آثر أن يسالم الحبش لعدم مقدرته على صدهم. لأنه إذا كان ولد الوكيل قد وصل إلى ذلك الحد من الخيانة لقضية المهدية، لما قبل دعوة يونس وذهب إلى القلابات. فقد كان يونس قد دعاه إلى القلابات، وعند قدومه إليها قام يونس باعتقاله وسجنه. وفي السجن اعترف ببعض تلك التصرفات، وربما اعترف باتصاله التجاري بالحبش. فما كان من يونس إلا أن قام بصلبه في سوق القلابات وكتب إلى الخليفة بذلك فوافقه على تصرفه. ثم بعث بحملة الياس كنونه واحتلت قدبي[1].

وأرسلت الحملة الثانية في ١٥ مايو الموافق في (٢١ شعبان) بقيادة علي جيبر إلى جبل غورة محل إقامة سيوم الحبشي. وكان يونس قد سمع بتجمعات الحبش في تلك المنطقة. سارت الحملة إلى الجبل وتمكنت من صعوده بعد يوم كامل وهناك وجدوا أن الحبش قد فروا منه بعد أن علموا بكثرة عدد الأنصار. وقام الأنصار عند ذلك بهدم ثلاث كنائس هناك وأطلقوا سراح بعض الأسرى الذين كانوا قد اعتقلوا في الواقعة التي استشهد فيها محمد أرباب. ثم قام الأنصار بعد ذلك باقتفاء اثر الحبش حتى لحقوا بهم في مكان يقال له قلقو على بعد ثلاثة أيام من القلابات. وتمكنوا من هزيمة الحبش وأسروا منهم ثلاثمائة وواحداً وعشرين رجلاً ومائة وثماني وثمانين امرأة وطفلاً وستة من القواد. وكان من بين الأسرى بعض من الضبانية والحمدة والشكرية. وعادت الحملة إلى القلابات سالمة على الرغم من صعوبة الطريق ووعورته[2].

---

(١) الطراز، ص ٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٧ ـ ٥٨، الخليفة إلى يونس الدكيم، في ٢٠ رمضان عام ١٣٠٤، مهدية، ١/٢٢/٣/٦٩ ـ ٧٠.

وأرسلت الحملة الثالثة ضد عجيل عوض الحمراني في غبتة وكانت بقيادة هنون النيل. وكان عجيل ما فتئ يقوم بغاراته على حدود دولة المهدية بغرض السلب والنهب. ففي ٢١ مايو الموافق في ٢٧ شعبان قام جماعة من أتباعه بالهجوم على حلة أبو حامد بجهة التومات ونهبوها. وفي طريق عودتهم قابلتهم جماعة من الأنصار عند نهر عطبرة بقيادة محمد ولد عامر فقتلت منهم عدداً كبيراً. وفي أواخر مايو نهاية شعبان قامت جماعة أخرى من أنصار عجيل بالهجوم على حلة قدبى ولكن الأنصار بقيادة عبد الوهاب ولد داود تمكنوا من صدهم(١). وتمادى عجيل الحمراني في أعماله العدوانية «فشرع في الفساد في الأرض وشن الغارات على أرض الإسلام وسلب ونهب وقطع الطريق وانضم إليه المفسدون وقطاع الطرق...» ووصلت أسماع يونس أنه ينوي القيام بهجوم كبير على تبارك الله. فكتب يونس إلى الخليفة بأنه قرر القيام بمحاربة عجيل وأن يقتفي أثره في كل مكان ولو كان مع النقس، ولكن أهل الرأي من الأنصار منعوه من ذلك خوفاً من أن يحدث قيامة «وهن وخفة لضعفاء العقول بالنظر لقيام أكثر أهل السرية معه»، وخوفاً من أن يقوم الحبش بالهجوم على القلابات إذا علموا بخروج الجيش مع يونس. أما إذا بقي يونس بالقلابات فسيعتقد الحبش أن أكثر القوة باقية مع يونس بالقلابات. ولذلك أشار الأنصار من «أهل العزم والتدبير» على يونس بإرسال هنون النيل على رأس «الغزوة» وتحركت الحملة من القلابات يوم ٢٧ مايو الموافق في ٤ رمضان وكانت تتكون من أربعة عشر ألف بندقية وثمانمائة وثمانية وأربعين من حملة الحراب ومائة من الخيالة بجانب رايات النور فقرا التي كانت تصاحب الحملة.

سارت الحملة حتى بحر باسلام حيث قابلت جماعة من أعوان عجيل بقيادة أخيه إذ أن عجيلاً كان قد ذهب لمقابلة يوحنا ليستنفره للقيام بمحاربة الأنصار. واستطاع هنون أن يهزم جماعة عجيل وأن يقتل منهم نحواً من مائة وخمسين وأسر أعداداً كبيرة أخرى كما قتل أحمد التوم أحد قادة عجيل وكان

(١) الخليفة إلى يونس الدكيم، في ٢٠ رمضان عام ١٣٠٤، مهدية، ٧٤/٣/٢٢/١.

«طليعة عجيل وعضيضه وقوتـه». ثم توجهت الحملة إلى مقـر «حكومـة» وهو أحد عبيد الضبانية وكان قد هرب عند قيـام المهديـة وانضم إلى عجيل وأخـذ في شن الغـارات من تلك المنطقـة. واستـطاع الأنصـار أن يحققـوا نصـرهم الثاني وكان ضد «حكومة» وأجبروه على الفرار. ثم انتقلت الحملة إلى حلال نقارة وهاجموها وقتلوا أحد قادة عجيل ويدعى عبـد الرحمن ولـد الطاهـر. ثم قابلت الحملة جماعة من الشكرية المعارضين للمهـدية فقتلت منهم نحـواً من ثلاثين شخصاً. وعندما وصلت الحملة إلى مقر عجيل وجدته شبه خال، فقتل الأنصار من وجدوهم منهم وأسروا عدداً آخر منهم. ثم عادت الحملة أدراجها إلى القلابات بعـد تلك الانتصارات المتعـددة ومعها من الغنـائم ستة «خـروز ذهب»، واثنان وثلاثـون «شولق ذهب»، وستـة «متمن ذهب» وثلاثـة وثلاثـون رقيقاً، واثنان وعشرون جملًا ، وأربعة حمير.

وكانت آخر حملة أرسلها يونس ضد صالح شنقا وهي أيضاً بقيادة هنون النيل. وبعث إلى الخليفة برسالـة يوضـح فيها الأسبـاب التي أدت إلى إرسال تلك الحملة فقـال: «. . . إن الباعث لتعيـين أنصـار الـدين لجهـاد عـدو الله صالح شنقا من هذا الآن عدة أوجه منها أن المذكور كلما أطفأت الحبشة نـار الحرب أوقدها وكلما نامت الفتنة أثارها. . . وكلما انهزم أحـد المنافقين كـان له ناصراً. . . وتمكين بنات عمه وأقاربـه إلى المكادة. . . ودوامـاً متربص بنـا وعارف بأحوالنا بواسطة جواسيسه الذين يأتونه بـأخبارنـا وأكثرهم من التكـارير فغيرة على الإسلام وسداً لباب إفساده اخترنـا جهاده. . . » كمـا أوضح يـونس للخليفـة أن الحملة مرسلة لأسبـاب عسكريـة استراتيجيـة وهي أن الحبش إذا هجمـوا بعد انتهـاء فصل الأمـطار فإن هجـومهم سيكون شـاقـاً على الأنصـار خصـوصاً وأن الحبش أكثـر استعداداً من الأنصـار. لذلـك رأى إرسـال حملة لمهاجمتهم على غفلة «ليوقع الله الرعب في قلوبهم». وإذا تمكن الحبش من الهروب وأفلتوا من الهجوم المفاجئ فـإن في «حرق حـلالهم وتدميـر ديارهم رهبـة لأعـداء الله» وقـطع دابـرهم بحيث لا «تتعلق آمـالهم مـرة أخـرى بصالح»[1].

(١) يونس الدكيم إلى الخليفة، في ٢٩ رمضان عام ١٣٠٤، مهدية، ٩٦/٣/٢٢/١.

وكانت قد وصلت إلى يونس بعض الأخبار مفادها أن صالح شنقا على علم بأحوال الأنصار، وقد وصلته تلك الأخبار عن طريق جواسيسه. وعلم يونس كذلك أن بعض رؤساء التكارير في القلابات كانوا يرسلون جزية سنوية إلى صالح ومقدارها ألف ريال، وأنهم طلبوا من صالح أن يدركهم لأنهم لن يستطيعوا دفعها بعد ذلك لأن الجهة قد خرجت عن أيديهم. وعلم يونس أن صالح شنقا قام باستدعاء زعماء المكادة فاجتمع لديه عدد كبير منهم في مكان يدعى دبر سينا بمقاطعة شلقة، فأخذ صالح يستعد للهجوم على القلابات. لكل هذه الأسباب مجتمعة قرر يونس إرسال حملة حربية ضد صالح إدريس، وقد وافقه زعماء الأنصار على رأيه. وقرر يونس أن يخرج على رأس الحملة ولكن عقلاء الأنصار قرروا للمرة الثانية عدم خروجه، واقترحوا بدلاً عنه هنون النيل «لما فيه من البسالة والهمة والشجاعة» ولعل شهرة عربي دفع الله هي التي جعلت الكردفاني يقع في ذلك الخلط.

وخرجت الحملة من القلابات يوم ١٣ يوبيو الموافق في (٢١ رمضان). واختارت أن تسير بأقرب الطرق على الرغم من وعورته وممراته الضيقة لأنه خالٍ من السكان ويمكن قطعه في ثلاثة أيام. وتكونت من ألفين ومائتين وخمس وعشرين بندقية وألف وثلاثمائة وسبعة عشر من حملة الحراب ومائة وثلاثة عشر من الخيالة، وكان عدد الجهادية في الحملة ألفاً وأربعمائة وخمسة وثلاثين بقيادة عربي دفع الله وإبراهيم الدفيعة.

بعد مسيرة ثلاثة أيام وصلت الحملة على مقربة من حلة صالح شنقا ١٥ يونيوالموافق في (٢٣ رمضان)، وقرر الأنصار مهاجمته في الحال حتى لا يفلت منهم. فدارت معركة قصيرة بين الطرفين انتصر فيها الأنصار، أما صالح إدريس فقد تمكن من الفرار مستعيناً بالوديان والجبال التي تنتشر في تلك المنطقة. وغنم الأنصار كل ماله وأهله، وفقدوا شهيدين. ويبدو أن الهجوم كان فعلاً مفاجئاً حتى حقق تلك النتائج الباهرة. ولكن صالح شنقا يرى أن سبب هزيمته راجع إلى أن القائد الحبشي أكشم قبرو لم يخف لنجدته. فعزله يوحنا وولى دجاج برهي بدلاً عنه. ثم قام الأنصار بإحراق كل منازل الحلة وغادروها يوم ١٦ يونيو الموافق في (٢٤ رمضان) في طريق عودتهم.

وفي الطريق كان الأنصار يقومون بإحراق القرى وقتل أهلها حتى وصلوا في منتصف ذلك اليوم إلى «المناتق» وهي الطرق الضيقة التي تنتشر في شعاب الجبال ـ حيث وجدوا أن فلول جماعة صالح قد احتلوها. فقام بعض الجهادية بقيادة سرور سليمان بالتصدي لهم وهزموهم. وفي اليوم التالي أعاد الأعداء الكرة ولكن دون جدوى، فقد كان الأنصار متيقظين تماماً. واستأنفت الحملة مسيرها حتى وصلت القلابات يوم ٢١ يونيو الموافق في (٢٩ رمضان). وبلغت جملة خسائر الأنصار واحداً وعشرين شهيداً وأربعة عشر جريحاً. وبلغت غنائم الأنصار كميات كبيرة من الذهب الشناوي وحوالى خمسين قطعة من الحلى الذهبية، وتسعة وتسعين من الرقيق، ومائتين وثمانين ريالاً، وكل أمتعة صالح شنقا وأهله وعائلته. كما عادت الحملة بأعداد كبيرة من أسرى الأنصار الذين أخذوا بعد مقتل محمد أرباب. واعتبر الخليفة ذلك الانتصار حدثاً هامًّا فقام بتلاوة تفاصيله على الأنصار في مسجد أم درمان.

يبدو واضحاً أن تلك الحملات التي أرسلها يونس تباعاً لم تعد عن كونها غزوات أو حملات تأديبية بقصد الغنيمة وتهدئة المنطقة. وكانت تلك الحملات موجهة في جملتها ضد أولئك الذين هربوا من المهدية وانضموا إلى جانب الحبش، ولم تكن موجهة إلى الحبش أنفسهم، لذلك اقتصر نشاطها على الحدود الحبشية. وفي تلك الحدود لم يضع الحبش أي جيوش من عندهم بل اعتمدوا على أعوانهم من القبائل المحلية مثل التكارير والحمران وبعض الشكرية، والضبانية. فلا الأنصار ولا الحبش كانوا على استعداد في ذلك الوقت لحرب كبيرة. فقد كان يوحنا في دبر تابور يحاول تجميع جيوشه، وكان الخليفة في أم درمان في انتظار وصول حمدان أبو عنجة، لذلك طلب من يونس أن يكون مدافعاً أكثر منه مهاجماً. كما وجهه ليهتم باستطلاع أخبار الحبش وتحركاتهم، وأكد عليه الاهتمام بتلك المهمة.

قضى يونس الدكيم بقية فترته في القلابات يوليو من عام ١٨٨٧ ـ حتى يناير عام ١٨٨٨، الموافق في (ذو القعدة عام ١٣٠٤) ـ حتى ربيع الثاني عام ١٣٠٥، وهو يحاول التجسس على الحبش ومعرفة أخبارهم لإرسالها إلى الخليفة ولعل أهمية هذه الأخبار أنها توضح مدى معرفة الأنصار بالأوضاع

داخل الحبشة والتي على ضوئها تصرفوا في علاقتهم مع الحبشة. فأرسل له في ٣٠ يوليو الموافق في (٩ ذو القعدة)، يخبره أن عجيل الحمراني قد عاد من عند يوحنا وبصحبته تسما الحبشي بعد أن أصلح النفس بينهما، وأن عجيل قد استقر في غبتة وهو «متعصب للقتال». أما يوحنا فهو مقيم في زبول بجهات القالة[1]. لا شك أن تلك الأخبار لم تزعج الخليفة لأن عجيلاً في رأيه لا يمثل خطراً كبيراً ولا يمكن أن يعهد إليه الحبش بالقيام بحرب واسعة النطاق. ثم إن وجود يوحنا بجهات القالة يبعد فكرة الحرب في ذلك الوقت. وقد كان الخليفة على يقين من أن الحبش لا يمكن أن يشنوا حرباً في فصل الأمطار. وفي ١٢ سبتمبر الموافق في(٢٣ ذي الحجة) أرسل يونس خطاباً آخر إلى الخليفة يكرر فيه انقطاع أخبار الحبش ويرد ذلك إلى مراكنة محمد أرباب سكر لهم، ولذلك فقد قرر اعتقاله وسجنه وإرساله إلى الخليفة.

وفي نفس شهر سبتمبر الموافق في (آخر ذي الحجة)، وصلت إلى يونس بعض الأخبار مفادها أن يوحنا قد دعا كل رؤساء دولته للاجتماع به بجيوشهم في دبر تابور، وأنه قد اجتمع إليه عدد كبير منهم على رأسهم منليك ورأس عدار. وقد حدد لذلك الاجتماع يوم ١٤ سبتمبر الموافق في (٢٥ ذي الحجة) لأنه يوافق عيد «ضرب المزغل» أحد أعياد الحبش حيث يجمعوا الأخشاب والحطب ويضرموا النيران ابتهاجاً بانتهاء الخريف وحلول الشتاء. وعلم يونس كذلك أن يوحنا نفسه كان قد عاد من أرض التقري محل عشيرته إلى دبر تابور وأنه أخذ يستعد للهجوم على القلابات كما تواترت الأخبار إلى يونس بوصول سيوم الحبشي إلى جهة غورة وبصحبته إدريس علي وهو من قبيلة الحمدة، وكان يونس قد بعثه للتجسس على الحبش فانحاز إليهم. وعلم يونس كذلك أن رأس عدار قد وصل إلى شلقة وانضم إلى صالح شنقا ودجاج تسما وعجيل. وأنهم ينوون الهجوم على القلابات من ثلاثة جهات وأنهم أرسلوا طلائعهم إلى جهة التومات وأنهم مداومون على ذلك يومياً[2].

---

(١) يونس الدكيم إلى الخليفة، ٩ ذو القعدة عام ١٣٠٤، مهدية، ١٣٩/٣/٢٢/١.
(٢) يونس الدكيم إلى الخليفة، في ٢٦ ذو الحجة عام ١٣٠٤، مهدية، ١٧٤/٣/٢٢/١.

ووصلت أخبار أخرى إلى يونس تفيد أن شخصاً يدعى محمد ولد الفحل الصليحابي من قبيلة صليح المقيمة بجهات القلابات، كان قد ذهب إلى قدبي ومنها عبر نهر عطبرة إلى مكان يسمى خور الدوم على الحدود الحبشية، وهناك وجد أعداداً كبيرة من الحبش متجمعين تحت قيادة دجاج برهي. كما علم أن يوحنا مصمم على غزو القلابات وأنه قد اجتمع له جيش كبير قام بتقسيمه إلى أربعة أقسام: قسم في دبر تابور، وآخر في شلقة والثالث في دبر سينا، والأخير في جركن بقيادة دجاج برهي، وذلك لأن يوحنا قرر الهجوم على القلابات من أربع جهات[1]. وفي منتصف أكتوبر أواخر محرم عام ١٣٠٥ أكد يونس للخليفة خبر استعداد الحبش للهجوم. فقام يونس من جانبه بإجراء تحركات احتياطية لمواجهة الهجوم المرتقب. فوضع البديرية بقيادة النصري محمد العالم في مواجهة صالح شنقا، والجوامعة بقيادة عبد الله جاموس على جهة شلقة، والحمر بقيادة محمد أحمد أبو أم فضالي على جهة غورة، وعبد الله البرقاوي على جهة قدبي. فقام كل أمير بإرسال دوريات ليستطلع أخبار الجيش، وكانت تلك الدوريات تدخل في اشتباكات مع الحبش أحياناً.

لعله من الواضح أن تلك الخطابات التي كان يبعث بها يونس إلى الخليفة أن الحبش كانوا يقومون ببعض الاستعدادات الحربية. ولكن بعض الروايات التي كان يوردها يونس عن خطورة تلك الاستعدادات ربما حوت مبالغات. ولعل يونس كان يرجو من ذلك وصول نجدات من الخليفة أو لعله أراد أن يظهر أمام الخليفة بمظهر المدافع عن المهدية وثغورها.

ظلت أخبار الحبش بعد ذلك منقطعة لمدة قصيرة وذلك حتى أوائل نوفمبر منتصف صفر عام ١٣٠٥ حتى أخذت تصل أخبار تحركاتهم بشكل منتظم.. ففي يوم ٢٣ نوفمبر الموافق في (١٦ صفر) وصل رسول من عبد القادر البشير عامل التومات ليخبر يونس الدكيم بوصول الحبش إلى جهة سركنة وأنهم متجمعون في ثلاث فرق: سركنة، البادوبة، والماء الأخضر

---

(١) يونس الدكيم إلى الخليفة، في ٢٩ ذو الحجة عام ١٣٠٤، مهدية، ١/٢٢/٣/١٨٤.

بشرق جبل نقارة على مسافة يوم ونصف من ديم النور فقرا. وفي يوم ٨ نوفمبر الموافق في (٢١ صفر) وصلت أخبار من النور فقرا تفيد أن عجيلاً ومعه جمع كبير من المكادة قد توجهوا إلى بحر سيتيت ووجهتهم ليست معلومة. وبعد أسبوع علم ولد فقرا أن الحبش قرروا الهجوم عليه يوم ٢٠ نوفمبر الموافق في ٤ ربيع الأول فاستنجد بيونس الدكيم. وبالرغم من أن يونس كان يعتقد أن هجوم الحبش الرئيسي لن يكون على تبارك الله بل أظهروا ذلك للخديعة، إلا أنه قام بإرسال نجدة إلى ولد فقرا تتكون من خمس رايات. وبقي مع يونس بالقلابات اثنان وعشرون ألفاً وثمانمائة وأربع وتسعين مجاهداً منهم تسعة آلاف ومائتان وتسعة عشر بأسلحة نارية، وبقي معه كذلك خمسمائة وواحد وتسعون خيالة.

وبينما كان يونس يستعد لمواجهة الحبش نشب صراع داخلي في الحبشة بين يوحنا وأحد قواده. فقام دجاج تسما بجيشه وانضم إلى يوحنا وتبعته بقية الجيوش على الحدود وتفرقت بذلك جموع الحبش التي كانت في مواجهة الأنصار[1]. وقبل أن يتجمع الحبش للمرة الثانية كان حمدان أبو عنجة قد وصل إلى القلابات وبحضوره حدث تحول في القيادة أدى إلى نقل يونس من القلابات فغادرها في منتصف يناير عام ١٨٨٨ الموافق في (آخر ربيع ثانى إلى أم درمان. وبذلك انتهت فترة يونس الدكيم في القلابات والحبش يقومون باستعداداتهم الحربية من جانب والأنصار يستعدون من الجانب الآخر. وبقي حمدان ليقود الجهاد على جبهة القضارف ـ القلابات.

(١) يونس الدكيم إلى الخليفة، في ١١ ربيع الثاني عام ١٣٠٥، مهدية، ١/٢٢/٤/٢٨٦.

حمدان أبو عنجة[1] والحبشة

(١٨٨٧ - ١٨٨٩ = ١٣٠٥ - ١٣٠٦)

تعد فترة حمدان أبو عنجة من أهم الفترات في تاريخ العلاقة بين المهدية والحبشة. ويمكن معالجة هذه الفترة من جانبين: من جانب القضايا الداخلية والمشاكل التي تعرض لها أبو عنجة في تلك المنطقة مثل الصراع

(١) ولد حمدان أبو عنجة حوالى عام ١٨٣٧. وقد بنيت هذا التاريخ تقديراً من وفاته عام ١٨٨٩ وكان عمره حوالى ٥٢ عاماً.

وينتمي إلى قبيلة المناضلة والتي كانت تتبع قبيلة التعايشة في التركية. وقد نشأ حمدان عبداً في بيت الخليفة عبد الله. ولكنه عومل معاملة حسنة من قبل عبد الله وعائلته واعتبر كفرد من تلك العائلة. وكان من عادة البقارة أن يحسنوا معاملة رقيقهم بل كانوا أحياناً يزوجونهم من بناتهم. وتعلم حمدان من التعايشة فنون الفروسية واشترك مع القبيلة في حروباتها ضد الزبير باشا حيث وقع في الأسر. وبعد أن أطلق سراحه عاد إلى قبيلته ولم يحدث في حياته شيئاً يذكر حتى قيام المهدية.

وعند قيام المهدية كان من أوائل من انضموا إليها، ولمع اسمه عندما أوكل إليه قيادة الجهادية التي كونها المهدي بعد سقوط الأبيض. ولعل ذلك التعيين كان بإيعاز من الخليفة الذي لم يشأ أن تكون قيادة الجهادية في يد شخص لا يثق فيه شخصياً. وقد كان وجود حمدان أبو عنجة في قيادة الجهادية من العوامل التي أدت إلى تقوية موقف الخليفة. واشترك أبو عنجة بجهاديته اشتراكاً فعالاً في انتصار المهدي على حملة هكس. كما احتل مقر حامية أم درمان. وقام فيما بعد باعتقال محمد خالد زقل، كما اعتقل مادبو علي وقتله. وقام بعمليات ناجحة ضد صالح فضل الله شيخ الكبابيش. وفي أثناء تلك العمليات استدعاه الخليفة للتوجه للقلابات.

كان حمدان طويل القامة غليظ الوجه قوي البنية خفيف اللحية اشيبها، أسود اللون مهيب الطلعة ووصف بأنه كان حسن الخلق سديد الرأي وكان من أشد قواد المهدية بأساً وأكثرهم جرأة. وكان مطيعاً للخليفة إلى درجة بعيدة. ولعل أهم ميزاته سيطرته التامة على الجهادية. وبلغ عدد الخطابات التي تبادلها مع الخليفة ٨٦٣ خطاباً.

بينه وبين يونس الدكيم، والقضاء على حركة محمد آدم الذي ادعى النبوة ومجاعة سنة ١٣٠٦. والجانب الثاني علاقة دولة المهدية بالحبشة وحروبات حمدان في تلك المنطقة.

١ ـ انتقال حمدان أبو عنجة إلى القلابات:

في منتصف عام ١٨٨٦ الموافق في مطلع عام ١٣٠٤ ـ قبل هجوم الحبش على القلابات ـ استدعى الخليفة حمدان من جبال النوبة وطلب منه أن يكتم خبر مجيئه وأن يكون تحركه بأقصى ما يمكن من السرعة. فما هي الأسباب التي أدت إلى ذلك الاستدعاء المبكر؟ هل كان الخليفة يريد أن يكون حمدان بجانبه لتقوية موقفه الداخلي؟ لا شك أن ذلك لم يكن سبباً قويًّا لأن الخليفة في أبريل عام ١٨٨٦ الموافق في رجب عام ١٣٠٣ كان قد أخمد المعارضة التي تجمعت ضده وأصبح موقفه قويًّا نسبياً. وفي غالب الأمر كان استدعاء حمدان مرتبطاً بالوضع العسكري على الحدود الحبشية. ويرى سلاطين أن استدعاءه كان سببه صمت يوحنا وعدم رده على خطاب الخليفة. ولعله من المستبعد أن يحرك الخليفة ذلك الجيش الكبير من صحارى كردفان لمجرد امتناع يوحنا عن الرد. ويذهب كثير من المؤرخين إلى الربط بين مجيء حمدان وهجوم الحبش على القلابات وقتل محمد أرباب. ولكن استدعاء الخليفة لحمدان كان قبل هذه الحادثة. إذا استدعاؤه كان عملاً احتياطياً في بادىء الأمر ثم أدت الأحداث لإرساله بكل جيشه إلى القلابات. ولذلك عندما بدأ أبو عنجة يستعد لمغادرة الأبيض طلب منه الخليفة ألا يتعجل في الحضور إذ أن الخليفة كان قد اطمأن حينئذ من موقف الحبشة، وتأكد له أن الحبش لن يواصلوا انتصارهم في القلابات بالزحف غرباً. فكتب إلى أبو عنجة قائلاً: «حيثما أن الجهات ساكنة وليست بمتحركة وأعداء الله الحبش الذين استبقنا لكم القول فيهم هربوا ولم يفضل منهم باقي فينبغي أن تكونوا في حالة حضوركم ثابتين... ولا تنزعجوا في الحضور لعدم الموجب لذلك»[1].

---

(١) الخليفة إلى حمدان أبو عنجة في ٢٤ جمادى الأولى عام ١٣٠٤، مهدية، ٣٠٣/٤/٢٥/١.

أخذ حمدان، إذاً، يستعد للتوجه إلى أم درمان في فبراير/جمادى الأولى فوصل إلى ضواحيها في ٢١ ماري الموافق في ٢٧ رجب. وفي اليوم التالي دخل بجيشه مدينة أم درمان[١]. وكان دخوله في غاية الانتظام لأن الخليفة كان مهتماً بمظهر الجيش وترتيبه قبل وصوله بمدة طويلة. فكتب إلى أبو عنجة ليلتفت إلى مظهر الجيش قائلاً: «وبعد أن تنزلوا البحر مكانة الجيش لازم أن تأمره بغسل جبيهم بالصابون ونزع ملابس الجبال الوسخة وتأمرهم أن يتنظفوا والعاري منهم تكسيه وتراعيهم حتى تقابلهم على حالة حبيبة ترهب العدو وتسر الصديق»[٢]. ولعل هذا راجع إلى أن القبائل النيلية كانت تحتقر قبائل الغرب لعدم تهذيب مظهرها، فرأى الخليفة أن يتفادى هذه الظاهرة. أو ربما أدرك بنفسه هذا الفارق الحضاري فعمل على التقليل منه.. وكان الجيش الذي صحب حمدان من الغرب يتكون من ثمانية وعشرين ألفاً ومائتين وواحد وخمسين جندياً[٣].

في أم درمان مكث أبو عنجة حتى منتصف أكتوبر الموافق منتصف محرم عام ١٣٠٥. فما هي الأسباب التي أدت إلى بقائه بجيشه الكبير في أم درمان شبه معطل قرابة نصف عام؟ لعل أهم سببين هما بداية فصل الأمطار وانحسار خطر الهجوم الحبشي مؤقتاً. ولذلك لم يشأ الخليفة أن يرمي بجيش

---

(١) الخليفة إلى حمدان أبو عنجة في ٢٧ رجب عام ١٣٠٤، مهدية ١/٢٥/٤/٣٨٠.
حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ٢٧ رجب عام ١٣٠٤، مهدية، ٥٣/٧٠٢.
تعرض هولت إلى أخطاء المؤرخين في تحديد التاريخ الذي وصل فيه حمدان إلى أم درمان. فسلاطين يحدده بنهاية يونيو الذي يصادف في عيد الفطر. وأهرولدر يحدده بنهاية يوليو ويجعل ذلك الشهر يصادف في عيد الأضحى. ولعل الذي أدى إلى هذا الخلط أن حمدان وصل البقعة في ٢٧ رجب وكان الخليفة يحتفل بهذه المناسبة الدينية احتفالاً كبيراً (الرجبية) ولذلك اعتقد سلاطين وأهرولدر أن ذلك الاحتفال إما عيد الفطر أو عيد الأضحى إذ أن كلا الكاتبين كان يكتب من الذاكرة.
(٢) الخليفة إلى حمدان أبو عنجة في ٢٤ جمادي الأول عام ١٣٠٤، مهدية، ١٢/٢٥/٤/٣٣.
(٣) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة في ٢٦ رجب عام ١٣٠٤، مهدية، ١/٢٨/٨/٢٥.
ذكر سلاطين (ص ٤١٦) أن الجيش الذي كان مع أبي عنجة هو أكبر جيش تجمع في تاريخ المهدية وأن تعداده بلغ خمسة عشر ألفاً بأسلحة نارية وخمسة وأربعون ألف بأسلحة بيضاء وثمانية آلاف من الخيالة. ولكن هذه الأرقام مبالغ فيها لأن التعداد الذي أجراه أبو عنجة كان دقيقاً إذ قام بحصر الجيش «راية راية مقدم مقدم نفر نفر بالأسماء».

كبير ومعه آلاف العوائل للزحف أثناء فصل الأمطار. وتصادف في ذلك الوقت أن حدث عصيان قبيلة رفاعة الهوى بقيادة شيخها صالح أبو روف. فقام الخليفة بإرسال جزء من جيش حمدان بقيادة عبد الله إبراهيم وإسماعيل الأمين والزاكي طمل لتأديب قبيلة رفاعة وإخضاعها. ولعل الخليفة قد أرسل ذلك الجزء من الجيش إلى الجزيرة لأنه لا يستطيع إعاشة كل الجيش في أم درمان فرأى أن إرساله جزءاً منه إلى الجزيرة يخدم له غرضين هامين.

وعندما شارف فصل الخريف على نهايته رأى الخليفة أن يبعث أبو عنجة إلى القلابات لمواجهة تحركات الحبش العسكرية التي أخذت تزداد في ذلك الوقت فغادر الجيش أم درمان يوم ٦ أكتوبر الموافق في ١٨ محرم عام ١٣٠٥[1] سائراً الشاطئ الشرقي للنيل بينما كان أبو عنجة يتابع مسير الحملة من الوابور. وفي أبو حراز انضم إليه أحمد علي ومحمد الطيب، كما أرسل يستدعي عبد الله إبراهيم وإسماعيل الأمين والزاكي طمل من الجزيرة. ثم بدأ في عبور الجيش إلى الجانب الغربي وإرساله على دفعات صوب القلابات لأنه جيش كبير فإذا سار في دفعة واحدة فقد تنشأ مشكلة حول موارد المياه.

ووصلت أخبار من يونس الدكيم تفيد أن العدو قد تأهب للهجوم على القلابات فقام حمدان فوراً بتجهيز جيش بقيادة عبد الله إبراهيم «مجرد من كل العوائق» ليتوجه رأساً إلى القلابات، وجيش آخر بقيادة عبد الله الأمين ليلحق به بعد يوم، وبعدها تقوم الجبخانة براً. وتحرك الفوج الأول يوم ٢٥ أكتوبر الموافق في ٧ صفر بقيادة الزاكي طمل الذي حل محل عبد الله إبراهيم لمرضه وفي ٢ نوفمبر تحرك إسماعيل الأمين من بعده. وسار الزاكي وإسماعيل الأمين بطريق القلعة رانج، واتبعهما النور عنقرة على أن يسلك

---

(١) يذكر هولت (ص ١٥٢) أن حمدان غادر أم درمان يوم ٧ أكتوبر الموافق في ١٩ محرم. ولكني حددت التاريخ على أساس خطاب مرسل من أبي عنجة إلى الخليفة يخبره بوصوله إلى الكاملين يوم ٦ أكتوبر. (مهدية، ١/١٢٩ $\frac{1}{1}$ /٢/١/، ٨ محرم ٣٠٥).

ويما أن الكاملين تقع على مقربة من أم درمان فالأرجح أن أبو عنجة غادر أم درمان في نفس اليوم أو ربما قبل يوم على أكثر تقدير.

طريق «البحر» حتى لا تحدث مشكلة في الماء، على أن يلتقيا في راشد.

وفي تلك الأثناء أرسل يونس رسالة أخرى يستعجل قدوم الحملة نظراً لقرب هجوم الحبش. كما وصلت رسالة أخرى من عبد القادر البشير عامل التومات تفيد بقدوم عجيل على رأس قوة كبيرة. فقام حمدان بمضاعفة استعداده فأرسل الجبخانة أمامه وتحرك هو من بعدها بعد أن مكث شهراً في أبو حراز. وكان سبب ذلك التأخير كثرة عدد الجيش وبطء حركته في عبور النيل. وسلك حمدان طريق «البحر» متجهاً إلى القضارف التي وصلها في ١٨ نوفمبر. ويوم ٢٠ نوفمبر الموافق في ٤ ربيع الأول وصل إلى سرف سعيد بعد رحلة شاقة أسرع فيها حمدان المسير وذلك لأن يونس الدكيم كان قد أخبره بأن الحبش ينوون الهجوم يوم ٢٠ نوفمبر الموافق في ٤ ربيع الأول وهو يوافق نفس اليوم الذي هجموا فيه على القلابات في العام الماضي وقتلوا محمد أرباب. ولعل يونس الدكيم قد خمن هذا التاريخ وليس نتيجة معلومات مؤكدة.

ثم أخذ أبو عنجة في ترحيل الجبخانة حيث تم وضعها في خور اطرب على بعد ساعة ونصف من القلابات. وفي ٢٥ نوفمبر الموافق في ٩ ربيع الأول تم اكتمال جميع رايات الجيش ما عدا أحمد علي الذي وصل براياته البالغ تعدادها تسعة آلاف جندي بعده بشهر. وكان أبو عنجة قد أمر ببناء حائط مربع محل نزول الجيش إذ «كانت القلابات من قبله بدون ترتيب أو تمييز لأحوال النازلين». فرتب كل قبيلة بمكان منفصل، وكذلك فصل الرايات عن بعضها، كما أمر ببناء أماكن من الطوب لحفظ الجبخانة. وهكذا تم وصول حمدان بجيشه إلى القلابات بعد رحلة دامت ما يقرب من الشهرين.

٢ ـ الصراع بين حمدان أبو عنجة ويونس الدكيم:

.يرجع هذا الصراع إلى بداية تعيين حمدان على رأس الجيش المتوجه للقلابات. ولعل الخليفة قد أدرك أن مثل هذا التعيين قد يثير يونس الدكيم. ولذلك كتب إليه قبل تعيين حمدان على القلابات، يطلب منه أن يكتب إلى

حمدان أخبار الجبهة. ولعل الخليفة قصد بذلك أن يمهد لتعيين حمدان على القلابات. وعندما قرر إرساله كتب خطاباً مطولاً إلى يونس شرح له فيه العوامل والظروف التي أدت إلى إرسال حمدان إلى القلابات. فذكر له أن منطقته بها أعداد كبيرة من الأعداء من حبش وغيرهم، ونظراً لاهتمام الخليفة بتلك المنطقة ولأجل نصرة الدين فقد رأى أن يبعث أبو عنجة على رأس جيش كبير للمحافظة عليها. ثم انتقل بعد ذلك للحديث عنه وعن مكانته وأنه من «الأقارب الأحباب الباذلين أنفسهم معنا في السراء والضراء وخاصة الرجال الذين يجب المراعاة لهم وحرمتهم على جميع المؤمنين» فضلاً عن أن يونس بالنسبة للخليفة هو «النفس والحالة الواحدة». ثم ذكر له أن حمدان موضع رضائه ورضاء يعقوب. وحدثه كيف كانت علاقة حمدان بعثمان آدم عندما كان بكردفان، وكيف كان يحترم حمدان ويجله ويتأدب معه ويحسن معاملته ومعاملة كافة من معه من الأنصار. وأن عثمان آدم كان يفعل ذلك عملاً بوصية الخليفة وأنه بذلك قد شرح صدر الخليفة إذ أن تصرفه مع حمدان كان «كأمرنا وزيادة حتى نال الرضا». بعد هذه المقدمة طلب الخليفة من يونس أن يفيده إذا كان يرغب في قدوم حمدان إليه، وهل هو على استعداد لاحترامه وإكرامه وتوقيره مثل ما فعل عثمان آدم؟ فإن كان على استعداد فعليه أن يكتب إلى الخليفة حتى «ينشرح صدري ويتوجه لك الحبيب المذكور وإذا كان لا مقدرة لك على إكرام الحبيب. . . ففيدنا لنحرر إليه بعدم الوصول إليك»(١).

لا شك أن هذا الخطاب قد وضع يونس الدكيم في موضع دقيق، فهو لا يستطيع رفض حمدان قائداً عليه بعد كل ما ذكره الخليفة، وفي نفس الوقت سيجد صعوبة كبيرة في قبوله. ولكن خطاب الخليفة كان بارعاً فلم يجد يونس مخرجاً إلا أن يكتب إلى الخليفة موافقاً على قبول حمدان، وكان رده مقتضباً للغاية. وفي نفس الوقت بعث الخليفة إلى حمدان نسخة من خطابه الذي بعثه إلى يونس.

ورأى الخليفة أن ينفصل مكان إقامة الجيشين، حتى يتفادى أي

---

(١) الخليفة إلى يونس الدكيم، في ٢٥ ذي الحجة عام ١٣٠٤، مهدية ٤٨/٩/٢٤/١.

احتكاك قد ينشب بين القائدين. فكتب إلى أبو عنجة في شيء من التلميح قائلاً: «وعند وصولكم لجهة القلابات ومداولتكم أنت والحبيب يونس في محل النزول فالمحل الذي تروا اللياقة لنزول الجيش إذا كان خارج مركز ناس يونس أو خلاف ذلك تجربوه». كما طلب من حمدان بأن لا يدع مجالاً للوشاية بينه وبين يونس، وذكره بأنه هو الأخ الأكبر «المأمول فيه جمع الشمل» ولعل هذه إشارة إلى أن حمدان هو القائد الأول.

حقاً لقد كان الخليفة في بداية الأمر في حرج من أمر هذين القائدين، أحدهما قريبه ويثق فيه كثيراً، والثاني قائد مقتدر له مكانة وله نفوذ وموضع ثقة الخليفة أيضاً، فأيهما يؤيد في مركز القيادة؟ لعل الخليفة كان أميل إلى أبو عنجة ولكنه لم يشأ أن يحرج قريبه بل وابن عمه. وكان الوضع الأمثل بالنسبة للخليفة أن يظل يونس الدكيم بجانب حمدان. ولكنه شعر بعدم رغبة يونس في أن يكون في المرتبة الثانية. فبدلاً من عزله فكر أن يبقيه في القلابات مع الاحتياط لتفادي أي احتكاك بينه وبين حمدان. ولذلك لجأ إلى فصل جيشيهما، ولم تكن فكرة الفصل هذه من عند يونس كما قال بذلك نعوم شقير. فلعل الخليفة قد اقترح انفصال القائدين في عدة أمور أخرى وهذا ما أشار إليه حمدان بقوله: «وعلمنا من منطوق الأوامر الكريمة أننا على جماعتنا والحبيب يونس على جماعته وأن تكون الموافقة بين الفريقين في نصرة الدين»[1]. ولكن الخليفة رأى أن يشير إلى أولوية حمدان بالقيادة دون أن يلجأ إلى إصدار أوامر مشددة فكتب إلى يونس طالباً منه اتباع «إشارة... حمدان واتباع أمره ولا يخالفه... في شيء ما ولا تكون له مشاركة في ذلك... ولأنه له خبرة وتجربة في الحروب»[2]. لقد اتخذ الخليفة كل هذه الإجراءات والاحتياطات قبل وصول حمدان إلى القلابات. وهذا دليل على أن الخليفة كان يشعر بما سيكون عليه مسلك يونس معه.

وعندما وصل حمدان إلى القلابات وجد أن موضوع بيت المال لم

(١) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ٢٦ ربيع الأول عام ١٣٠٥، مهدية، ٤٣/١/٢٩/١.
(٢) يونس الدكيم إلى الخليفة، في ٢٠ صفر عام ١٣٠٥، مهدية، ٢٣٣/٤/٢٢/١.

يحسم بعد، وهل هو تابع ليونس أم تحت إمرته هـو. ويبدو أن يـونس الدكيم قد أثار صراعاً في هذا الأمر. إذ ما أن وصل حمدان إلى القلابات حتى طلب من الخليفة أن يعزل محمـد حمزة العمـرابي أمين بيت مال القـلابات والـذي كان قد عينه يونس، واقترح استبداله بمحمد أبي القـاسم صالـح. كما طلب من الخليفة أن يحدد الوضع بالنسبة لبيت المـال فكتب إليه قـائلاً: «بـأن بيت المال ما وفقنا فيه من جناب السيادة على إشارة بتصريح ولا تلويح... نـرجو الإرشاد»[1].

واقترح حمدان عند وصوله إلى القلابات أن ينتقل بجيشه إلى التومـات ليبتعد عن يونس. فكتب إلى الخليفة يطلب الإذن بـذلك، وذكـر له أن سبب انتقـاله إلى التـومات لأنهـا معتدلـة الأرض وهواؤهـا صحي وفيهـا «نـوعـاً من التنفيس على الجيش بدلاً من تراكمه محلاً واحداً». كما ذكر للخليفة أن جهة القلابات تصبح في زمن الخريف غير صالحة للحيوانات يصعب فيها الحـركة وتنقـطع المواصـلات مما يجعـل الحصول على قـوت الجيش أمراً فيـه مشقة وهذا يجعل ضبط الجنود وحفظهم صعبـاً ما لم «يـروا الكفايـة في المعاش». وذكر له أيضاً أن الجيش منذ وصوله إلى القلابات قد أصيب «بمرض الـدم»، وأن هذا المرض يشتد في زمن الخريـف، وقد مات عدد كبير منـه وربما ازداد العدد بعد ذلك. كما أشار كذلك إلى أن الخريف في القلابات يجعـل حركـة الجيش تتـوقف تمـامـاً ولا يمكن تحـريكـه ضـد الحبش أو إلى أي جهـة أخرى[2].

وعلى الرغم من أن حمدان قد قدم حججاً قوية لإقناع الخليفـة ليسمح له بالانتقال للتومات إلا أن الخليفة لم يقبل طلبه ورأى أنـه من الأصلح «جعل الـديم بالقـلابات محـلاً واحداً بحيث يكـون قريبـاً ملتصقاً» فـذلك «أولى من الفرق بينهما لما فيه من وجوه المضار الشتى». واقترح عليه بـدلاً من الانتقال إلى التومات أن ينفصل «بديمـه» عن يونس الـدكيم. من الواضـح أن الخليفة لم يشأ أن يفصل جيوشه ويفرقها في عـدة جهات ممـا قد يضعفهـا عسكريـاً.

(١) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ٢٦ ربيع الأول عام ١٣٠٥، مهدية، ١/٢٩/١/٤٣.
(٢) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ٦ جمادي الثاني عام ١٣٠٥، مهدية ١/٢٩/١/٩٥.

ولكن يبدو أنه فيما بعد وبعد عزل يونس من القلابات، قد تبين وجاهة الحجج التي أوردها حمدان فكتب إليه مقترحاً أن ينتقل من القلابات إلى عصار أو دوكة. ولكن حمدان فضل حينئذ أن يبقى بالقلابات فقد حسم في ذلك الوقت الخلاف بينه وبين يونس.

وعلى الرغم من أن فكرة الانتقال من القلابات التي اقترحها حمدان قد غلفها صراعه مع يونس حول السلطة، إلا أن الحجج التي أوردها عن القلابات وعن عدم صلاحيتها تكشف لنا عن حقيقة هامة هي أن تلك المنطقة لم تكن صالحة لاستقرار الأنصار بشكل مستديم. ولذلك فقد كان وجود الأنصار بها وجوداً سطحياً مرتبطاً بالوضع العسكري الذي نشأ في ذلك الوقت. ولعل جحافل الأنصار كانت تشعر بغربتها عن تلك المنطقة.

بعد انقضاء شهر على حمدان في القلابات قام يونس فجأة بالتسليم الكامل له وتنازل عن «الرايات والجهادية وبيت المال والأسلحة وجميع الآلات الحربية وغيرها». ولكن الخليفة لم يوافق على تلك الخطوة فأمر حمدان بأن يرد إلى يونس «جميع أشغاله المتنازل عنها ويكن على ما هو عليه». فما الذي جد في موقف يونس حتى اتخذ تلك الخطوة؟ هل أحس بضعف موقفه أمام حمدان، أم أراد أن يكسب رضاء الخليفة فأظهر الطاعة وعدم الاكتراث بالسلطة؟ يبدو فعلاً أن يونساً كان يرمي إلى شيء من هذا القبيل إذ أن تلك المناورة التي قام بها عادت عليه بالفائدة إذ طلب الخليفة إعادة سلطانه إليه. ولم يكن تنازله رغبة منه وإيثاراً لحمدان بالقيادة.

واستمر يونس يضع العراقيل أمام حمدان مما صعب عليه القيام بواجباته. فقد كتب حمدان إلى الخليفة في أبريل/رجب بأنه منذ وصوله إلى القلابات لم يجد «راحة في الدين» فاضطر إلى السكوت خشية «موجبات الفشل» ولأنه وجد «إعراضاً من الكل» فاختصر على حدود ما لديه من الأوامر والوقوف «على أدبنا وصرنا لا حل لدينا ولا ربط... ولم يكن وقتها حالنا إلا كحال الآخرين»[1].

(١) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ١٨ رجب عام ١٣٠٥، مهدية ١/٢٩/١/١٣٠.

يبدو أن الخليفة قد اقتنع بعد تلك التطورات بعدم جدوى سياسته الخاصة بإبقاء يونس مع حمدان فقام باستدعائه إلى البقعة في يناير/جمادى الأولى. ومكث يونس الدكيم ملازماً للخليفة «صباح ومساء» مدى أربعة أشهر ثم أعاده للقلابات في أبريل/رجب بعد أن نال «حسن التربية وحوزة الفضائل»، وبعد أن أكد الخليفة لحمدان «بأولوية جميع الجيش... وكذلك الدار وما فيها... مع إعلام الجميع بامتثال الأمر منا». ولكن يونس الدكيم لم يبق بالقلابات سوى أسبوع عاد بعده إلى أم درمان، وعين عربي دفع الله قائداً على أولاد العرب والجهادية الذين كانوا تابعين ليونس. وهكذا انتهى الصراع بين يونس وحمدان لصالح حمدان. ولعل هذه من المرات القلائل التي ينصر فيها الخليفة قائداً من قواده على أحد أقربائه، ولكن حمدان أبو عنجة لم يكن قائداً عادياً بل كان بالنسبة للخليفة من أهم قواده بل ويعتبر في مرتبة أسرته.

٣ ـ القضاء على محمد البرقاوي الذي ادعى النبوة:

وكانت المشكلة الثانية التي واجهت حمدان عند قدومه للقلابات هي مشكلة آدم محمد البرقاوي[(١)] الذي ادعى أنه نبي الله عيسى[(٢)]. وكان آدم هذا تابعاً لراية الحاج عبد الله البرقاوي. ويبدو أن آدم قد بدأ دعوته بالاتصال

---

(١) يقال إن آدم محمد هذا ولد ببرقو. وكان عمره ٢٥ عاماً عند قيامه بتلك الدعوة فيكون ميلاده حوالى عام ١٨٦٣. وهو، حسب وصف أبو عنجة. شاب لا لحية له أخضر اللون يميل إلى الصفرة، مفرق الأسنان السفلى، مفتوح الوجه مربوع القامة واسع الجبهة عظيم الرأي أعجمي اللسان.

(٢) انتشرت في السودان في ذلك الوقت الدعوة إلى نبي الله عيسى والخضر والمهدي المنتظر. ويقول حمدان في رسالة للخليفة أن فكرة نبي الله عيسى كانت رائجة في القلابات. مهدية، ١٤/٢/٤٣/٢.

وبما أن دعوة المهدي نفسه كانت تعتمد على أمر الباطن فقد فتحت المجال لكل من يريد أن يدعي المهدية. وقد حدث فعلاً أن قام شخص يدعى الفكي ولد محمد في التومات وادعى أنه المهدي وكان ذلك في نوفمبر عام ١٨٨٨ ولكنه اعتقل وأرسل إلى أبو عنجة في القلابات. وعند استجوابه تنازل عن دعواه وسجن. راجع: فرج الله رجب إلى أحمد علي، ١٤ ربيع الأول عام ١٣٠٦، مهدية، ٢٨/٢/٧/٢.

بعبد الله البرقاوي الذي آمن بها فقام عبد الله ورتب لقاء في منزله بين آدم وبعض أمراء الرايات، وكان ذلك اللقاء حول مائدة طعام. وقد لبى تلك الدعوة عدد من أمراء الرايات وهم: محمد عمر المشهور بأبي القرشي والذي أصبح فيما بعد اليد اليمنى لآدم، ومهاجر إسماعيل، وعيسى أحمد والطيب محمدين البديري، ومحمد أحمد أبو أم فضالي الحميري، والطايف أحمد، وهنون النيل الهباني، ومحمد حسين بقادي، ومحمد علي البرناوي، وعبد الله جاموس. وقام أولئك الأمراء بمبايعة آدم البرقاوي في ذلك الاجتماع وأقسموا على المصحف وتعاهدوا على أن يكونوا عوناً لبعضهم البعض وأن يكتموا أمرهم فيما بينهم[1]. كما قرروا أن يعرضوا دعوتهم على يونس في الوقت المناسب فإذا رفضها قاموا بقتله. ولكن أمرهم كشف قبل أن يتمكنوا من تنفيذ مؤامرتهم. فقد قام رجل يدعى محمد البلاغ بإبلاغ الخبر إلى يونس الدكيم إذ أن حمدان لم يصل بعد. فقام يونس بجمعهم في المسجد وواجههم بالتهمة ولكنهم أنكروها أو لعلهم لم ينكروها نكراناً قاطعاً. فعفا عنهم يونس واعتبر ما حدث مجرد هفوة. وقد لجأ يونس إلى اتخاذ تلك الخطوة السلمية تجاه الحركة لأنه «في قلة لعدم وصول المكرم حمدان». يبدو من رسالة يونس هذه أن تلك الحركة كانت على جانب كبير من الانتشار حتى أنه لم يجرؤ على مجابهة زعمائها وآثر أن ينتظر وصول حمدان.

وبعد وصول حمدان إلى القلابات بيومين علم بالخبر، فكون في الحال مجلساً من نواب الشرع وهم آدم ضو البيت وحامد بلولة وآدم علي. وأضاف إليهم عدداً من النقباء والعمال لمشاركته هو ويونس الاستماع إلى أقوال آدم وجماعته. وعندما واجهوا آدم بالتهمة لم ينكرها بل قال للمجلس: «إن ما بلغكم حقيقة وإني إذاً لنبي الله عيسى وأن الحق عز وجل أخبرني بأني نبي الله عيسى وكذلك الرسول». ووافقه بقية جماعته على دعواه بل كانوا «مبالغين في تصديقهم وإيمانهم بما جاء به» فقام حمدان بإرساله إلى السجن هو وجماعته. وبعد أيام أعاد استجوابهم فلم يتزحزحوا عن رأيهم. وكان أمراء

---

(١) يونس الدكيم إلى الخليفة، في ٢٨ ربيع الأول عام ١٣٠٥، مهدية، ١/٢٢/٤/٢٨٣.

الرايات لا يتكلمون أمام المجلس إلا بإذن من آدم[١]. واستمر آدم ليقول بأن دعواه من أمر الباطن وليست من الظاهر مثلها مثل دعوة المهدي والأنبياء والمرسلين[٢]. فأعادهم حمدان للسجن بعد أن أثقل أرجلهم بالحديد، وأبلغ الأمر للخليفة وطلب مشورته في الأمر. فأرسل الخليفة رده مع أربعة من الأمناء. وطلب الخليفة من حمدان قتل آدم مدعي النبوة وخيره بين قتل الأمراء الذين تابعوه أو العفو عنهم[٣]. كما أرسل عدداً من المنشورات إلى الجهادية وأنصار الدين يكذب لهم فيها دعوة آدم ويطلب منهم التمسك بدينهم. كما خاطب أمراء الرايات الذين تبعوا آدم مذكراً إياهم بوفائهم للمهدية وجهودهم لنصرتها، ونصحهم بأن يعلنوا توبتهم أمام حمدان ويونس[٤].

أما حمدان فقد كون مجلساً لمحاكمة آدم وجماعته، وأضاف إليه النواب الأربعة الذين أرسلهم الخليفة من أم درمان. واستقر رأي المجلس على قتل آدم وجماعته. كما تقرر تعيين أمراء جدد للرايات التي تبع أمراؤها دعوة آدم، وأن يكون تولي الأمراء الجدد لراياتهم في مساء يوم ٣١ ديسمبر الموافق في ١٥ ربيع الثاني وأن يتم قتل الأمراء المتآمرين صباح يوم ٣١ ديسمبر الموافق في ١٥ ربيع الثاني، وذلك حتى لا تظل الرايات دون أمراء مما قد يؤدي إلى حدوث «خلل فيها».

وفي صباح اليوم المحدود تم شنق آدم محمد وكل أمراء الرايات في سوق القلابات «واحداً واحداً أمام الجيش». ثم أخذ الأمراء الجدد البيعة

---

(١) حمدان أبو عنجة ويونس الدكيم إلى الخليفة، في ٢٩ ربيع الأول عام ١٣٠٥، مهدية ١٤/٢/٤٣/٢.

(٢) كانت دعوة المهدي قد تركزت على أمر الباطن وكانت هذه هي حجة المهدي الأساسية التي اعتمد عليها في رده على العلماء الذين اعتبرهم أهل ظاهر ولا علم لهم بأمر المهدية. وقد تعرض الأستاذ عبد الله علي إبراهيم لهذه القضية في شيء من تفصيل: عبد الله علي إبراهيم، الصراع بين المهدي والعلماء، مطبوعات وحدة أبحاث السودان، الخرطوم عام ١٩٦٨ م.

(٣) شقير، ص ١٠٦٥ - ١٠٦٦.

(٤) الخليفة إلى محمد أحمد أبو أم فضالي وآخرين، ٩ ربيع الثاني عام ١٣٠٥، مهدية ١٤٣/٥/٣١/٢.

على يد يونس الدكيم. ويذكر شقير أن الخليفة قد بعث بخطاب آخر إلى حمدان يؤكد فيه قتل آدم ويطلب من أبو عنجة أن يعفو عن أتباعه أمراء الرايات، ولكن خطاب الخليفة وصل القلابات بعد أن نفذ حمدان حكم الإعدام. ويبدو أن الخليفة قد تأثر لقتل الأمراء فنجده يقول في «حضرة نبوية» جاءته بعد قتل آدم وأتباعه أنه عندما سمع بقتل أمراء الرايات الذين تابعوا آدم محمد داخلته «شفقة شديدة (عليهم) نظراً لسابق اجتماعهم وصحبتهم وسألت الله المغفرة لهم والصفح عنهم وابتهلت إلى الله كثيراً حتى استغفرت لهم سبعين مرة». ثم يقول إنه بالرغم مما أحسه من شفقة نحو أولئك الأمراء إلا أنه رأى هاتفاً سماوياً يدعوه لكشف أمرهم فرآهم يتعذبون في نار جهنم. وأنهم عندما طلبوا التوبة من الرسول ومن المهدي أحالاهما إلى الخليفة الذي اكتشف أنهم لم يتوبوا تماماً بل ماتوا على كفرانهم ولن يغفر لهم أبداً»[1]. لقد كانت تلك «الحضرة النبوية» ضرورية لإزالة التناقض الذي نشأ بين خطاب الخليفة الأول الذي يأمر بقتل آدم وأتباعه والذي نفذه حمدان، وخطابه الثاني الذي يطلب من حمدان أن يعفو عنهم، إذ أثبتت الحضرة أن الأمراء قد ماتوا على كفرهم. ويذهب أبو سليم إلى أن الخليفة قد أصابه الخوف من عواقب هذه الحركة ومثيلاتها، ولذلك أبان هذا العقاب الذي يلقونه في الآخرة[2]. وبهذا تكون مشكلة آدم محمد قد انتهت بسلام بعد أن كادت أن تحدث فتنة وسط الجيش المرابط في القلابات.

٤ ـ مشاكل حمدان أبو عنجة الداخلية:

لعل أهم هذه المشاكل هي: مشكلة الحدود، وتغيير عمال العمالات المختلفة، ومشكلة الغنائم، وتنظيم الجيش، ومشاكل القبائل المختلفة، وأخيراً مواجهة مجاعة سنة ١٣٠٦.

رأى الخليفة ضرورة توسيع عمالة القلابات في عهد حمدان ووضع حدود معلومة لها حتى لا تختلط مع أم درمان ويصبح جمع الزكاة أمراً صعباً.

(١) الخليفة (حضرة نبوية)، في ٢٢ ربيع الثاني، عام ١٣٠٥، مهدية ٢/٤٣/٤/١٠.
(٢) محمد إبراهيم أبو سليم (تحقيق)، منشورات المهدية، بيروت ١٩٦٩، ١٠٢ (حاشية).

ومما جعل الخليفة يعمل على توسيع عمالة القلابات كثرة الجيوش المقيمة بها مما يزيد حاجتها من الزكاة. وعليه فقد أصبحت حدود القلابات الجديدة تمتد من جهة «السافل» حتى الضبانية ومن الشكرية حتى نهر عطبرة، ومن جهة الغرب «وسافل» القضارف وما يليها إلى العتمور، ومن جهة الصعيد غرب عمالة الحمدة. ثم أضيفت لها الحمدة لحد عمالة ولد عايس والقلعة. وأضيف إليها فيما بعد بيلة والقلعة رانج لتحصيل الغلال منهما فقط للمساعدة في غذاء الجيش. ثم أضيف إليها كذلك عمالة الفونج من حدود «الطرفاة» حتى الدبيبة. حقاً لقد اتسعت عمالة القلابات في عهد حمدان اتساعاً كبيراً ولكن حمدان لم يتفرغ لإدارتها إذ شغل بحروبات الحبشة أيما شغل.

وحدث في عهد حمدان بعض التغييرات بين العمال. فقد عزل عبد الباقي خليفة عامل القضارف لكثرة تشكي الأهالي منه وإيذائه لهم، وعين بدلاً عنه عبد الصادق عمر. وعزل كذلك عبد القادر البشير عامل التومات لعدم استقامته فقد علم حمدان أنه أرسل لأهله مقدار ثمانية ألف ريال وعدداً من الرقيق. كما أن حامد علي عامل كسلا قد اشتكى كذلك من عبد القادر. فعزله حمدان وولى بدلاً عنه فرج الله رجب. كما عين عبد الرحمن محمد شرو في محل محمد أرباب سكر. وعين النور عنقرة عاملاً على سرف سعيد وذلك لتأديب أهل الجهة «وتطهيرهم من حقوق الله». وعين عبد الله حامد عاملاً على الحمدة، وآدم الجزلي على بيلة. فيتضح من هذه التحولات أن عمال المهدية كانوا إما مشددين على الأهالي مبالغين في إيذائهم متعنتين في أخذ حقوق الله منهم تساعدهم السلطة الدينية التي كانت ترفع لواءها الدولة المهدية، ويساعدهم بعدهم عن مركز السلطة والمراقبة، وإما كانوا يكرسون أغلب أوقاتهم في إثراء أنفسهم وإرسال الأموال إلى ذويهم لحفظها حتى إذا دالت دولتهم عادوا إلى بلادهم وعاشوا من الثروات التي جمعوها أيام كانوا في السلطة. ولا شك أن مثل هذه الأوضاع كانت من عوامل عدم الاستقرار وزادت على أعباء الدولة أعباء أخرى.

وكان بيت المال دائماً سبباً لصراعات كثيرة شهدتها دولة المهدية. فمنذ الأيام الأولى لحمدان في القلابات كتب له الخليفة رسالة حدد فيها سياسته

فيما يختص ببيت المال. وكان الخليفة يرى أن يكون محمد حمزة أميناً عاماً لبيت المال في القلابات نظراً لمعرفته بالجهة، وأن تكون الغنائم التي تجمع من الحروبات تحت مسؤولية شخص آخر يعينه حمدان بمعرفته. وقد أوكل حمدان تلك المهمة إلى محمد أحمد رحمة ومحمد أبي القاسم. ويبدو أن أبو عنجة كان يريد التخلص من محمد حمزة الذي كان قد عينه يونس الدكيم. فكان تقسيم بيت المال إلى شقين بغرض إرضاء الطرفين. ولكن بعد استدعاء يونس الدكيم إلى أم درمان أجرى الخليفة تعديلاً في إدارة بيت المال مما يرضي حمدان، فجعل محمد حمزة ومحمد أبو القاسم أمناء لبيت المال الموحد، وعين محمد أحمد رحمة ملاحظاً عاماً عليهما. ولكن لم يمض على محمد أحمد رحمة سوى بضعة أشهر في منصبه حتى أمر الخليفة بمحاسبته وجرد بيت المال، وأوكل إلى عبد الحليم أحمد مهمة الجرد[1]. فرد حمدان بأن عبد الحليم يرى أن محمد أحمد رحمة إذا ما حوسب وجرد بيت المال فلن يوجد لديه شيء لأن بالقلابات عدداً من العملاء المهتمين بأمور المال، وأنه كلما ورد شيء من المال من أولئك العملاء فإن حمدان يطلع عليه شخصياً. ولكن حمدان وعد الخليفة بإجراء الجرد. على أن عهد حمدان لم يشهد مشاكل مالية كثيرة لأن الأنصار شغلوا بالحروبات مع الحبشة. ولكن الغنائم التي جمعت من تلك الحروبات ومن اللاحقة أدت إلى مشاكل مالية لعلها كانت أكثر وضوحاً في العهود اللاحقة.

أما الجيش الذي كان مرابطاً في القلابات فقد بلغ، بعد ضم جيش يونس عليه خمسة وخمسين ألفاً وستمائة وخمسة عشر جهادياً. وقد قسم ذلك العدد إلى أربعة أرباع كما هي الطريقة المتبعة في المهدية في تقسيم

---

(١) كان طلب الخليفة لجرد بيت المال نتيجة لحدوث بعض «الخبايا والأمور المغايرة» في بيت المال في أم درمان، مما أدى إلى جرده. وتم ذلك في سبتمبر/أكتوبر عام ١٨٨٨ الموافق في مطلع عام ١٣٠٦. ويبدو أن ما حدث في بيت مال العموم كان مظهراً للصراع بين إبراهيم محمد عدلان أمين بيت المال ويعقوب. وتطور ذلك الصراع وأصبح بين ولد عدلان والخليفة مما أدى في النهاية إلى إعدام ولد عدلان في يناير عام ١٨٩٠ الموافق في جمادي الأول عام ١٣٠٧. هولت، ص ١٧٤ - ١٧٥.

حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ١٣ صفر عام ١٣٠٦، مهدية، ١/٢٩/١/٢٣٣.

الجيوش. وكان على قيادة الأرباع الثلاثة الأولى كل من الزاكي طمل، وعبد الله إبراهيم، وأحمد علي. وكل ربع يتكون من جهادية وأولاد عرب. وكل الجهادية كانوا مسلحين بالأسلحة النارية. وبعضهم بالسلاح الأبيض. وكان الربع الأخير يتكون من ملازمين وجهادية وكان تحت قيادة حمدان.

ورأى حمدان قبل أن يبدأ الحرب مع الحبشة أن يقوم ببعض التعديلات في تركيب الأرباع بحيث يقوي الربعين اللذين على الجناحين أي ربع عبد الله إبراهيم وأحمد علي. وأن يقوي كذلك ربع الوسط تحت قيادة الزاكي. لأن تلك الأرباع في رأيه تصبح بذلك التشكيل في «مجرى لثقل الحرابة». لذلك قام بضم أم بدي حمدون، وآدم إسماعيل، وفرج الله خليل على رَبْعَ الزاكي، وأن يكونوا جزءاً من أولاد العرب بذلك الربع لأنهم من قبائل الحمر والرزيقات والحوازمة وكنانة. وأن يسير هؤلاء خلف الجهادية ساعة الحرب كذلك قام حمدان بضم كل التكارير على ربع عبد الله إبراهيم، وضم أربعمائة بندقية على ربع أحمد علي. كما وزع الجيش الذي كان تحت إمرة عربي دفع الله على الأرباع الثلاثة ليزيد من قوتها. على أن الخليفة طلب من العملاء أن يختاروا الربع الذي سينضموا عليه على ألا يسمح بعد ذلك بالتنقل من ربع لآخر لأن التنقل من «محل إلى محل يؤدي إلى الفشل والتشتيت». وبناء على ذلك الأمر فقد انضمت ستة رايات إلى ربع أحمد علي، وأربع رايات إلى ربع عبد الله إبراهيم، وأربع وثمانون راية إلى ربع الزاكي طمل[1].

---

(١) كانت الرايات الأربع بقيادة كل من: فضل الله محمد العالم، علي أبو عاقلة، أحمد ولد إدريس وحبيب الله إبراهيم.

والرايات ٨٤ تتكون من القبائل الآتية:

جوامعة ٨ رايات.

الحسنات ٨ رايات.

دار عقيل ٦ رايات.

جمع ٧ رايات.

محارب ٣ رايات.

برقو ١٠ رايات.

هبانية ٢ رايتين.

سليم ١١ راية.

أولا دبلد ١٤ راية.

مختلفة ١١ راية.

جهادية ٤ رايات.

وشهد الجيش المرابط بالقلابات ظاهرة هروب المجاهدين من أولاد العرب والجهادية. وكان سبب وجود تلك الظاهرة هو رغبة بعض القبائل في الاستقرار في المناطق الزراعية إما زهداً في الجهاد أو لأن منطقة القلابات كانت شحيحة القوت. فالتجأت مجموعات من بعض القبائل إلى مناطق النيل والمناطق الزراعية الأخرى. ولجأ بعضها أحياناً للنهب والسلب. وقد تفاقمت تلك الظاهرة عام ١٣٠٦ نسبة لظروف المجاعة. ففي يناير عام ١٨٨٩ الموافق في جمادى الأولى عام ١٣٠٦ أبلغ محمد مدرع وهو أحد أمراء الرايات بأن سبع قبائل من الحسنات قد هربوا من القلابات واتجهوا نحو النيل الأزرق وأرض الجزيرة. وطلب حمدان إرسال بعض الأشخاص إلى الجزيرة لتجريد تلك المجموعات الهاربة من «العلايق الدنيوية المعوقة عن حضورهم. . . وضبطهم وربطهم لحين وصولهم إلى القلابات». وقد أبلغ عربي دفع الله كذلك عن هروب ستمائة وخمسة وتسعين من جهاديته. وكان الجهادية لا يكتفون بالهروب إلى المناطق الزراعية بل كانوا يقومون بارتكاب الكثير من أعمال القتل والنهب والسلب وقطع الطرق، حتى كاد الطريق بين القضارف والقلابات أن يتوقف تماماً لانعدام الأمان. وبلغت تلك الظاهرة درجة من الخطورة حتى أن أبو عنجة قام بإبلاغها للخليفة، كما قام بشنق خمسة من الجهادية من الذين قبضوا وهم يمارسون أعمال النهب. ولا شك أن مجاعة سنة ١٣٠٦ قد فاقمت تلك الظاهرة.

٥ ـ مجاعة سنة ١٣٠٦ هـ:

حقاً لقد كانت مجاعة عام ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩ م، أمراً شاقاً على دولة المهدية. وكان من أهم أسباب تلك المجاعة ترحيل أعداد هائلة من قبائل الغرب إلى أم درمان حيث ظلوا يعيشون على بيت المال ويشكلون عبئاً ثقيلاً عليه مما أدى إلى نفاذ المخزون من الغذاء. كما أنهم أدوا إلى إنهاك منطقة الجزيرة لاعتمادهم عليها أساساً في الحصول على غذائهم. كما أن رحيل تلك القبائل من مناطقها وانضمام قبائل أخرى عليها من مناطق

مختلفة بغرض الجهاد أدى إلى أن فقدت المناطق الزراعية أعداداً ضخمة من الأيدي العاملة. وكان لوجود ثلاثة جيوش كبيرة مرابطة في القلابات ودنقلا ودارفور أن تفاقمت المشكلة كثيراً. وكانت أم درمان كثيراً ما تستنجد بالمناطق الغنية للحصول على المواد الغذائية. فها هو حمدان يرسل إلى الخليفة عشرين ألف ريال منها تسعة آلاف «قشلي» والباقي «مجيدي» وذلك لأن أم درمان كانت مشحونة بالمهاجرين والأنصار من سائر الجهات. ثم جاء خريف عام ١٨٨٨ م = ١٣٠٥ - ١٣٠٦ هـ شحيحاً فأدى إلى حدوث المجاعة. وكانت وطأة المجاعة في بداية الأمر خفيفة على المناطق الزراعية مثل منطقة القضارف، ولكن اعتماد المناطق الأخرى عليها جعل اثر المجاعة يزحف عليها كذلك. وتركزت سياسة الخليفة في إطعام أم درمان أولاً وتوفير الغذاء فيها على حساب المناطق الأخرى. وكانت معارضة ولد عدلان لهذه السياسة سبباً في نهايته. فكيف نفذت تلك السياسة بالنسبة للقضارف؟

لعل الخليفة قد أحس بوقوع الكارثة عندما جاء الخريف ضعيفاً، ولذلك قام باستدعاء حمدان حيث وقف منه على أحوال المنطقة من الناحية الغذائية. وعاد أبو عنجة إلى القضارف ليقضي بها شهراً ليحل الضيق الذي وقع على الأنصار بالرغم من أنهم في منطقة زراعية، ولاهتمامه كذلك «بتسهيل ما هو لازم لقوت أنصار الدين» في أم درمان. وتمكن حمدان من إرسال ألف وخمسمائة جمل محمَّل بالذرة إلى البقعة كدفعة أولى.

وفي القضارف وضح حمدان الإجراءات الاقتصادية التي قرر اتخاذها لمواجهة المجاعة. وتتلخص تلك الإجراءات في «عدم المداولة بالبيع والشراء بعد هذا في العيش. . . وأن يكون البيع فيه بسوق مركز الرباط» بالنسبة لأصحاب الذرة الذين في إمكانهم ترحيل محصولهم إلى القلابات، أما الذين لا يملكون وسيلة للترحيل فيمكنهم أن يبيعوا في القضارف ودوكة وعصار والتومات. ما عدى ذلك فغير مسموح بمبيع أي ذرة خارج هذه المراكز في «الحلالات»[1]. وقد اتخذ حمدان ذلك الإجراء لأن الذرة كانت

(١) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ٢٧ ربيع الأول عام ١٣٠٦، مهدية، ١/٢٩/٢/٢٤٦.

تباع بأثمان باهظة لإرسالها إلى كسلا وسواكن وبربر بينما كانت الجيوش في القلابات تعاني من الضيق في المعاش. لذلك اتخذ ذلك القرار ببيع الذرة في المراكز الهامة حيث يمكن أن يفرض عليها رقابة.

ولكن الخليفة لم يوافق على تلك الإجراءات التي اتخذها حمدان لأن فيها إجحافاً على المناطق الأخرى. فكتب إليه قائلاً: «بما أنه حاصل ضيق في المعاش بجهة كسلا وسواكن وأن الجهتين ليس بهما زرع وأن (أغلب العيوش بجهة القضارف) فيجب أن تؤكدوا على فرج الله رجب وعبد الصادق بعدم منع العيش من التوجه لجهة حامد علي وعثمان دقنة». وألحق الخليفة أوامره هذه بأوامر أخرى يطلب فيها من حمدان السماح لوكيل بيت المال في أم درمان بشراء الذرة من القضارف لأن أم درمان «هي المربض للجيوش ووفود الإسلام». ويبدو أن الخليفة قد اعترض على سياسة حمدان لأنه كان قد سبق وأعطى أمين بيت المال في أم درمان أمراً ليسمح للتجار من أم درمان وكسلا بشراء الذرة من القضارف.

على أن حمدان لم يوافق الخليفة تماماً على رأيه فدافع عن سياسته التي قررها بأنه عندما وصل إلى القضارف وجدها في حالة «كرب لعدم المعاش» ووجد التجار يبيعون الذرة للتجار من كسلا وسواكن وبربر، ولذلك شفقة منه بالأنصار فقد قرر اتخاذ تلك السياسة إذ أن حرية البيع خارج المراكز «ستؤدي إلى الانفلات»[1].

وتحت وطأة المجاعة اضطر حمدان إلى صرف الغذاءات للجيش بالتومين خصوصاً في منطقة القضارف. فقام بعض أمراء الرايات بكتابة أسماء وهمية أضافوها إلى راياتهم وذلك طمعاً «في وفر ما ينالونه من عرض الدنيا»، حتى بلغ عدد الجيش في القلابات اثنين وسبعين ألفاً وثلاثمائة واثنين

---

(١) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ١ جمادى الثانية عام ١٣٠٦، مهدية ١/٢٩/٢/٢٦٥.

وثمانين جندياً. ولذلك قام أبو عنجة بإجراء جرد كامل للجيش «راية راية قبيلة قبيلة»، فوجد أن الزيادة في العدد بلغت ثمانية عشر ألفاً وخمسمائة وستة أشخاص جميعهم «هوادية لم يقابلها أحد في الوجود». وقد بلغ جملة ما كان يصرف للجيش في كل مرة تسعة عشر ألفاً وثمانمائة وسبعة وأربعين ريالاً، بواقع ربع ريال لكل فرد. كانت هذه هي الإجراءات التي واجهت بها دولة المهدية المجاعة الكبرى في المنطقة. ولا شك أن المجاعة قد عطلت عملية الجهاد والحروبات مع الحبشة هذا بجانب آثارها العامة التي شهدتها كل أنحاء دولة المهدية. كما أن المجاعة لم تنته في ذلك العام بل امتدت حتى عهد الزاكي طمل.

٦ ـ حمدان أبو عنجة والحبشة:

لا شك أن أهم أعمال حمدان في الفترة التي قضاها في القضارف ـ القلابات كانت علاقته السياسية والتجارية والعسكرية مع الحبشة. فهي لا تمثل فصلاً في تاريخ حمدان فحسب، بل في تاريخ المهدية كلها. وفي تناولنا لتاريخ هذه العلاقة يمكننا أن نقسمها إلى خمس فترات: الفترة الأولى التي قضاها حمدان في التجسس على أخبار الحبش وتحسس قوتهم وتحركاتهم والوقوف على حقيقة المكادة والنقادية الذين كانوا يقومون بعملية التبادل التجاري بين البلدين. والفترة الثانية وتشمل حرب حمدان مع الرأس عدار واحتلال حمدان لقندار. والفترة الثالثة التي ظل فيها حمدان في القلابات ساعياً للتعرف على أحوال الحبش وتحركاتهم، والتي سمح فيها كذلك باستمرار عملية التبادل التجاري أما الفترة الرابعة فتشمل غزوة حمدان الثانية للحبشة. وأخيراً الفترة الخامسة التي فشلت فيها المساعي السلمية بين البلدين واستعداداتهما العسكرية لجولة أخرى.

عند قدوم حمدان إلى القلابات للمرة الأولى كان يحمل معه خطاباً من الخليفة إلى يوحنا. وكان ذلك الخطاب هو الخطاب الثاني الذي يبعثه الخليفة إلى النقس. على أن الخطاب الأخير يختلف في روحه وفي منحاه

عن الخطاب الأول. ففي رسالته الثانية حدد الخليفة أشياء معينة ليوحنا وهي الدخول في الإسلام، والانتظام في سلك اتباع المهدي، والنطق بالشهادتين، وإقامة شعائر الإسلام في بلاده. ويتحدث في نفس الرسالة عن انتصارات المهدية على الحبشة ولكنه يطلب من يوحنا أن ينسى ذلك باعتبار «ما مضى فقد فات». ثم يتوعده قائلاً: «وإن... لم تزل على إعراضك عن إجابة داعي المهدية وإصرارك على دين الكفر واتباع الهوى فاعلم أنك تصير مع الهالكين... ولا بد من حلول جيوش الإسلام بدارك ومناجزتك الحرب وقطع دابرك وقتل كل من يكون معك[1]. لعله من الواضح في هذا الخطاب أن الخليفة قد اقتنع بأن يوحنا لن يتزحزح عن موقفه فآثر استعمال أسلوب الشدة. وربما لأنه في هذه المرة يتحدث من موقف القوة بعد أن أصبح حمدان في طريقه إلى القلابات. وعلى كل فهذا الخطاب يحدد سياسة المهدية تجاه الحبشة في هذه الفترة.

وقبل أن يصل حمدان إلى القلابات تواترت إليه تحركات الحبش في جهة تبارك الله إمارة النور فقرا ومحمد الأمين ابن سلطان الجبرتة. ففي منتصف نوفمبر عام ١٨٨٧ الموافق في بداية ربيع الأول عام ١٣٠٥ وردت رسالة من النور فقرا إلى حمدان يفيد فيها أن جواسيسه قد أخبروه بأن الحبش ينوون الهجوم على تبارك الله، وأنه يخشى تكرار ما حدث في العام الماضي ولذلك فقد أرسل في طلب نجدة من يونس الدكيم. إلا أن حمدان قد طلب منه أن ينتظر حتى وصوله إلى القلابات. ولكن ولد فقرا كان يرى عدم التأخير لأن «حكومة» ـ أحد عبيد الضبانية ـ والتكارير الملتجئين ببلدة نقارة، جميعهم متربصين لكي يجدوا أي فرصة سانحة يهجمون فيها. وثانياً لأن دجاج تسما القائد الحبشي في تلك المنطقة قد سافر إلى يوحنا، وترك وكيلاً عنه «وبري أم باية»، وهذه فرصة سانحة للأنصار ليهجموا فيها. وكرر ولد فقرا طلبه باستعجال إرسال النجدات في اليوم التالي وأضاف أن الحبش «في ذلك

---

(١) الخليفة إلى يوحنا، عام ١٣٠٥، مهدية، صادر رقم ٣، ص ٢٥.
لا يرد ذكر الشهر في هذه الرسالة ولكن من الأرجح أنها كتبت حوالى الربيع وهو نفس الشهر الذي تحرك فيه حمدان من أم درمان قاصداً القلابات.

الوقت مضايقين. . . من الطليان» وأن يوحنا قد توجه بجيشه لملاقاتهم ولم يبق على الحدود بقية من جيشه. ويخشى ولد فقرا أن يتحد الحبش مع «الطليان» فتضيع تلك الفرصة. ويضيف ولد فقرا بأن يوحنا قام باستدعاء كل قواده مثل رأس عدار ورأس مكانين ومنليك للاجتماع به في غبتة للتشاور في أمورهم الحربية، وأن أم باية وعجيل قد صحبا أولئك القواد إلى ذلك الاجتماع. وكان النور فقرا قد استلم رسالة من الجبرتة في الحبشة يطلبون فيها إرسال نجدة إليهم ليقوموا مع دعوة المهدية. فلكل تلك الأسباب مجتمعة يرى ولد فقرا إرسال نجدة من «الإخوان أولوا العزم» ليهجم بهم على الحبش ويخرب ديارهم. ويقترح إذا كان إرسال النجدة أمراً صعباً أن يسمح له بالهجوم على الحبش بمعاونة عبد القادر البشير. ويرى ولد فقرا أن يأخذ عنصر المبادرة بالهجوم قبل أن يفعل ذلك أعوان الحبش أمثال «حكومة».

أما حمدان فقد أصر على رأيه الأول ولم ير داعياً للإسراع بالهجوم ولذلك لم يرسل أي نجدات إلى ولد فقرا بالرغم من إلحاحه ومطالباته المستمرة. ولعل حمدان كان يريد أن يتعرف أولاً على طبيعة الوضع في القلابات قبل القيام بأي أعمال حربية. أو لعله شغل في بداية عهده هناك بإخماد فتنة آدم البرقاوي. ولكن يبدو أن الأخبار التي أوردها النور فقرا عن غفلة الحبش وانشغالهم بأمور أخرى قد جعلت حمدان يقترح للخليفة بأن يقوم بهجوم على الحبش على غفلة وهذا في رأيه «أبلغ من القعود لهم محلاً واحداً حتى يتم استعدادهم ويكونوا في غاية الانتظام لأمرهم». ويرى حمدان كذلك أنها فرصة سانحة لأن موقف صالح إدريس بدأ يتدهور أمام الحبش وأنهم أصبحوا غير راضين عنه ويفكرون في طرده وإبعاده[1]. وكان رأي الخليفة في الاقتراحين واضحاً وقاطعاً.

أما فيما يختص بالموقف في تبارك الله فهو يرى أن الأخبار الخاصة بهجوم الحبش ما هي إلا «إشاعات فارغة»، إذ أن الحبش مهتمين أساساً بجهة القلابات. وحتى القلابات فهم غير مهتمين بها في ذلك الوقت لأن

(١) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ١٤ عام ١٣٠٥، مهدية، ١/٢٩/١/٣٦.

يوحنا مهتم أساساً بأمر الإيطاليين، وقد ذهب إلى مصوع لإجراء صلح معهم. ولكن على الرغم من تلك التحركات فإن الخليفة حذر حمدان بأن لا يغفل عن الحبش، لأن الحبش والإيطاليين كلاهما من الكفار وربما أشاعوا انشغالهم عن دولة المهدية حتى يغفل الأنصار ويكونوا في «عدم أهبة» فيهجمون عليهم بغتة.

أما فيما يختص باقتراح حمدان فهو يرى أن يقوم حمدان أولاً بالتأكيد من مقدرة جيشه على ملاقاة الحبش لأن أغلب جيوشه من المستجدين الذين لم يسبق لهم لقاء العدو في جهاد «مثل الحرابات الشديدة». ويقترح عليه أن يقسم جيشه على مجموعات حسب مقدرتها على القتال بعد أن يجري عليهم فحصاً دقيقاً حتى يتضح له صاحب العزم القوي من غيره. وعليه كذلك أن يتأكد من سكان القلابات إذ أن أغلبهم «ليسوا صادقين ومتمكن النفاق من قلوبهم والتكارير المسموع عنهم أنهم منافقين وليس لهم أمان». وبعد أن يضع الخليفة كل تلك الاحتياطات يقترح الا يقوم الأنصار بالهجوم أولاً بل أن يستعدوا في مكانهم وينتظروا قدوم الحبش إليهم. ولعل الذي دفع الخليفة إلى ذلك التحفظ خوفه من أن يكون هجوم الأنصار فاشلاً بعد أن وضع أملاً كبيراً عليه. فهذه السياسة الدفاعية التي اقترحها الخليفة لم تكن سياسة عامة للمهدية تجاه الحبشة بقدر ما هي موقف أملته ظروف وقتية.

وفي ذلك الشهر الأول الذي قضاه حمدان في القلابات كثر ورود النقادية إليها لمباشرة أعمالهم التجارية. وكان أبو عنجة يتحدث معهم دائماً في أمور الدين محاولاً إدخالهم في حظيرة المهدية. وكان النقادية يردون بأنهم «مساكين ليسوا من الحرابة للدين في شيء وإنما الأساس في حركاتهم من كبرائهم». فأعطاهم حمدان الأمان. ولعله بهذا كان يحاول أن يزيل آثار يونس الدكيم العدوانية عندما قام بالتعدي على قوافلهم التجارية. ونتيجة لتلك الإجراءات فقد انتعشت الحركة التجارية حتى أن بعض النقادية قبل بالدخول في الإسلام.

ولكن الخليفة لم يوافق على تلك الإجراءات تجاه النقادية، فقد كان من رأي الخليفة ألا يسمح للنقادية بالحضور للتجارة بعد ذلك، ومن يحضر

منهم «يكون هو الجاني على نفسه». ولكنه يرى ألا يقوم الأنصار بالتعرض للنقادية ونهب ممتلكاتهم إذا حضروا إلى القلابات بعد أن منحوا الأمان بذلك، لأن تعرض الأنصار لهم بعد ذلك فيه خروج على الدين. وقد بنى الخليفة رفضه لحضور النقادية إلى القلابات لأنهم ليسوا من المسلمين بل هم أعداء الله ولذلك فلا توجد «مداخلة بين عباد الله وأعداء الله». على أنه عاد وذكر لحمدان بأن يسمح للنقادية بمباشرة أعمالهم التجارية إذا كان في ذلك مصلحة دينية وليست تجارة فحسب، مثال ذلك أن يكون حضورهم إلى القلابات رغبة في الإسلام أو أن يكون في حضورهم «إدخال المكيدة على عدو الله النقس بتقليل جيشه أو انحلال عزم أعداء الله وتفرق كلمتهم»(١).
على أن أبو عنجة كان يرى أن حضور النقادية فعلاً فيه ثمرة دينية لأنهم لا يحضرون للتجارة فحسب بل لأنهم يهربون من الأذى الذي يقاسونه من الحبش، إلى بلاد المهدية لما فيها من عدل. ويرى أيضاً أنهم بحضورهم إلى القلابات «يرون تحزب أنصار الدين وكثرة العدة والعدد المرهب لأعداء الدين ثم برجوعهم هناك يزدادون الذين هم هناك من أخبارهم رعباً على رعبهم». ويرى ثالثاً أن «الثمرة التي هي أبلغ من ذلك» أن زعيم النقادية نقاض رأس كان قد حضر إلى القلابات وأنه قام بكسوته بلبس الأنصار. وعندما يرجع إلى بلاده فالمأمول أن يعود ومعه عدد كبير من قومه، كما أنه وعد بأن يأتيني بأخبار الحبش وتحركاتهم.

ونتيجة لهذه السياسة فقد بلغ عدد أفراد القافلة حوالى مائتي شخص، حتى اشترى أبو عنجة من إحدى تلك القوافل ثلاثين حصاناً وهو عدد كبير نسبياً. ولكن الخليفة حذر حمدان والأنصار عامة ألا يركنوا كلية إلى النقادية إذ أنهم في اعتقاده جواسيس لأنهم إذا كانوا حقاً مؤمنين فعليهم بإعلان إسلامهم والحضور إلى البقعة. لقد أصبح الشك في النقادية هو الصفة

---

(١) الخليفة إلى حمدان أبي عنجة، ٣ ربيع الثاني عام ١٣٠٥، مهدية، عام ٦٥/٧٠٣.
لم يكن تخوف الخليفة من التجار واتهامه لهم بأنهم جواسيس يقتصر على النقادية فحسب بل كان يشمل أساساً التجار القادمين من مصر لأنهم فعلاً كانوا يقومون بأعمال التجسس لصالح المخابرات البريطانية ـ المصرية.

السائدة لسياسة المهدية نحوهم. ولكن حتى ذلك الشك لم يعرقل نشاط الحركة التجارية. ولعلنا نلاحظ أن موقف الخليفة تجاههم قد تحول من ذي قبل، فبينما كان من قبل يرى أن يسمح لهم بالحضور إلى القلابات ليستفيد الأنصار من شراء حاجياتهم، عاد ليضع شروطاً جديدة لحضورهم، فاعتبر المصلحة الدينية هي الأساس لاستئناف النشاط التجاري.

لاحظ الخليفة أن حمدان قد اهتم كثيراً بأحوال الأهالي وأهمل التجسس على أحوال الحبش وتحركاتهم، فكتب إليه مشيراً إلى هذا التقصير. ولكن حمدان نفى عن نفسه التقصير وأخبر الخليفة بأنه منصرف لمعرفة تحركات الحبش، وأنه يدقق في اختيار الطلائع التي يبعث بها إلى الحبشة، وأنه مهتم في إرسالها بانتظام. وكان قد وصلته بعض الأخبار التي تفيد بأن الحبش غير موجودين على جهة القلابات، ولذلك قرر أن يسير إلى بلادهم وأن يقوم باحتلال قندار على حين غفلة. وأنه واثق من أن الجبرتة سيجتمعون عليه ما أن يدخل بلاد الحبش. ولكنه عدل عن تنفيذ تلك الخطة تمشياً مع رأي الخليفة الذي ينادي بالأخذ بجانب الحذر. ولكنه منذ منتصف ديسمبر الموافق في أوائل ربيع الثاني وهو على أهبة الاستعداد وكل الجيش خارج البلد في «العرضة». واستبدل أبو عنجة فكرة الغزو بالتركيز على معرفة الحبش. فتأكدت الأخبار السابقة من أن يوحنا مشغول مع الإيطاليين وأن الجهات الغربية من بلاد الحبشة خالية تماماً. وكان في إمكان حمدان أن يقوم بغزو تلك المنطقة في منتصف ديسمبر الموافق في بداية ربيع الثاني لولا حادثة آدم البرقاوي التي كان يجب معالجتها بحزم. وبقي حمدان في القلابات وجيشه في حالة استعداد للجهاد، فقد أخرج كل الأرباع خارج سور البلدة ووضع كل ربع على جهة من الجهات، وقسم عليهم الأسلحة والذخيرة. وأكد للخليفة بأنه صرف «النظر كلية عن التوجه للأعداء في أرضهم إلا من بعد المرسى جداً مما نرسله لهم من الطلائع» وأنه مهتم بعملية التجسس على أخبارهم.

من الواضح أن الخليفة كان متشدداً في مسألة التأكد من أخبار الحبش وقوتهم لأنه لا يريد أن يدفع بثمرة جيشه لأول مرة خارج حدوده إلى أرض

غريبة في مغامرة قد تكون غير مضمونة العواقب. ولعل تلك الدقة هي من ضمن الظواهر التي تعكس مقدرته القيادية ومدى وزنه للأمور. فقد ظل حمدان قرابة شهر ونصف وهو يبعث للخليفة بما يأتيه من أخبار الحبش، والخليفة لا يوافق على توجهه إليهم، فقد كان طوال تلك المدة غير مطمئن إلى صحة تلك الأخبار.

وفي منتصف يناير عام ١٨٨٨ الموافق في نهاية ربيع الثاني عام ١٣٠٥ تأكد الخليفة من أن الحبش فعلاً منشغلون مع الإيطاليين وأن أي عملية حربية في ذلك الوقت ستكون نتائجها مضمونة. وقد عبر الخليفة عن إحساسه بالرضا بتلك النتيجة في «حضرة نبوية» قابل فيها الرسول والمهدي ونبي الله عيسى والخضر، وأن الرسول قال للخليفة: «قد حصل لك الإذن بغزو الحبش في بلادهم»، ثم قام الرسول وكبر على الحبش مراراً وكبر معه جميع الحاضرين. وقام المهدي بعد ذلك وقبل الخليفة على خده وكان مسروراً ومنشرحاً منه[1].

ويقول الكردفاني إن الخليفة قام بعد تلك الحضرة بإرسال أوامره لحمدان ليقوم بغزو الحبش. ولكن حمداناً قرر غزو الحبشة يوم ١٠ يناير عام ١٨٨٨ الموافق في ٢٥ ربيع الثاني وتحرك من القلابات يوم ١١ يناير عام ١٨٨٨ الموافق في ٢٦ ربيع الثاني، وقد ذكر للخليفة بأن قيامه كان لاقتناعه بأن رأس عدار قد وصل إلى دمبيا ولذلك رأى أبو عنجة أن يقوم بمفاجأته. ورأى أن يقوم بتلك الغزوة كذلك «لتراكم الجيوش بالقلابات وخشية تفريقها لداعي الجوع الذي مسها من عدم الغلال... مع شدة الأمراض من دم وخلافه». كما أن قيام حمدان كان بغتة ولم يخبر جنوده بأنهم متوجهون لمحاربة الحبش وذلك حرصاً على مفاجأة العدو. فإذا كان قيام حمدان بغتة والجهة التي يقصدها ظلت مجهولة على جنوده فمعنى هذا أنه هو الذي اتخذ القرار بالغزو. فإذا أضفنا إلى هذا أن الخليفة كان قد بعث إلى حمدان رسالة في ١٥ يناير عام ١٨٨٨ الموافق في ١ جمادى الأولى عام ١٣٠٥ يوافقه على قراره بالقيام بالغزو وأن تلك الرسالة قد تضمنت «الحضرة النبوية السابقة»،

(١) الخليفة (حضرة نبوية)، في ٢١ ربيع الثاني عام ١٣٠٥، مهدية، صادر رقم ١٢، ص ٩.

فيكون حمدان هو الذي اتخذ القرار، ثم قام بإرسال خطاب إلى الخليفة مع شخص يدعى إدريس عواض، يخبره فيه بقراره وبتحركه من القلابات. «فالحضرة النبوية» التي جاءت للخليفة والتي بموجبها قرر غزو الحبشة تكون قد جاءت للخليفة إما بمحض الصدفة في ذلك الوقت بأن يكون قد توصل إلى ضرورة الغزو في نفس الوقت الذي اتخذ فيه حمدان قراره، أو تكون تلك الحضرة جاءت بعد وصول رسالة من حمدان يخبره فيها بنية القيام للغزو. وفي كلا الحالتين فإن ما ذكره الكردفاني من أن الخليفة هو الذي حدد تاريخ غزو الحبشة قول غير دقيق.

تحرك أبو عنجة من القلابات ضحى يوم ١١ يناير الموافق في ربيع الثاني عام ١٣٠٥ وبصحبته خمسة وعشرون ألف مجاهد. وكانت خطته أن يسير على طريق شلقة إلى دمبيا التي يعتقد أنها على مسافة أربعة أيام من القلابات. وفي اليوم التالي من قيامهم قابلتهم قافلة من النقادية أكدت لهم وجود الرأس عدار بدمبيا ووجود يوحنا ببلاد التقرى.

وبعد مسيرة أسبوع ١٧ يناير عام ١٨٨٨ الموافق في ٣ جمادى الأولى عام ١٣٠٥ تراءت لحمدان طلائع جيش الرأس عدار. فقام أبو عنجة بترتيب جيشه استعداداً للمعركة. فقسمه إلى أربعة أرباع تمتد على خط واحد، وفي المقدمة وضع حملة الأسلحة النارية. وخلف رفع الزاكي طمل ـ الذي يقع في الوسط ـ كان حمدان ومعه الملازمون «وأهل النجدة وخفاف الحركة». ومن خلفه وضع حملة الرماح والسيوف كل مجموعة خلف الربع الذي تنتمي إليه. ووضع الخيالة على أجنحة الجيش وبهذا الوضع يصبح حمدان في قلب الجيش في موقف يمكنه الإشراف على كل الأرباع بحيث إذا طرأ على أحدهما ضعف يقوم بمده بالرجال. وسار بذلك الوضع حتى التقى بطلائع الحبش وكانوا نحواً من خمسين ألف فارس. وعندما بلغ منهم مرمى الرصاص أمطرهم بوابل منه حتى هلك عدد كبير من الحبش وانتهت المعركة بانتصار حمدان. وفي الليل جاءت فرقة من الحبش لمناوشة الأنصار وهم في معسكرهم على مقربة من جيش الرأس عدار ولكن الأنصار قاموا بصدها.

وفي صباح ١٨ يناير عام ١٨٨٨ الموافق في ٤ جمادى الأولى عام

١٣٠٥ صلى حمدان بجيشه صلاة الصبح وزحف على الرأس عدار. وكان عدار يقف على رأس مائة وأربعين ألف مقاتل جمعهم ـ حسب المعلومات التي أدلى بها الجبرتة ـ من كجام، شلقة، طاقسة، ودمبيا. وبادر الحبش بالضرب أولاً بأربعة مدافع ثم بالبنادق. واستمر الأنصار سائرين نحوهم دون أن يسمح لهم حمدان بالضرب حتى تحقق «بأن أفواه السلاح امتلأت من أعداء الله في أثنائها شرعنا في ضربهم (بالرصاص) ما حجب الشمس». وبعد ساعة انهزم الحبش وفروا من أمام الأنصار ملتجئين بنهر قريب. وبلغ عدد الفارين نحواً من عشرة آلاف. أما رأس عدار فقد نجا بنفسه وترك أبناءه وأهله للأسر. وبعد مطاردة دامت عشر ساعات، عاد الأنصار إلى معسكر الرأس عدار وشرعوا في جمع الغنائم. وكان عدد القتلى قد بلغ سبعة وعشرين ألفاً وعدد الأسرى تسعة آلاف. ويبدو أن هذه الأرقام مبالغ فيها ولكن مهما كانت درجة المبالغة فيها فإنها تعكس عنف المعركة وفداحة خسائر الحبش. وغنم الأنصار كل متاع الرأس عدار من ملابس وحلى وأثاث وأرسلت جميعها إلى الخليفة. كما أرسل إليه حمدان برؤوس بعض قادة الحبش. وبقي أبو عنجة في معسكر الرأس عدار ثلاثة أيام كان يرسل خلالها الطلائع يميناً وشمالاً دون أن يعثر للحبش على أثر وكانت حالة المعسكر سيئة، وبلغ من كثرة القتلى أن أصبحت رائحته «نتنة من جيف أعداء الله».

وفي يوم ٢١ يناير عام ١٨٨٨ الموافق في ٧ جمادى الأولى عام ١٣٠٥ تحرك أبو عنجة قاصداً قندار. وفي الطريق قابله بعض سكان المدينة راغبين في الأمان. وعندما قرب من المدينة خرج إليه «كبرائها من مسلمي الجبرت بالطاعة والإذعان». وفي يوم ٢٣ يناير عام ١٨٨٨ الموافق في ٩ جمادى الأولى دخل مدينة قندار فوجد أن أغلب أهلها قد هجروها بعدما علموا بما حل بجيش الرأس عدار. وفي قندار شاهد الأنصار «عجباً من القصور الشامخات (وأحرقوا) أربعين كنيسة». ووجد حمدان أربعة قسس بالمدينة كان قد عثر عليهم عبد الرحيم سالم أبو دقل وعبد الله إبراهيم، فمنع حمدان قتلهم فأعطاهم الأمان[1]. وعندما لم يجد حمدان أثراً للحبش كر راجعاً

(١) صالح محمد نور (تحقيق)، مخطوطة يوسف ميخائيل، ص ٧٤.

فوصل إلى وهني في ٢٩ يناير عام ١٨٨٨ الموافق في ١٥ جمادى الأولى. وفي يوم ٣ فبراير عام ١٨٨٨ الموافق في ٢٠ جمادى الأولى دخل القلابات.

وبلغ شهداء الأنصار في تلك المعارك خمسمائة وتسعة عشر، وجرحاهم خمسمائة وثلاثة وستين وعادوا بكميات من الغنائم. وبلغ عدد الجبرتة الذين انضموا إلى الأنصار ألفاً وأربعمائة وستة. وقد واجه الأنصار في تلك الغزوة صعوبات جمة متمثلة في وعورة الطريق وكثرة الجبال والمرتفعات. ولكنهم، كما يدعي حمدان، قد لاقوا العديد من «الكرامات» فقد كانت الأشجار تسقط على الأرض بثمارها، كما أن الجيش شاهد نوراً أبيض ينير له الطريق، وكانوا في ساعة القتال يسمعون صوت «أم بايا». وقد لخص أبو عنجة المغزى من تلك الغزوة في قوله «وبفضل الله فقد رأى الكفار سطوة المهدية وراعت قلوب جميع أهل دارهم مع ما وقفنا عليه من قياس أرضهم ومعرفة الأغلب من جهاتها وفي شقه حزب الله الغالب لدار الحبشة عبرة لأولي الألباب»[1].

ولكن لماذا عاد حمدان إلى القلابات دون أن يستأنف زحفه، أو يبقى في قندار ويعمل على تحصينها؟ لقد برر حمدان عودته قائلاً: «لقد كانت أوبتنا للمركز كوعدنا للمراحم وعدم التصريح الكافي من قبل هذا في إقامتنا بدار الحبشة والتوجه لما يلزم من الجهات ولأن الأخبار قد انقطعت من جهتنا على السيادة من مدة ولذلك حضرنا بالسلامة...»[2]. ففي هذه الرسالة يذكر أبو عنجة أربعة أسباب لرجوعه ولكنها لا تكفي لتفسير عودة ذلك الجيش المنتصر وعدم احتفاظه بانتصاره فإذا كان السبب الرئيسي هو عدم تصريح الخليفة للجيش بالبقاء في الحبشة، فلماذا لم يصرح الخليفة بذلك؟ لا شك أن العامل الجغرافي كان من أهم تلك الأسباب. فطبيعة الأرض الجبلية وغزارة الأمطار وبرودة الجو كلها لا تناسب الأنصار الذين لم يألفوا تلك الظروف الجغرافية العنيفة. فإذا علمنا أن فصل الخريف كان وشيك البداية

(١) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ١٥ جمادى الأولى عام ١٣٠٥، مهدية، ٦٧/١/٢٩/١.
(٢) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ١٩ جمادى الأولى عام ١٣٠٥، مهدية، ٧٢/١/٢٩/١.

وهو خريف عنيف خصوصاً في المناطق المرتفعة وأنه يؤدي إلى قطع طرق المواصلات لإدراكنا أن العودة كانت فعلاً أمراً ضرورياً.

ثانياً، فإن طبيعة حروبات المهدية في تلك المنطقة لم تكن حروبات توسعية بقدر ما هي غزوات إما من أجل الغنائم أو لتحريك الجيش وشغله بدلاً من الاحتفاظ به فترة طويلة في حالة ساكنة. فالحبشة على خلاف مصر لم تكن مجالاً لتوسع المهدية. ولهذا كانت معارك المهدية في تلك المنطقة إما غزوات من أجل الغنيمة أو بعض الأعمال شبه البوليسية أو حرباً دفاعية. وعليه فإن القلابات كانت أكثر ملائمة لتنفيذ تلك السياسة من قندار التي تبعد كثيراً عن مركز تمويل الجيش وتقع وسط أرض جبلية.

ثالثاً، لم يجد الأنصار إقبالاً صادقاً من الجبرتة. والجبرتة الذين انضموا إليهم فعلوا ذلك خوفاً من جيوش المهدية لاعتقادهم بأنها باقية بينهم، وإلا لبقوا على ولائهم للحبشة، أو كما قال حمدان، هربوا مثلما فعل الحبش وتفرقوا في المناطق الجبلية المختلفة. كما أن بقية سكان المنطقة لم يكن يوثق بهم فقد بدرت منهم عدة أعمال عدائية، ولذلك فإن عملية التوسع الحربي في منطقة معادية تصبح عملية شاقة[1].

رابعاً، كانت تلك الحملة نتيجة ظروف معينة أهمها أن يوحنا وبعض قواده كانوا منشغلين مع الإيطاليين مما جعل المنطقة القريبة من القلابات شبه خالية من الخطر. ومن تلك الظروف أيضاً أن عدد الجيش في القلابات أصبح كبيراً ولا بد من وجود غذاء له عن طريق الحرب، وقد كانت قندار نفسها مدينة هامة ومركزاً تجاريًّا مشهوراً، وكان الأنصار يعتقدون أنها بالنسبة للحبش «أم مدائنهم»، ومنى الأنصار أنفسهم بوجود ثروات طائلة بها. ولذلك فإن عودة حمدان إلى القلابات لم تكن أمراً غريباً بل هي تتمشى مع السياسة العامة لدولة المهدية في تلك المنطقة.

مكث أبو عنجة في القلابات من منتصف فبراير حتى منتصف يونيو/ من آخر جمادى الأولى وحتى آخر رمضان، قبل أن يقوم بغزوته الثانية إلى الحبشة.

---

(١) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ٢٩ جمادى الأولى عام ١٣٠٥. مهدية، ٨٣/١/٢٩/١.

وفي تلك الشهور الأربعة وجه أبو عنجة اهتمامه إلى إنعاش الحركة التجارية والتجسس على أخبار الحبش وإلى إجراء بعض الاتصالات السلمية مع بعض رؤسائهم بالذات الرأس عدار ومنليك.

بالرغم من الحرب التي دارت بين الأنصار والحبش، فإن عملية التبادل التجاري بين البلدين استمرت على ما كانت عليه. فقد كانت سياسة المهدية نحو النقادية لا تتأثر بالعلاقة بين البلدين بل باحتياجات دولة المهدية نفسها. فحيناً كان حضورهم إلى القلابات أمراً ضرورياً لمنفعة المجاهدين، وحيناً آخر هم كفرة وجواسيس لا بد من إيقافهم. وبعد عودة حمدان من قندار لاحظ أن «النقادية أهل التجارة من جبرتة ومكادة» ما زالوا يفدون على القلابات. وكان أبو عنجة قد قابل جماعة منهم وهو في طريقه إلى قندار وأعطاهم الأمان وعندما عاد إلى القلابات وجدهم على أهبة العودة. ولم يكن حمدان يدري هل يتركهم يواصلون أعمالهم التجارية أم يمنعهم عن الحضور بتاتاً. وكان أبو عنجة يرى في عودة النقادية ما يمكنه من الوقوف على أخبار الحبش، أو لعله أراد بهذه الحجة أن يقنع الخليفة حتى لا يمانع في استمرار الحركة التجارية. وكان يرى في تلك الحركة التجارية منفعة للمنطقة خصوصاً وأن انتصاره الأخير على الحبشة قد جعل النقادية يفدون على القلابات لبيع تجارتهم للأنصار الذين امتلأت أياديهم بغنائم الحبش. فقد شهدت الأيام التي أعقبت عودته إلى القلابات أفواجاً كبيرة من النقادية إذ تكاثر عددهم «على غير الطاقة في كل يوم دفعة أو دفعتين. . . (وكانوا) لكثرتهم إذا وصل الديم. . . أولهم في أول وقت صلاة الظهر لا ينقطع آخرهم إلى المغرب». وكانوا يدخلون القلابات بعد أن ينزعوا الصلبان (العتب) عن أعناقهم، كما أن بعضهم جاء «متجرداً من كل العوائق» ليستقر في دولة المهدية»[1] والحقيقة فإن أولئك النقادية هم فئة من التجار تجري وراء مصالحها بغض النظر عن ارتباطاتها الدينية. وكان أغلب النقادية المترددين على القلابات من الجبرتة والأمهرة من جهة شلقة وطاقة. أما المكادة فقد قل عددهم بعد الحرب بشكل ملحوظ.

---

(١) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ٢٢ رمضان عام ١٣٠٥، مهدية، ١/٢٩/١/-/١٨٦-٢.

أما الخليفة فقد بدأ يتشكك في تزايد النشاط التجاري وكثرة النقادية الواردين من الحبشة وأعتقد أن الحبش قد قصدوا من تصعيد الحركة التجارية إلى إضعاف «المسلمين بإخراج المعاملة منهم» حتى يأتي الوقت التي تصاب فيه دولة المهدية بانعدام النقود. ولذلك أمر بقفل «جميع البوغازات» ما عدا القلابات وذلك لثقته في حمدان وحسن إدارته للأمور. كما أمر بأن يمنع أي معاملة تجارية بالنقد سواء كان ريالاً أو ذهباً، وأن تكون المعاملة مع النقادية بالملح والقطن والسلع الأخرى، أي أن تكون التجارة بالمقايضة. وكان من نتائج ذلك الإجراء أن انخفضت التجارة وقل الوارد من الخيول والبقر والبغال والعسل[1].

أما جهة تبارك الله والتومات فلم تعرف استقراراً كالذي لقيته منطقة القلابات فظلت عرضة لهجمات عجيل وجماعته بغرض السلب والنهب، وأحياناً بغرض المناورات وقد كانت غبتة مركز عجيل عامرة لأنها لم تتعرض للحرب مثل غورة ودمبيا. وعندما كثرت غارات عجيل وتعددت قرر أبو عنجة أن يقوم بمحاربته في فصل الصيف، ولكن الخليفة رأى أن يسرع حمدان بالهجوم حتى ترتاح جهة تبارك الله قليلاً. فقرر حمدان أن يقوم يوم ١٩ مارس الموافق في ٣ رجب لتهدئة المنطقة، ولكنه وهو على وشك التحرك وصلته أنباء عودة يونس الدكيم فتأخر لملاقاته وشغل بعدها بمشاكل داخلية أخرى ولم يتمكن من محاربة عجيل. ولكنه قام بالتشديد على بوغاز تبارك الله والتومات حيث بعث بنجدات حربية إلى هناك. ويبدو أن تلك الجهة حظيت بشيء من الاستقرار بعد ذلك إذ أخذت جماعات من أنصار عجيل يهجرون معسكره ويعودون إلى التومات وتبارك الله طالبين الأمان لما أصابهم من الجوع من عدم الاستقرار وتعدد المعارك.

بعد أن عاد حمدان من حملته الأخيرة على الحبشة رأى أن يستغل انتصاره الحربي سياسياً، فبعث بعدة رسائل «وإنذارات» إلى بعض قادة الحبش خصوصاً الرأس عدار ومنليك وبلغت تلك الرسائل ثماني عشرة كلها

---

(١) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ٢٧ جمادى الثانية عام ١٣٠٥، مهدية، ١٢٢/١/٢٩/١.

متشابهة في صيغتها. كانت أول رسالة بعثها إلى رأس عدار في ٤ فبراير عام ١٩٨٨ الموافق في ٢١ جمادى الأولى. وفي تلك الرسالة توعده أبو عنجة وذكره بانتصاره الأخير على الحبش وقال له «وفي علمكم أننا ما دمنا بهذه الدار لا ندعها من التكسير... حتى تؤمن بالله وحده وتنطق بالشهادتين... فهذا إنذارنا لكم... وها نحن في انتظار ما يرد منكم إما السلم بقبول الإسلام إما الحرب»(١). ووصل رد الرأس عدار في ١٩ فبراير الموافق في ٦ جمادى الثانية مع رجلين من الجبرتة. وقد طلب رأس عدار الصلح من حمدان وعرض شراء أسرى الحبش من الأنصار على أن يرد للأنصار أسراهم الذين أخذوا في المعركة التي استشهد فيها ولد أرباب. وأكد أنه على استعداد لدفع الجزية(٢).

ورد عليه حمدان رداً قاطعاً إذ قال له بأنه لا يريد الدنيا ولا زخرفتها لأنها ذاهبة وكل ما يريده منه أن ينطق بالشهادتين وأن ينزع الصليب عن عنقه وأن يقبض على المفسدين أمثال صالح إدريس، والفكي المضوي عبد الرحمن، وعجيل، ويبعث بهم إليه. وكان أبو عنجة ينوي أن يرسل إلى رأس عدار ابنته التي وقعت في الأسر، ولكنه قرر أخيراً أن يبقيها في القلابات حتى يصل رد من أبيها. ولكن البنت ماتت لمرض ألم بها فأرسل حمدان خطاباً رقيقاً إلى عدار استهله بأن «الموت حق لا منجى لكل حي بعد الله منه». ثم أخبره بأن ابنته «هلكت بالقضاء». وبعث بجاريتها إليه ليتأكد بنفسه من صدق حديثه. ثم أخبره بأن ابنه مكنن «في أمان وعوفي جرح الرصاص» الذي أصابه في المعارك الأخيرة. وأخيراً طلب منه دخول الإسلام وإلا «فلا صلح إلا الحرب واشتداد الضرب حتى يهلك الله أعداءه». ورد رأس عدار بخطاب رقيق خاطب فيه حمدانا بقوله: «حبيبي في الله حضرة جناب الأمير

---

(١) حمدان أبو عنجة إلى الرأس عدار، ٢١ (:) ١٣٠٥، مهدية، ٤٠/١٣/٣٤/١.
هذه الرسالة لم يرد فيها الشهر ولكنه «جمادى الأولى» وقد اعتمدت على هذا التحديد من رسالة بعث بها حمدان إلى الخليفة. مهدية، ٧٧/١/٢٩/١.
أما نص رسالة حمدان إلى رأس عدار فهو نفس النص الذي بعثه إلى بقية رؤساء الحبشة.
(٢) ورد تلخيصاً لرسالة الرأس عدار في خطاب لحمدان بعثه إلى رأس عدار نفسه راجع، مهدية، ٣/٣٤/١.

حمدان أبو عنجة أمير أمراء بقعة القلابات». ثم تحدث له عن إكرامه لأبنائه وعوائله وأن هذا الكرم قد جعله في غاية «الممنونية»، ثم طلب إرسال ابنه حتى يكون في «غاية الفرح والممنونية من جهتكم حيث أننا لم نرغب من جهاتكم إلا أن يكون بيننا غاية المحبة... ولا نسمع في كل ما يكون بيننا قول قائل فاسد»[1].

لا شك أن نوعاً من العلاقة الودية قد نشأ بين القائدين حتى اعتقد حمدان أن الرأس عدار مسلم للمهدية لولا وجود منليك الذي يحول بينه وبين ذلك[2]. هل كان رأس عدار حقاً ينوي عقد صلح مع الأنصار بعد الهزائم التي لقيها على أيديهم، أم كان يحاول فقط كسب الوقت لأنه في موقف حربي ضعيف ولأن يوحنا ومعه أغلب الجيوش ما زال مشغولاً في الحرب ضد الإيطاليين؟ لعل رأس عدار قد أعجب فعلاً بحمدان وبمقدرته الحربية وبحسن معاملته لأبنائه الذين وقعوا في الأسر، ولكنه كان أيضاً يحاول كسب الوقت وتفادي أي هجوم عليه وهو في موقف ضعيف لذلك كان لين الجانب حتى اعتقد حمدان أنه مسلم للمهدية.

وبدأت صلات حمدان بمنليك بنفس الرسالة التي بعثها إلى رأس عدار، إلا أن منليك لم يشتبك معه في معركة حربية بعد، لأنه كان طوال تلك المدة بعيداً عن منطقة الحدود. وبعد انتصار حمدان الأخير قام يوحنا بإرسال منليك إلى الجهة الغربية بتفويض كامل. فقام منليك من دبر تابور إلى قندار ومنها إلى دمبيا. وقد انزعج حمدان لتلك الأخبار وكانت سبباً في تأخير الحملة التي كان ينوي إخراجها ضد عجيل. فقام بإجراء الاستعدادات اللازمة فأخرج «كافة أنصار الدين والرايات والسلاح والجبخانة بالبرازة خارجاً عن الديم»[3]. كما بعث بخطاب إلى منليك ذكره بما حل «بمجموع الضلال التي هي مع عدو الله رأس عدار» ثم أخبره بأنه قد علم من أمير الجبرتة أنه

---

(١) تكلا هيمانوت (رأس عدار) إلى حمدان أبي عنجة، نهاية شعبان عام ١٣٠٥، مهدية، ١٦٢/١٦/٣٤/١.

(٢) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، ١٥ رمضان عام ١٣٠٥، مهدية، ١٧٣/١/٢٩/١.

(٣) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ٦ رجب عام ١٣٠٥، مهدية، ١٢٣/١/٢٩/١.

«مسلم وابن مسلم ويحب المسلمين واسمك أحمد البشير». ثم قال لمنليك إنه إذا كان حضوره لدبر تابور حباً في الإسلام ورغبة في الانضمام للأنصار فإنه يعده بأن يعينه أميراً على عموم أرض الحبشة، أما إذا كان مصراً على الكفر وعناد الله فتوعده قائلاً: «بأنا مستعدون لصدك وتدميرك بعون الله وقوته وإن لم تأتينا فسنأتيك».

وعلى الرغم من توتر العلاقات بين منليك ويوحنا فقد رد على خطاب حمدان بخطاب حاد، بل وذهب الإساءة للإسلام على خلاف ما عرف عن أسلوب منليك الدبلوماسي، ويرى ساندرسون أن منليك ذهب إلى ذلك المذهب العنيف لكي يرضي الرأي العام في تأكيد موقفه من الإسلام. ويبدو أن هذا الخطاب لم يصل لأنه في كل خطاباته مع منليك كان ودياً إلى حد كبير. وكان حمدان على علم بالصراع بين منليك ويوحنا خصوصاً بعد أن وصلته أخبار أكيدة بأن منليك قد وصل فعلاً ووضع يده على كافة «تعلقات النقس يوحنا... وحتى بيوته... ونزل في واحد منها بالفعل ووضع يده على أرض قجام وكافة جهات رأس عدار وغيرها من نواحي الدار» وأن منليك قد فعل ذلك بعد موت يوحنا[1]. ولكن الخليفة نفى له موت يوحنا وأخبره بأن النقس يستعد لمحاربة الأنصار في فصل الصيف وأنه قد أوكل الجهة الإيطالية للرأس الولا[2].

وفي منتصف أبريل الموافق في أواخر رجب تأكد لحمدان وصول منليك بجهات دمبيا وأن جيشه بمكان يسمى شين قبروة يقع بين دبر تابور ودمبيا. وقد نبه منليك على جيشه بالاقتصاد في استعمال الدقيق في أكلهم نسبة لطول الرحلة، مما جعل حمدان يستنتج أنه ينوي الوصول إلى القلابات. وكان أبو عنجة قد سمع بأن منليك ينوي فعلاً وصول القلابات وإقامة ثلاث كنائس بها، وينوي كذلك مهاجمة حمدان على حين غفلة[3].

---

(١) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ١٨ رجب عام ١٣٠٥، مهدية، ١/٢٩/١/١٢٩.
(٢) الخليفة إلى حمدان أبي عنجة، في ٢٩ رجب عام ١٣٠٥، مهدية، ٢/٣١/٥/١٧٤.
(٣) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في رجب عام ١٣٠٥، مهدية، ١/٢٩/١/١٣٦. في الغالب أن هذه الرسالة كتبت يوم ٢٦ رجب.

وفي هذه الأثناء أرسل إليه منليك خطاباً يستفسره عن أمر رسالة استلمها منه وفيها يطلب حمدان من منليك أن يقوم بإجراء الصلح بينه وبين يوحنا، وبما أن الرسالة ليس بها ختم ولا تاريخ فقد شك منليك في صحتها ولذلك كتب إلى حمدان مستفسراً[1]. ورد عليه حمدان بخطاب مطول ملأه بالإرشاد والموعظة، ونفى مسألة طلبه الصلح نفياً باتًا قائلاً له: «وبالجميع لا نريد منكم صلحاً إلا بدخولكم الإسلام ورفضكم دين الكفرة أعداء الله اللئام وعبدة الأصنام». وهدده وتوعده وأخبره أنه مستعد بجيوشه للحرب. ثم استعجله الرد وأخبره بأن هذا سيكون آخر خطاب يرسله له[2].

ويدعي حمدان أن منليك أرسل خطاباً إلى أمير الجبرتة في القلابات يطلب منه أن يحصل له على تأكيد من حمدان على المصحف وبأنه سيجعل منليك فعلاً أميراً على كل بلاد الحبشة. وقد وعد منليك في خطابه بأنه إذا عين أميراً فإنه سيصالح الأنصار ويجاهد معهم حتى ضد يوحنا نفسه. وكان رد فعل حمدان على الاقتراح «هيهات أن ينال الصلح سوى الضرب بالعضب والورود لمناهل المنايا». ولا شك أن رفض حمدان لطلب منليك ـ إذا كان ما ادعاه حمدان صحيحاً ـ كان يعتمد فيه على انتصاراته الأخيرة التي حققها فقد كان معتداً بقوته وعتاده حتى أنه قام بإطلاع رسول منليك على كل أسلحته وعتاده حتى يقوم بإبلاغ ذلك لمنليك. كما أرسل لمنليك جبة الأنصار لتكون أساساً لأي صلح، فأما الدخول في سلك المهدية أو الحرب[3]. وبهذا يكون حمدان قد أغلق كل باب كان يمكن أن يكون منفذاً إلى نوع من الاتفاق ودعا إلى الحرب، ولم يبق بعد ذلك إلا الصدام مع منليك.

ولكن منليك لم يواصل زحفه على القلابات بل كر راجعاً من بجارة إلى دبر تابور ومنها إلى شوا. وكانت أسباب ذلك التحول أن يوحنا قد اشتبك في حرب مع الإيطاليين ولم يشأ أن يفتح جبهة ثانية مع الأنصار ولذلك

---

(١) منليك إلى حمدان أبي عنجة، في ١ رجب عام ١٣٠٥، ١٧٦/١٦/٢٤/١.
(٢) حمدان أبو عنجة إلى منليك، ١ شعبان عام ١٣٠٥، مهدية، ١١٥/٧/٣٥/١.
(٣) حمُدان أبو عنجة إلى الخليفة، ٧ شعبان عام ١٣٠٥، مهدية، ١٣٨/١/٢٩/١.

أرسل إلى منليك يطلب منه أن ينسحب من دمبيا ويعود أدراجه. كما بعث باثنين من قواده ليقوما بجمع أكبر كمية من الغلال وأن يحفظاها في جبل «بركتان» وذلك استعداداً للحرب[1]. كما أن اقتراب فصل الخريف سيحد من حركة منليك ولذلك قرر العودة ليستعد لاستئناف الحرب بعد فصل الخريف. وكان منليك يشيع للنقادية وهو في طريق عودته أنه قد أبرم صلحاً مع الأنصار. ويرى أبو عنجة أن سبب تلك الدعوة أنه كان يريد أن يأخذ من النقادية ما يريد من بضائعهم معتمداً على ذلك الصلح الوهمي. وربما كان منليك يسعى لجمع أكبر كمية من الغذاء لجيشه أثناء فصل الخريف. وفي منتصف يونيو الموافق في أواخر رمضان تأكد حمدان أن منليك قد جاوز دبر تابور وأنه في جهة دبر مي متجهاً إلى شوا. وبهذا استطاعت جهة القلابات أن ترتاح قليلاً، فالرأس عدار قد هزم وهو ساعٍ إلى إبرام صلح مع الأنصار، ومنليك متجه بجيشه إلى شوا، والخريف سيصبح جداراً يحمي الأنصار لفترة من الزمن.

وفي تلك الفترة التي توقفت فيها العمليات الحربية حقق الأنصار نصراً سياسياً على الحبش. وذلك أن اللن قرد، ابن الامبراطور السابق ثيودور، أرسل يطلب الانضمام إلى الأنصار. فقد كان اللن على عداوة شديدة مع يوحنا الذي اغتصب منه الملك. فأرسل حمدان يدعوه إلى القلابات وبعث له بجبة الأنصار ودعاه للإسلام. وفي ٢٠ أبريل عام ١٨٨٨ الموافق في ٨ شعبان عام ١٣٠٥ وصل اللن قرد إلى القلابات وأسلم وسمى نفسه عبد الرحمن. وكان أبو عنجة يرى أن يعطيه راية ويبعث به إلى أهله ليعلن الجهاد ويرفع راية المهدية هناك[2]. على أنه عدل عن تلك الفكرة وفضل إرسال عبد الرحمن إلى أم درمان لمقابلة الخليفة وأرسله فعلاً يوم ٢ مايو عام ١٨٨٨ الموافق في ٢٠ شعبان عام ١٣٠٥ ومعه رهط من الجبرتة. فأكرم الخليفة وفادته ورأى أن يعود عبد الرحمن إلى أهله قبل امتلاء الأنهر والوديان ليدعو للمهدية. وسواء صحت هذه القصة أو لم تصح، وسواء أحدث

(١) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، ٢٨ شعبان عام ١٣٠٥، مهدية، ١٦٦/١/٢٩/١.
(٢) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، في ١٩ شعبان عام ١٣٠٥، مهدية، ١٥٣/١/٢٩/١.

عبد الرحمن فعلاً تأثيراً حقيقياً في أهله أو لم يحدث، فإن تلك الحادثة تدل على تفهم قادة الأنصار لأهمية حرب الدعاية واستغلال كل العوامل الممكنة لكسبها. ويبدو أن عبد الرحمن قد عاد فعلاً إلى أهله ولكنه لم يستطيع أن يحدث أثراً فعالاً فلم يرد ذكره بعد ذلك، ولعل الأحداث الكبيرة التي عاشتها المنطقة بعد ذلك قد ابتلعته في دوامتها.

عندما أحس أبو عنجة بأن الحبش لن يستطيعوا مهاجمته في ذلك الوقت وأن رؤساءهم قد بعدوا عن جهته، وأن الخريف سيحول دون تحركاتهم، رأى أن يقوم «بانتهاز الفرصة في أعداء الدين أيام الخريفية هذه». ولعل هذه الفكرة كانت تنطوي على مغامرة كبيرة ولكنها بلا شك خطوة جريئة لما فيها من مباغتة وجرأة. وقد عبر الخليفة عن موافقته في «حضرة نبوية» رأى فيها أن الحبش «إذا حضروا للحرابة تكون أيديهم مغلولة إلى أعناقهم وأننا منصورون عليهم». وربما كانت تلك «الحضرة» إشارة إيحائية لحمدان ليغزو الحبش. وقد أوضح حمدان أهداف حملة الخريف وخطتها في قوله: «إنها مكيدة أردناها وفرصة لا بد من انتهازها ولقد عولنا على أن نستكمل خريفنا هذا ببلادهم بشن الغارات عليهم من كل جهة ومكان تخريب دورهم وإفساد مزارعهم وتضعضع الخف والحافر وإضعاف المساعي منهم حيث كانت إذ أن هذا هو الوقت الذي فيه مكيدتهم» ثم يعود للقلابات قبل تمكن الخريف. ورأى أن يكتم خبر الجهة التي سيتوجه إليها عن «الخاصة والعامة» حتى لا تفقد الغزوة عنصر المفاجئة[1].

تحرك أبو عنجة من القلابات يوم ١٧ يونيو عام ١٨٨٨ الموافق في ٧ شوال عام ١٣٠٥ ومعه أحد عشر ألف بندقية رامنتون وسار بطريق علقة ووصل في مساء نفس اليوم إلى كمكمي. وفي ٢١ يونيو الموافق في ١١ شوال وصل نهر عطبرة فوجد أنه لا يمنع تحركات الجيش كلية. ومن هناك سار على طريق بين علقة وشلقة وهو طريق اتفق أهل الدار أنه أحسن الطرق لأنه «صارف لجميع البحار والأودية» وليس به عوائق كبيرة تمنع المرور، ومن

(١) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، ٢١ شوال عام ١٣٠٥، مهدية، ١/٢٩/١/٢٠٠.

خلال ذلك الطريق يمكن العودة حتى في أشد أيام الخريف. وفي ٢٥ يونيو الموافق في ١٥ شوال وصل إلى أرض دمبيا حيث أقام معسكراً في مكان يسمى تكل. وقد قابله أهل الجهة والجهات المجاورة بالطاعة والامتثال طالبين الأمان، وقاموا بإكرام جيشه. كما انضم إليه أغلب الجبرتة حتى لم يبق «أحد من المسلمين إلا واجتمع به». وكان أبو عنجة قد اختار تنكل لأن بها فضاء واسعاً من كل الجهات وهناك أقام معسكره من الحجر وأحاطه بزريبة من الشوك.

ولم يجد حمدان أثراً للجيش، فيوحنا ما زال مشغولاً بالإيطاليين، ومنليك باقٍ في شوا ورأس عدار في قجام، ولذلك لم تثمر تلك الحملة عن معارك كبيرة. أما حمدان فكان كلما سمع بتجمعات للحبش يقوم في أثرها وكان الحبش غالباً ما يذعنون له بالطاعة وسمع بوجود أحد قواد الحبش ويدعى دجاج مششة في قوة من جيشه في جهة أم بحارة فزحف نحوه[1]. ولكن دجاج مششة كان قد هرب فاقتفى حمدان أثره دون جدوى. وأرسل حملة أخرى بقيادة عبد الله إبراهيم إلى إحدى الجزر كان قد سمع أن بها كنيسة معدة ليوحنا، فوصل إليها الأنصار على أطواف من الخشب وقاموا بإحراقها وقتل كل من كان بها. وقام بإرسال حملة أخرى إلى مكان دهناشوم ولكن الحملة لم تحقق نجاحاً كبيراً. وبعد تلك المحاولات المتكررة قرر أبو عنجة أن يعود أدراجه إذ لم تكن هناك ضرورة من بقائه، فوصل القلابات يوم ٧ أغسطس عام ١٨٨٨ الموافق في ٢٩ ذو القعدة عام ١٣٠٥. وصحب معه إلى القلابات ثلاثة من أعيان الحبشة ومعهم واحد وثمانون من جماعتهم وهم:

قراض وجماعته:	٣١
نقاش وجماعته:	١١
الزاوندي وجماعته:	٣٩

---

(١) دجاج ماشي مششة إلى حمدان أبي عنجة، عام ١٣٠٥، مهدية، ١/٣٤/١٦/١٨٣.

وقام بإرسالها جميعاً للخليفة حيث أكرمهم أملاً في استغلالهم في حرب الدعاية. كما أرسل للخليفة خمس الغنائم التي عاد بها.

منذ عودة حمدان حتى وفاته بعد حوالى نصف عام وهو يحاول استطلاع أخبار الحبش علّه يظفر بهم في جهة ما، خصوصاً بعد أن فشلت محاولة الحبش للصلح مع الأنصار، وانتهت هذه الفترة وكلا الطرفين يستعد للحرب. فبعد عودته من غورة أم بجارة وصلت عدة رسائل من الخليفة مرسلة إلى رؤساء الجيش: يوحنا ومنليك ورأس عدار[1]. فسار رسل الخليفة إلى شوا لمقابلة منليك وأقاموا معه نحواً من خمسة عشر يوماً لم يظفروا برد مقنع من منليك. أما يوحنا فما زال مشغولاً مع الإيطاليين. وعاد رسل الخليفة إلى القلابات يحملون أخباراً عن الحبش أنهم غير مخلصين ليوحنا وأنهم بعد موته على استعداد للوقوف في المهدية وطاعتها. ولعل أولئك الرسل قد عادوا بأخبار مبالغ فيها وربما قابلوا في رحلتهم بعض الجبرتة الحانقين على يوحنا فأعطوهم فكرة غير دقيقة عن موقف الحبش تجاه مليكهم. وفي أوائل سبتمبر الموافق في أواخر ذي الحجة وصلت أخبار إلى حمدان تؤكد أن أهالي الحبشة لن يقفوا مع يوحنا في حالة حربه مع الأنصار. وعلم كذلك أن يوحنا يعاني نقصاً كبيراً في المواد الغذائية مما جعله يقدم إلى جهة دمبيا حيث قابله شيخها عبد الله وركنة خاضعاً بقصد خديعته. وكان يوحنا ينوي أن يسير حتى قجام لما فيها من «الخطب في المعاش»[2].

وظلت أخبار الحبشة تتواتر عليه عن طريق الجبرتة والنقادية مؤكدة ما وصلته من أخبار سابقة. فقد علم أن منليك قد «قلع يده وانفرد لوحده» وأن رأس عدار «نفر عن اتباعه» وأن جميع الدار قد خالفت يوحنا ولذلك أصبح في «اضمحلال» من أمره خصوصاً وأنه ما زال متهيباً من جهة الإيطاليين. كما علم أن أبناء رأس عدار قد تقاتلوا مع التقرة ـ قبيلة يوحنا ـ وأن التقرة قد قتلوا أبناء الرأس عدار وأن هذا الحادث سيضعف يوحنا كثيراً لأن كافة الأمهرة

(١) الخليفة إلى حمدان أبو عنجة، في ٨ محرم عام ١٣٠٦، مهدية، ٢١٥/٦/٣١/٢.

(٢) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، ٢٩ ذو الحجة عام ١٣٠٥، مهدية ٣١٩/١/٢٩/١.

ـ قبيلة الرأس عدار ـ قد انسلخوا منه ولذلك فهو لا يستطيع أن يعتمد على التقرة وحدهم لأنهم ليسوا «بشيء في الحبشة لقلة عددهم». وإزاء تلك الأخبار المثيرة رأى الخليفة أن يستدعي حمدان إلى البقعة لإجراء مشاورات معه حول خطته للحرب القادمة مع الحبش. ووافق حمدان أن يقوم بتلك الزيارة إلى أم درمان لأن الحبش «هذه الأيام ليست لهم حركة أصلاً بل حاصلة لهم المشغولية في أنفسهم».

وعند عودته إلى القلابات وجد أن أحمد علي الذي أوكله في غيابه قد قام بإخراج كل الرايات خارج المركز استعداداً للحرب وذلك لأنه سمع بعض الأخبار عن تحركات الحبش. وبعد أن تأكد حمدان من عدم صحة تلك الأخبار أعاد الرايات إلى مكانها. وكانت خطته التي اتفق عليها مع الخليفة أن يهجم على الحبش إذا علم بمحل تجمعهم وأنهم «متزعزين»، أما إذا لم يعرف مكان اجتماعهم فعليه أن يقوم بالهجوم على جبل أبو رملة وما حوله من الجهات وذلك «لمساعدة الأنصار» وإعطائهم فرصة للحصول على غنائم وعلى معاش.

وبعد عودة حمدان مباشرة من أم درمان وصلته رسالة من يوحنا في ٢٥ ديسمبر عام ١٨٨٨ الموافق في ٢١ ربيع الثاني عام ١٣٠٦، وهي رسالة على جانب من الأهمية. يبدأ يوحنا رسالته بالحديث عن غزو الأتراك للسودان ثم محاولة غزوهم لبلاد التقرة عن طريق مصوع وكيف تمكن الحبش من هزيمتهم مرتين. ولعل يوحنا قد قصد من ذكر تلك الحقائق أن يقرب بين الحبش والأنصار وأنهم جميعاً قد قاسوا من الأتراك. ثم انتقل للحديث عن الحروبات التي دارت بين البلدين وكيف أنها كانت حروبات بلا جدوى سوى هلاك المساكين، ولذلك فهو لا يرى فائدة منها ومن استئنافها. ويقترح أن تظل كل بلد متمسكة بحدودها دون التعدي على الأخرى. ثم ينتقل بعد ذلك للنقطة الأساسية في رسالته فيقول بأن العدو الرئيسي له وللأنصار هم الإفرنج «الأوروبيون»، لأنهم إذا هزموا الحبش فحتماً سيقومون بالهجوم على الأنصار، وإذا هزموا الأنصار هجموا على الحبش. ولذلك يقترح يوحنا أن يتحد معه الأنصار لحرب الإفرنج حتى تصير البلاد في أمان «ويتردد التجار

من أهل بلادنا بالمتاجر إلى بلادكم وكذلك تجار بلادكم تتردد على غندار لأجل المعايش والمكاسب لأهلكم ولأهلنا». ولكي يؤكد يوحنا ضرورة ذلك التحالف يذكر بأن الحبش والأنصار أولاد جد واحد. ويذكر أن الإيطاليين كانوا قد طلبوا منه سابقاً أن يتعاون معهم لمحاربة الأنصار في جهة كسلا لأن الإنكليز سيهجمون من جهة الشمال. ويقول يوحنا بأنه رفض طلب الإيطاليين ولهذا ناصبوه العداء. ويختتم رسالته بقوله إن الأتراك والإيطاليين أعداء له وللأنصار ولذلك يرى ضرورة التعاون بينه وبين الأنصار[1].

من الواضح أن يوحنا كان يسعى إلى التحالف مع الأنصار لمواجهة الإيطاليين الذين كانوا يمثلون الخطر الأكبر. وكان يريد كذلك أن يؤمن ظهره قبل الدخول في حرب مع الإيطاليين فسعى ليكسب جانب الأنصار أو يضمن حتى وقوفهم على الحياد. وكان هدف يوحنا الثاني من كسب الأنصار التفرغ لتأديب منليك على حد قول ساندرسون[2] فطلب يوحنا هذا يعكس موقفاً تكتيكياً أكثر من فلسفة شاملة نابعة من فهم صحيح بضرورة الوحدة الافريقية ضد التدخل الأوروبي. على أن يوحنا بهذا الخطاب قد وضع بلا شك البذور الأولى لتلك الوحدة، كما حدد خطورة التدخل الأوروبي وتغوله على استقلال بعض البلدان في افريقيا. ولعل هذا ما رمى إليه الدكتور مكي شبيكة بقوله: «وبسط يوحنا بهذا سياسة افريقيا للافريقيين ونادى بحلف افريقي من الدولتين المستقلتين استقلالاً كاملاً في افريقيا لمناوأة الفرنجة»[3].

فماذا كان رد فعل ذلك الخطاب عند حمدان؟ استهل حمدان رده إلى يوحنا بالحديث عن كرامات المهدي وانتصاراته. أما فيما يختص بطلب يوحنا لعقد صلح وحلف مع الأنصار فقد كان رد حمدان قاطعاً بل كان خالياً من أي تقييم صحيح للموقف، فقد رد حمدان قائلاً: «وأما طلبك للصلح منا وأنت باق على كفرك فبعيد بعد المشرقين ودليل على ضعف عقلك وفراغ ذهنك فيا

---

(١) ورد هذا الخطاب في: نعوم شقير، ص ١٧٣ ـ ١٠٧٤.

(٢) Sanderson, Sudan in Africa p.175.

(٣) ١٤٥ شبيكة، ص ٣٨٤.

لك من سفيه ويا لك من جاهل أتريد منا صلحاً ومؤاخاة ولم تدخل في الدين الحق وكتاب الله ناه عن ذلك فإن رمت الصلح فقل مخلصاً من قلبك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. . . وإلا فإنا نقاتلكم ونخرب دياركم ونيتم. . . أطفالكم ونغنم أموالكم»[1]. وهذا الخطاب يتمشى مع الفلسفة الأساسية للدعوة المهدية والتي تنادي بالإيمان بالمهدية أولاً وإلا الحرب، وهي الفكرة التي سماها الدكتور مكي شبيكة «الجامعة الإسلامية». وكانت فكرة الجامعة الإسلامية هي الفلسفة التي تحكمت في سياسة الخليفة في الفترة الأولى من حكمه.

وكان رد الفعل الثاني أن قام حمدان باتخاذ الاحتياطات اللازمة والحذر الكافي فأقام على «الديم داير ما يدور زريبة متينة لها أربعة أفواه بكل ربع طريق ورتبنا عليهن الفقرا اللازم مستديماً لا يجول ولا يزول في سائر الأوقات بحيث لا يدعو أحداً يخرج إلا ومعه أمراً منا ولا يدخل أيضاً صاحب شبهة ليلاً ولا نهاراً إلا وقد اطلعوا علينا». كما قام بترتيب الجيش وعده وتنظيمه ثم أوقف التجارة مع الحبش إذ أن هذا الإجراء في رأيه سيجلب للحبشة «المضايقة لشد احتياجاتهم للقطن وغيره من أشغال الجهة وقد كان ذلك»[2].

فما هو سبب تلك السياسة الجافة من جانب المهدية والتي لا تعكس أي تفهم لسياسة يوحنا أو أي تجاوب معها. لم يكن سبب ذلك الرفض أن الأنصار ضد فكرة الحلف بتاتاً إذ أن الخليفة قد قبل تلك الفكرة فيما بعد. إذاً فالسبب مرتبط بظروف الأنصار وموقفهم في ذلك الوقت بالذات وتقييمهم لموقف الحبش. لقد كان لدى الأنصار إحساس - ربما مبالغ فيه - بقوتهم وقدرتهم. وقد كان مصدر ذلك الإحساس انتصارات حمدان التي حققها مؤخراً. وكان مصدره أيضاً فهم الأنصار لضعف يوحنا في ذلك الوقت ومواجهته للإيطاليين من جانب وتعدد مشاكله الداخلية من جانب آخر. حتى أن حمدان أكد للخليفة بأن يوحنا لا يريد الحرب وليس في موقف يمكنه من

---

(١) حمدان أبو عنجة إلى يوحنا، في جمادى الأولى عام ١٣٠٦، مهدية، ٥٨/١٣/٣٤/١.
(٢) حمدان أبو عنجة إلى الخليفة، ٩ جمادى الأولى عام ١٣٠٦، مهدية، ٢٢٥٨/٢/٢٩/١.

أن يحارب. فإذا أضفنا إلى هذه الأسباب أن فكرة الجامعة الإسلامية كانت هي الفلسفة المتحكمة في سياسة المهدية في ذلك الوقت لوجدنا أن رد حمدان العنيف على يوحنا كان له ما يقوم عليه.

أما يوحنا فإنه عندما استلم خطاب حمدان رأى أن موقفه أصبح دقيقاً وأنه وقع بين قوتين. فقرر أن يواجه الأنصار أولاً ويقوم بطردهم من القلابات وربما طاردهم حتى أم درمان ليؤمن ظهره. فاستدعى كل أمرائه إليه واجتمع له نحو من مائتين وخمسين ألف مقاتل وعلى رأسهم أشهر قواده مثل رأس عدار، ورأس الولا، وهيلا مريم. ولما سمع حمدان بذلك الخبر أخذ في تحصين القلابات فأحاطها بزريبة مربعة متينة وفي داخلها أقام «متراس» حصين ومن داخله أقام سوراً مربعاً طوله مائة وسبعون متراً ووضع على كل جانب من جوانب السور مدفعاً و «غفرا وطبجية وحرس».

ولكن حمدان لم يعش ليواصل حربه ضد الحبش إذ توفي يوم ٢٩ يناير عام ١٨٨٩ الموافق في ٢٧ جمادى الأولى عام ١٣٠٦ واستعدادات الحرب جارية على قدم وساق. وكانت وفاته فجأة نتيجة علة في بطنه تناول لها بعض الأدوية المحلية من الأعشاب فأودت بحياته. وخشي الخليفة أن تحدث وفاة حمدان نوعاً من الخلل في بوغاز القلابات فأرسل عدداً من الرسائل إلى العملاء والملازمين وأنصار الدين واعظاً لهم وحاثاً إياهم على الجهاد، كما طلب منهم الوقوف بجانب أحمد علي الذي حل محل حمدان مؤقتاً وأكد عليهم مؤازرته.

ولعل ما أورده الكردفاني عن حمدان يؤكد مكانته كقائد مقتدر من قواد الدولة المهدية. يقول الكردفاني إنه كان محبوباً من جيشه لمزيد إحسانه إلى جنوده وشفقته بهم وإيثاره لهم في كل شيء بحيث لا يتعدون إشارته ولا يخالفون أمره. وكانت له في الصدور هيبة واحترام عند كثير من الأنصار[١].

(١) الطراز، ص ٧٢.

حقا إنه كان أحد القواد البارعين الذين أخرجتهم الثورة المهدية[1]. ومات حمدان ولم يكتمل ذلك الفصل الهام من تاريخ المهدية الذي بدأه وبقي على خليفته الزاكي طمل أن يكمل ذلك الدور من بعده.

(١) وقد رثاه محمد طاهر المجذوب بقصيدة مشهورة قال فيها:

حمدان إنك طالما سمت العدى ... ذلاً وذكرك في المحافل يرفع
ما وجهت رايات نصرك وجهة ... إلا وبالظفر المؤكد ترجع
فلك الرضا بلقاء ربك شاهراً ... سيف الجهاد وكل قرم تقمع

الفصل الرابع

القضارف ـ القلابات بين الزاكي طمل وأحمد علي

(١٨٨٩ ـ ١٨٩٣ = ١٣٠٦ ـ ١٣١١)

تنقلت الإدارة في عمالة القضارف ـ القلابات في الفترة التي أعقبت وفاة حمدان وحتى ديسمبر عام ١٨٩٣ الموافق في جمادى الثانية عام ١٣١١ بين الزاكي طمل وأحمد علي حتى ليصعب أن ننسب هذه الفترة لأي منهما. فبعد وفاة حمدان آلت السلطة لأحمد علي لفترة قصيرة عين بعدها الزاكي طمل عاملاً على كل المنطقة. وفي أبريل عام ١٨٩١ الموافق في شعبان عام ١٣٠٨ غادر الزاكي القلابات إلى جنوب البلاد وبقي هناك حتى نهاية عام ١٨٩٢ الموافق في جمادى الثانية /رجب عام ١٣١٠. وفي خلال تلك الفترة أصبح أحمد علي وكيلاً لعمالة القلابات والمتصرف في شؤونها ثم عاد الزاكي إلى القلابات وبقي بها حتى يوليو عام ١٨٩٣ الموافق في محرم عام ١٣١١ حيث اعتقل بعدها وقتل. ثم عاد أحمد علي عاملاً عمومياً وبقي حتى مصرعه في اغردات في ديسمبر عام ١٨٩٣ الموافق في جمادى الثانية عام ١٣١١.

وسنتعرض في هذا الفصل لدراسة المشاكل الداخلية التي واجهتها المهدية في تلك المنطقة وهي لا تختلف في منحاها عن جملة المشاكل التي تعرضت لها المهدية في السنوات السابقة. إما في السياسة الخارجية فقد شهدت تلك الفترة قمة انتصارات المهدية الحربية، كما شهدت تلك الفترة كذلك بداية تقلص النشاط الحربي وانكماشه حتى أصبح في نهاية هذه الفترة مجرد مناوشات على الحدود بين البلدين، بل إن حامية القلابات نفسها تم

سحبها إلى القضارف. وشهدت هذه الفترة كذلك بداية الصدام مع الإيطاليين في اغردات. وبما أن العلاقة بين المهدية وإيطاليا ليست من اختصاص هذه الدراسة فلن نتعرض لها إلا في حدود تأثيرها على سير الأحداث في منطقة القضارف ـ القلابات وأثر ذلك على العلاقة مع الحبشة.

١ ـ تعيين الزاكي طمل:

منذ عهد حمدان كان أحمد علي ينوب عنه أثناء غيابه في أم درمان، فأحمد علي ابن عم الخليفة ومن المقربين إليه وهذا ما أعطاه وضعاً مميزاً عن بقية رؤساء الأرباع في المنطقة. وعند وفاة حمدان اتفق بقية القواد على تعيين أحمد علي وعاهدوه على الطاعة. وقد وجد ذلك التعيين هوى في نفس الخليفة. ولذلك كتب إلى أحمد علي يحثه على حزم الجيش والاهتمام بتدريبه «ومذكراته وثباته وتفقد أمور الجبخانة وآلة الحرب» وأن يمسك «كافة الجيش كما كان مساكة حمدان». وهذه الوصية تدل على قبول الخليفة لأمر ذلك التعيين.

ولكن بعد أن هدأت النفوس من أثر موت حمدان المفاجئ كتب الزاكي إلى الخليفة موضحاً الظروف التي أحاطت بتعيين أحمد علي. فالزاكي يرى أن اختيار أحمد علي لم يكن لكفاءته بل لأنهم عند وفاة حمدان كانوا في حالة اضطراب فاختاروا أحمد علي «لاعتصام الجيش واتفاق الكلمة وعدم دخول الزعزعة والفشل». كما أن قواد الجهادية في المنطقة رفضوا قيادة أحمد علي لهم وصاروا يتصرفون دون الرجوع إليه «وكل واحد منهم يكتب بمراده للدار ويطلب منها عيش وغيرها وكلاً منهم حاز له حلال وأضروا بالأنصار غاية الضرر». بل إن أولئك القواد تحزبوا مع الجهادية وطالبوا بعزل أحمد علي وبعثوا برسول إلى الخليفة يحمل تلك الرغبة. وادعى الزاكي أن الجهادية يقفون معه ويرفضون الانقياد لأحمد علي. أما أحمد علي فيرى أن أولئك القواد ساعون لتفريق الكلمة وطالب الخليفة «بتجريدهم من حطام الدنيا» وأن ينقلهم إلى أم درمان وعلى رأسهم الزاكي طمل وعبد الله إبراهيم وعربي دفع الله وإبراهيم الدفيعة وامبدي أحمدون. وقد بلغ الصراع بين

الطرفين حد القطيعة وربما التحزب للقتال. ولعل النور عنقرة قد صور الموقف بدقة في قوله: «وعن ما رأيناه من قراين الأحوال من الرؤوس فإنه إن لم يحضر سيدنا يعقوب بن السيد محمد أو أحداً يشابهه ويذاكرهم في الله مقدار جمعتين أو ثلاثة فربما لا تحصل منهم ثمرة أو وقع بينهم شاغل»[1].

وعندما بلغ الصراع تلك المرحلة الحادة أدرك الخليفة أن بقاء ابن عمه في القيادة أصبح أمراً مستحيلاً في وجهة المعارضة العنيفة، فرأى أن لا بد من وضع حد لذلك. فقرر إرسال وفد إلى القلابات ليطلع على الحالة ويقرر لمن تؤول الرئاسة. وتكوّن الوفد برئاسة أحمد علي قاضي الإسلام وعضوية عثمان أحمد وإبراهيم عالم وأحمدي محمود وأحمد حمدان وحسن حسين والبخيت هارون وأحمد الطليعة. وكان إرسال مثل تلك الوفود لحل الأزمات التي تنشأ في الأقاليم من التقاليد المألوفة في حكم الخليفة. ويبدو أن الوفود كانت تحمل رغبة الخليفة ولم تكن وفوداً مستقلة تقرر ما تراه مناسباً. ووضح هذا الاتجاه بالنسبة للوفد الذي أرسل إلى القلابات. فقد كتب الخليفة إلى أحمد علي في ١٢ فبراير عام ١٨٨٩ الموافق في ١١ جمادى الثانية عام ١٣٠٦ يطلب منه أن يقبل ما يحمله الوفد من قرار بالرضا والانشراح. وفي ١٥ فبراير الموافق في ١٤ جمادى الثانية كتب الخليفة منشوراً يعلن فيه تعيين الزاكي عاملاً على كافة الجيش، ويطلب من أحمد علي أن يقبل ذلك القرار وأن يقتصر على ربعه فقط. فإذا علمنا أن ذلك الوفد وصل القلابات في ٢ مارس الموافق في ٢٩ جمادى الثانية لأدركنا أنه كان يحمل أوامر محددة ذهب فقط لإعلانها بشكل فعال، وأن ذلك الوفد قد أتم مهمته في اليوم الثاني لوصوله[2]. ويبدو أن الوفد قد تعجل في أداء مهمته لأنهم لدى وصولهم تبين لهم أن الحبش كانوا يقتربون من الحدود وأنهم على وشك أن يقرعوا أبواب القلابات.

أما أحمد علي فقد استنجد بالخليفة يطلب حمايته خوفاً من أن يبطش

---

(١) النور عنقرة إلى الخليفة، في ٨ جمادى الثانية عام ١٣٠٦، مهدية، ١/٢٩/٥/١٠.

(٢) أحمد علي (قاضي الإسلام) وبقية أعضاء الوفد إلى الخليفة، ١ رجب عام ١٣٠٦، مهدية، ١/٢٧/١٤/٤٦.

الزاكي بقواد ربعه. ويبدو أن الخليفة رأى ضرورة استدعاء أحمد علي إلى البقعة بغرض تهدأة الجو ثم وإعادته ثانية. وهكذا انتهت الجولة الأولى من الصراع بين الزاكي وأحمد علي بتنصيب الزاكي عاملاً عمومياً على المنطقة.

٢ ـ مجاعة سنة ١٣٠٦:

وأول مشكلة داخلية واجهها الزاكي ـ ورثها من عهد حمدان أبو عنجة ـ هي مجاعة سنة ١٣٠٦ هـ. فقد بدأت تلك المجاعة في عهد حمدان واستمرت إلى عهد الزاكي بل وامتدت إلى عامين من عهده. فمنذ الأسابيع الأولى لحكمه لاحظ الزاكي «تضعضع المعاش» وأن القوت في عهد حمدان كان يجلب «بالطرق المستحسنة والتدابير النافعة بما يتبادله من الأهالي بالحكمة شيئاً فشيئاً بوسيلة وسلف ومساعدة» أما الآن فصار معدوماً وليس بالمنطقة من «حقوق الله ما يقوم بكفاية عشر المعاشر». وقد أثرت تلك الحالة المعيشية المضنية على الجيش حتى «تزايد به الضرر.. وعم ذلك الكافة كبيراً وصغيراً مجاهيد وعائلة حتى صاروا يأكلون الجيف ويلتقطون الحبوب من الأرض في الخلاء والمزابل ومحلات الرماد... وتفرق الطالب في الجهات في التماس المعايش وبعضهم يلتقطون القشوش والأشجار من الأودية مسافة ثلاثة أيام أو أربعة»(١) ولذلك قرر الزاكي عدم إرسال أي سرية إلى جهات الحبشة والأنصار بتلك الحالة، ورأى أن يرسل جزءاً منهم إلى «الجبال الصعدية» مثل أبو رملة عسى أن «تحصل مداركة الجيش بما يحضرونه من المواشي وهم أيضاً يتعشون» كما خرج الزاكي بنفسه للقرى المجاورة للعمل على جمع الطعام لجيشه. بل إنه لم يعترض جنوده عندما كانوا يقومون بنهب الأهالي واغتصاب ما بأيديهم من غلال. ويبدو أن الأنصار قد تمادوا في عمليات النهب هذه مما اضطر الخليفة للتنبيه على الزاكي بمنعها والوقوف ضدها بحزم. على أن المجاعة ظلت في تفاقم وتصاعد مستمر حتى أن أردب الذرة بلغ في بعض الأحيان مئتي ريال وانخفض إلى خمسين ريالاً(٢).

(١) الزاكي طمل إلى الخليفة، في ١٨ شعبان عام ١٣٠٦، مهدية، ٢١/١/٤/١، ٧٥.
(٢) إبراهيم فوزي، ص ٢٠١.

ومع بداية فصل الأمطار في منتصف عام ١٨٨٩ الموافق في أواخر عام ١٣٠٦ أخذ الأنصار في التحضير للزراعة وكانت بشائر الخريف تبعث على الأمل. فقام الزاكي بتوزيع أربعمائة أردب ذرة على الأهالي «على ذمة التواريب»، كما أعطى اهتماماً خاصًا بقبيلتي الشكرية والضبانية لتشاركا في الزراعة بشكل فعال نسبة لمعرفتهما التامّة بها. ولكن تفاؤل الزاكي كان مبالغاً فيه فلم يأت الخريف بنتائج باهرة كما كان يتوقع. ولذلك ظلت المنطقة «على حالة يرثى لها من ألم الجوع... مع كون تلك الجهات كانت ممن يضرب بهم المثل في الزمن السابق في إيجاد الغلال بها ورخص أسعاره». فقد بلغ سعر الأردب في موسم الحصاد خمسين ريالاً وأكثر وزيادة على ذلك كانت كميات الذرة محدودة. ومع أن الأسعار انخفضت لفترة حتى بلغت ثمانية ريالات إلا أنها عادت ثانية إلى الارتفاع بل وإلى انعدام الذرة تماماً. ولذلك لم يتمكن الزاكي من «جمع شونة ولا شيء... يتأتى منه إزالة ضروورياتهم (الأنصار)». وعاد الأنصار يبحثون عن قوتهم «في الخلا من العدار والعروق». بل إن بعضهم اضطر تحت وطأة المجاعة المستمرة أن يهرب من رايته متجهاً إلى الجزيرة وكانت بعض رايات الجوامعة والبديرية والحمر والجهادية من أول الهاربين. ويرى الزاكي أن هروب رايات أولاد العرب سيؤدي إلى ضعف الجيش إذ عليهم «المدار الكلي» وسيصعب إحضارهم بعد ذلك إذا «تمكنوا من الهرب». ويقترح على الخليفة أن يسمح به بجلبهم من الجزيرة. ويبدو أن سياسة الزاكي لمنع الهروب نحو الجزيرة قد حققت بعض النتائج إذ تحولت عملية الهروب نحو الحبشة بحثاً عن القوت.

ولعل خير ما يوضح سوء الوضع الاقتصادي في القلابات الحالة التي وجد عليها لبيت المال في منتصف عام ١٨٩٠ الموافق في آخر عام ١٣٠٧ عندما جرده. فقد كانت كالآتي[1]:

نقدية　　　لا شيء.

(١) كشف، في ٢٠ ذو القعدة عام ١٣٠٧، مهدية، ١٧٧/٢/٤/١.

مواشي	لا شيء.
رقيق	لا شيء.
الشونة	لا شيء.
زمازم صفيح	٢٨
سيوف حديد	١٠٩
ألواح صفيح	٧٠

على أن الزاكي قد قام من جانبه ببعض المحاولات لتحسين الحالة الاقتصادية. من ذلك فتح باب التجارة مع الحبشة لأن النقادية سيجلبون معهم الذرة زيادة على «العشور» المتحصلة منهم[١]. وكان الإجراء الثاني هو الحصول على ألفي أردب ذرة من الخليفة للمساعدة في وقف الهروب شرقاً وغرباً. وهكذا انتهى العام الثاني والمجاعة مستمرة تهدد مصير الدولة المهدية.

وجاء العام الثالث والمجاعة ما زالت تفرض ظلها القاسي على المنطقة والأنصار يعانون من نقص الذرة، والزاكي يطلب من الخليفة ويلح في طلبه ليرسل ما يجود به فائض أم درمان من ذرة. فرأى الخليفة أن يبعث بالزاكي إلى الجنوب بجيشه حتى تنقشع الأزمة. وفي أبريل عام ١٨٩١ الموافق في شعبان عام ١٣٠٨ غادر الزاكي القلابات تاركاً أحمد علي ليواجه المشكلة.

وجاء أحمد علي ليواجه نقصاً في الغذاء وانعداماً في الكساء فقرر سياسة جديدة. فطلب من الخليفة أن يرسل مقداراً وافراً من العيش والدمور «ليقوم بصرفه على الأنصار مقابل رصاص وظروف وشمع» لترسل إلى أم درمان لإعادة تصنيعها وتستمر هذه العملية حتى «انقضاء الخريف» وقد حققت تلك السياسة نجاحاً ملحوظاً. فما أن علم بها الأنصار حتى زادت رغبتهم في جمعه (الرصاص... الخ) والبحث عنه في محلات المحاربة[٢].

(١) الزاكي طمل إلى الخليفة، في ٧ رجب عام ١٣٠٧، مهدية، ١/٤/٢/١٣٣.
ويرى هولت أن فرض العشور على الواردات كان أحد إجراءات النور إبراهيم الجريفاوي عندما أصبح أميناً لبيت المال وقد طبقت تلك السياسة في عام ١٨٩١ = ١٣٠٨/١٣٠٩. هولت، ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٢) أحمد علي إلى الخليفة، ٢٣ ذو القعدة عام ١٣٠٧، مهدية، ١/٢٧/١٥/٨٣.

واتخذ أحمد علي إجراءً آخر بأن قام «برفع جميع العمال الذين كانوا متفرقين بالمنطقة حتى لا «يعاكسوا الأهالي ويتركوهم ليتفرغوا لعملية الزراعة. وكان ذلك الإجراء يتمشى مع سياسة الخليفة الجديدة التي ترمي إلى الاهتمام بالزراعة بعد تجربة المجاعة القاسية»[1] ولذلك وافق الخليفة على ذلك الإجراء. وأدت تلك السياسة مع جودة الخريف إلى نهاية المجاعة الكبرى في النصف الثاني من عام ١٨٩١ الموافق في نهاية ١٣٠٨ وبداية عام ١٣٠٩. وقد عبر أحمد علي على ذلك التحول بقوله: «جهتنا صارت في أرغد العيش وأتمها نعمة لأن جميع الأهالي زرعت ونتجت مزارعها نتاجاً لم يسبق لهم مثله... وما علينا إلا ما بقي من شهرنا ويبتدأوا في الحصد».

فما هي آثار تلك المجاعة التي جثمت على كاهل الأنصار موسمين متتاليين؟ أولاً، لعلها من العوامل التي أدت إلى توقف العمليات الحربية ضد الحبشة وجاءت سياسة الخليفة الزراعية الجديدة تعبيراً عن ذلك التحول. فتوقف بذلك مصدر هام من مصادر الغنيمة. ثانياً، ساعدت على انتشار ظاهرة السلب والنهب والتعدي على الأهالي مما خلق نوعاً من عدم الرضا نحو الأنصار وربما نحو الحركة المهدية عامة. ولعل اهتمام الخليفة بأهله التعايشة وربما البقارة عامة قد أظهر للقبائل النيلية ذلك التحيز القبلي. ونتيجة لتلك العوامل فقد ضعفت روح الحماسة لدى عامة الناس ولدى أقسام كبيرة من المجاهدين الذين كانوا يقفون على حدود المهدية يحمونها ويذودون عنها. فكثرت ظاهرة الهرب بينهم وأخذوا يتسللون إلى الجزيرة وإلى أم درمان نفسها. فها هو بكر مصطفى يعتقل سبعة وخمسين جهادياً «طوارق متهربين من سرية رباط القلابات» كانوا يجوبون أنحاء الجزيرة. وتبين للزاكي أن راية عمر ولد الياس صارت خالية من أنصارها «بالكلية». وكتب أحمد علي إلى الخليفة بعد انتهاء المجاعة «أن جماعة رايتنا من التعب الشديد في السنتين الماضية قد تفرقوا بالجزيرة. والأمثلة متعددة يزخر بها أدب المهدية. فبالرغم من أن المجاعة قد زالت عضوياً إلا أن آثارها ظلت ملازمة للدولة

---

(١) هولت، ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

المهدية بل إن أصداءها ما زالت تتجاوب حتى أيامنا هذه ويضرب بها المثل على الظروف المعيشية القاسية.

٣ ـ إدارة منطقة القضارف ـ القلابات:

(أ) تغيير الحدود:

تغيرت الحدود السياسية لهذه المنطقة تغييراً مستمراً طوال عهد المهدية. وكانت تلك التغيرات تتبع تغيير العمال الذين اختلفوا على المنطقة، فكلما زادت أهمية العامل لدى الخليفة اتسعت حدود عمالته، فنظام الحكم فردي يعتمد على الولاء الشخصي للخليفة. كما أن تلك التغييرات خضعت للوضع الجغرافي لمنطقة القضارف ـ القلابات لوقوعها بين الجزيرة وكسلا فكان يقطع أجزاء منها حيناً إلى هذه وحيناً إلى تلك أو يضاف إليها من كليهما. على أن تلك التغييرات خضعت لحد كبير للاحتياجات الاقتصادية والحربية. وكان أول تغيير حدث في عهد الزاكي هو فصل جهة بيلة وضمها إلى الجزيرة. واعترض الزاكي على ذلك التغيير وذكر للخليفة حجتين. الأولى أن القضارف ودوكة كانتا تمدان السرية بالغذاء، ولكن بعد مجاعة عام ١٣٠٦ أصابهما القحط وأصبح الاعتماد الكلي على بيلة إذ حاصل فيها «نوع فسحة». ثانياً أن جهة بيلة من الطرقات المؤدية إلى الجزيرة وإلى الغرب فإذا انفصلت عن القلابات فسيؤدي ذلك إلى «تمادي أنصار السرية لسلوك طرقهم والتوجه للجهات الغربية». وكان الزاكي قد جعل منها نقطة هامة للمراقبة تمنع تسرب الأنصار والسلاح. أما الخليفة فقد ضم بيلة إلى الجزيرة لتصبح نقطة مراقبة تمنع تسرب الذرة شرقاً. لقد كان الخليفة مهتماً بتوفير الغذاء لأم درمان اهتماماً فائقاً. ولإرضاء الزاكي أمر بضم جهات بني شنقول وتوابعها إليه. وبالرغم من أن الزاكي أرسل عبد الرسول عمر إلى بني شنقول عاملاً من قبله إلا أنه لم يمكث سوى بضعة أشهر استدعي بعدها إلى القلابات وظلت بني شنقول تتبع الزاكي اسماً.

وفي مارس عام ١٨٩٠ الموافق في شعبان عام ١٣٠٧ أمر الخليفة بضم كسلا إلى عمالة القضارف ـ القلابات لسببين. أولاً، لتعرضها لهجمات

متكـررة من الحبش وثـانيـاً، لأن في ضمهـا «تنفيس» للجيش المتـراكـم بالقلابـات. فأرسـل الزاكي ثـلاثة آلاف من الجهـادية بقيـادة النصري محمـد العالم، وعبد الله إبراهيم، وحمدين حبيب الله خلفاً لحامد علي. وتم إرسال أولئك الجهادية «شيء في شيء» لأن كسلا نفسهـا كانت تعـاني من نقص في المواد الغذائيـة. وعندمـا وصلت تلك الرايـات إلى كسلا وجـدوها «خـربانـة ومنـازلها خـلا ولا فيها أنصـار ولا غيـرهم من أهـالي البلد ولا العـربـان، إلا شرزمة يسيرة مع حامد علي» كانوا مـوجهين اهتمامهم على أنفسهم[1]. وأدى حضور تلك الرايـات من القضارف إلى ارتفـاع أسعار الـذرة حتى بلغ الأردب مائة وعشرين ريالاً وحتى بذلك السعر غير متيسر، فاستنجد النصري بـالزاكي لمده بالذرة والجبخانة. فأرسل الزاكي خمسمائة أردباً من الذرة وخمسة رايات من البديرية واتبعها بـأخرى من الجـوامعة والغـديات. وهكـذا أصبحت كسلا عبئـاً على القلابـات بل وعلى الجـزيرة ممـا أدى إلى فصلها وجعلهـا بـوغـازاً منفصلاً تحت قيادة محمد عثمان أبو قرجة وذلك بعـد أقل من عـام من ضمها إلى الزاكي.

وفصلت كركوج من القلابات وضمت إلى أم درمـان لفترة عـامين وذلك «لتضرر أهلها من تبعتهم للقلابات» وعنـدما طلب أحمـد علي إعادتهـا ثانيـة، لقربها منه ولخصوبتها ووفرة إنتـاجها، رفض الخليفـة قبول حججـه. على أنه أعادها ثانية في نوفمبر عام ١٨٩٢ الموافق في جمـادى الأولى عام ١٣١٠ إلى الزاكي. ويبدو أن الخليفة قد اتخـذ ذلك الإجـراء لتأمين مـوقف أم درمان من ناحية الذرة، وعندما اطمأن إلى الموقف أعادها ثانية.

وبعد عودة الزاكي من جنوب البلاد رأى أن يجعل من أبو حراز مركزاً له بدلاً من القضارف أو القـلابات. ولعـل الزاكي كـان يرمي إلى السيـطرة على الجـزيـرة. ولكن الخليفـة رفض ذلـك الاتجـاه لأن القضـارف مكـان واسـع وخصب وكثيـر الخيرات. والقضـارف في رأيه أيضـاً «مطرفـة» وإقامـة الجيش

(١) النصـري محمد العـالم وآخـرين إلى الـزاكي طمـل، في ٢١ شـوال عـام ١٣٠٧، مهـديـة، ٣٧٩/٤/٣٧/٢.

بالأطراف «احزم وارهب للأعداء وأولى وأحق بمراعاة المصلحة الدينية». كما أن أشراف الزاكي على القضارف من أبو حراز سيؤدي إلى «كثرة التشكيات» لبعده عنها. فعاد الزاكي بكل جيشه إلى القضارف ومنها إلى القلابات حيث طلب منه الخليفة ذلك. ولكن الزاكي رأى أن بقاءه بالقلابات غير مناسب «لضعف معاشها» ولأن الحبش «المجاورين بالقرب أذعنوا للصلح». فوافق الخليفة على عودة الزاكي إلى القضارف وبهذا انتهى عهد القلابات كمركز حربي وتحولت كل الجيوش إلى القضارف وذلك في مطلع عام ١٨٩٣ الموافق في رجب عام ١٣١٠.

وأجرى الزاكي في مطلع عهده بعض التنقلات بين عماله. فاستدعى النور عنقرة من القضارف وبابكر الحاج من دوكة ومحمد ولد فرح من سرف سعيد إلى القلابات لأنهم آذوا الناس وأضروا بمصالحهم. وعين بدلاً عنهم عمر نخاش بالقضارف وحسن آدم أنجرتلة بدوكة، والطاهر النضيف بسرف سعيد. وأحدثت تلك التنقلات - في رأي الزاكي - بعض «التنفيس والراحة للأهالي إذ هبط سعر أردب الذرة بشكل ملحوظ[1]. أما حامد الجزولي وعبد الله حامد فقد بقيا في مكانيهما ببيلة والدندر والرهد. وعند وفاة النور فقرا لم يعين عاملاً جديداً على تبارك الله بل اتبعت لدوكة، لقد كانت مثل تلك التحولات أمراً مألوفاً في المهدية تحدث مع تعيين كل عامل جديد.

(ب) الشكرية والضبانية:

وفي عهد الزاكي تم إخضاع قبيلتي الشكرية والضبانية إخضاعاً تامًّا، أو قل إن هاتين القبيلتين قد قبلتا حكم الخليفة أو أظهرتا قبولاً له بعد أن تبين لزعمائها أن مقاومة ذلك النظام لم تأت إلا بالخراب والتشتت. بل إن تلك المقاومة قد جرت على أفراد القبيلتين عنتاً في الحياة وضيقاً بها. أما الشكرية فقد تفرقوا في أنحاء المنطقة بعضاً في القضارف وبعضاً في كسلا وثالثاً في رفاعة. أما الشكرية في كسلا فقد لاقوا ضيقاً في المعاش لنقص الذرة في تلك المنطقة. فها هو علي عوض الكريم أبو سن يكتب إلى الخليفة راجياً

---

(١) الزاكي طمل إلى الخليفة، في ٦ جمادى الأولى عام ١٣٠٧، مهدية، ١/٤/٤/١٠٦.

منه أن يسمح له بإرسال كميات محدودة من الذرة لأهله في كسلا بعد أن مات بعضهم جوعاً. لقد تحول ميزان القوة في المنطقة. فالشكرية الذين كانوا في عزة ومنعة من أمرهم وكانوا في خير وفير تحولوا إلى مجموعات تضرب في تيه الحياة باحثة عن قوت يومها بينما صارت أرضهم ومزارعهم مأوى للجيوش التي تعكسر في ذلك المكان ترفع راية المهدية عالية لتواجه بها «أعداء الله». وها هو محمد أحمد أبو سن يكتب للخليفة عن أحوال بعض أبناء أبو سن وهم عبد الله وعمارة ومحمد طالباً لهم الإقامة حيث يمكنهم أن يستأنفوا حياتهم كما كانوا من قبل. وما أن انتصف عام ١٨٩١ الموافق في نهاية عام ١٣٠٨ حتى أخذت مجموعات الشكرية التي هجرت أرضها إلى الحبشة ـ على أمل العودة ظافرة على أنقاض المهدية ـ أخذت تعود إلى أوطانها طائعة بعد أن منحها الخليفة الأمان الكافي. وبعث الشكرية إلى الخليفة برسالة عبروا فيها عن رضائهم الكامل وامتنانهم بل وطالبوا بتخصيص ربع خاص بهم ليرفعوا راية الجهاد[1]. لقد نجحت سياسة الخليفة الجديدة التي كانت ترمي إلى ترغيب القبائل النافرة من العودة واستقرارها تحت ظل نظامه للمشاركة في تدعيم سلطته وتثبيتها.

ولم يكن موقف الضبانية يختلف عن الشكرية. فقد رأى الخليفة أن يعيد محمود عيسى زايد إلى أهله بعد أن اقتنع الخليفة بعد طول بقائه معه في أم درمان بأنه لن يكون بعد ذلك عنصراً مناوئاً له. ورأى الخليفة في عودة ولد زايد ما يساعده على استقرار الحياة الاقتصادية والاجتماعية للضبانية وعلى جمع شتاتهم بعد أن «نال حسن التربية».

ولدى وصول ولد زايد إلى القضارف في أبريل عام ١٨٩٠ الموافق في شوال عام ١٣٠٧ قام الزاكي بمده بالبذور الكافية للزراعة، كما عين مندوبين للسفر إلى مختلف الجهات التي يتواجد بها الضبانية لدعوتهم للعودة إلى ديارهم «ويبشرهم بحصول الراحة»، كما سمح لولد زايد بأن يعمل له ختماً خاصًا به. وقام ولد زايد بالتصدي لمهمته الجديدة مؤمناً بالنظام الجديد

---

(١) الشكرية إلى الخليفة، في ١٠ جمادى الثانية عام ١٣٠٩، مهدية، ١٠١/٥/٢١/٢.

وسطوته فسعى لجمع شتات أهله وعمـران ديارهم وزراعـة أراضيهم، وأرسل «للشاتين» منهم بديار الحبشة أحد أعيان قبيلتـه ويدعى الضـو ولد رانقي ليـرد غربتهم. واستطاع ولد رانقي أن ينجح في مهمته وأن يعيد منهم جمعاً كبيراً. وأرسـل الـزاكي حملتين إلى جهتي غـورة وغبتـة لتشتيت بعض تجمعـات الضبانية وقد ساعدت تلك الحملات في إعادة بعض فلولهم. وأظهر ولد زايد حماساً مبالغاً للمهدية حتى أنه طلب أن يسير في إحـدى الحملات مجـاهداً، ولكن الزاكي آثر بقاءه ليتم مهمته في التعمير واقتنع الخليفـة تمامـاً بأوبـة ولد زايد إلى حظيرة المهدية إذ نجده يوصي به أحمد علي خيراً ويطلب مساعـدته والأخذ «بخاطره».

هكـذا شهـدت الفتـرة الأولى من عهـد الـزاكي ومن عهـد أحمـد علي استقـراراً في المنطقـة تمثل في خضـوع قبيلتي الشكريـة والضبانيـة خضـوعـاً كاملاً. كما أن مجاعـة سنة ١٣٠٦ جعلت سيـاسة المهـدية تتجـه إلى تطويـر الزراعة عن طريق استقرار القبائل في مناطقها وتأمينها بعد أن تبين للحكام أن قبائل الغرب لا تحسن نوع هـذا العمل ولـذلك تـركت لتباشـر عملية الغـزو. ويمكننا أن نقول إن سياسة الخليفة في هذه الفتـرة كانت تهـدف إلى استمالـة القبائل المحلية لإعطائهـا الفرصـة لتستقر وتسـاهم في عملية الـزراعة بشكـل فعال.

(ج) الـجيـش:

ولا بد أن نستعرض طبيعة الجيش الذي كان يعسكر في القـلابات لأنـه من أكبر الجيوش في دولـة المهديـة. لم يختلف ذلك الجيش في تكـوينه عن جيوش المهدية الأخرى التي ترابط في البوغازات المختلفة فكلها تتكون من:

أولاً، العـرب وهم في الغالب حملة الأسلحـة البيضـاء، ومن جهـاديـة وهم الجنـود المحترفـون حملة الأسلحة النـارية. وكـان دور أولاد العـرب في المرحلة الأولى للثورة المهـدية دوراً أسـاسياً. ولكن بتـطور الثورة واحتكـاكها بأنظمة حربية معقدة احتل الجهادية الدور الـرئيسي في الحروب. وفي منـطقة القلابات كان هذا الاتجاه أكثر وضوحاً. ولعـل الجهاديـة قد تحـولوا إلى نـوع

من المحترفين أو الانكشارية كالتي عرفتها الامبراطورية العثمانية. فكان الجهادية هم يد المهدية الضاربة وأولاد العرب حملة فكرتها وروحها.

وبما أن القلابات أصبحت أكبر معسكر حربي في المهدية على الحدود، فإن تحليل قوة ذلك الجيش تصبح أمراً ضرورياً. فعندما قام الزاكي طمل بجرد الجيش في مارس عام ١٨٨٩ الموافق في رجب عام ١٣٠٦ وكانت المجموعة مؤلفة من تسعة وخمسين ألفاً وثلاثين جندياً منهم خمسة عشر ألفاً وتسعمائة وخمسة وتسعون جهادياً، وثلاثة وأربعون ألفاً وخمسة وثلاثون من أولاد العرب. وكان تسعة آلاف وسبعمائة وخمسة من الجهادية بأسلحة نارية. أما أولاد العرب فكان منهم ستة آلاف وأربعة وسبعون بأسلحة نارية (أي السبع). وبلغ جملة الفرسان من الشقين ألف ومائتين وعشرة. ويكون مجموع الأسلحة النارية في كل الجيش خمسة عشر ألف وسبعمائة وتسعة وسبعين وأكثر من نصفهم من الجهادية. وبالرغم من أن الجهادية أقلية في الجيش إلا أن عليهم الاعتماد الأول في أي صدام بل كانوا في واجهة ذلك الصدام. وعانى ذلك الجيش من الحروبات المستمرة ومن المجاعة حتى أنه بعد مضي عام أصبح تعداده خمسة وعشرين ألف مجاهد، وفي العام الذي يليه بلغ سبعة آلاف وواحداً وسبعين، وعندما غادر الزاكي القلابات إلى الجنوب ترك بها ألفين وستمائة وستة وأربعين مجاهداً فقط.

وشهد الجيش بالقلابات تحولاً هامًا وهو أن أولاد العرب وبعض الجهادية أخذوا يتسربون إلى الجزيرة إما هروباً من المجاعة أو عزوفاً عن الجهاد وقنوطاً به، حتى أصبحت الجزيرة - على حد تعبير الزاكي - «محشوة من أنصار السرية»، واستمرت هذه الظاهرة حتى أصبحت جهات القضارف ودوكة خالية من أولاد العرب. وأدت تلك الهجرة إلى فقدان عنصر أولاد العرب من الجيش حتى صار «كله جهادية» وأصبح هذا التحول في تركيب الجيش مثار قلق للسلطة الحاكمة، إذ أن اختلاط الجيش من أولاد العرب والجهادية هو الاتجاه السائد، والهدف منه إحداث توازن داخل الوحدات المقاتلة. فالمهدية لم تكن تثق كثيراً في الجهادية لأنهم غير «مأمونين. .

بدون خليط من أولاد العرب»[1]. فوجود أولاد العرب مع الجهادية «فيه نوع من الاطمئنان» لأن الجهادية يتصفون بعدم «استقامة أحوالهم. . . ولو أمرهم مقدمهم بأن يفعلوا منكراً لفعلوه». بل إنهم إذا عين لهم أمير من أولاد العرب فإنهم لن يتمثلوا له من «خالص نيتهم».

وفي منتصف عام ١٨٩٣ الموافق في أواخر عام ١٣١٠ رأى الزاكي أن يجري تعديلاً في الجيش لأن الأرباع صار بعضها أغلبية من الجهادية والبعض الآخر أولاد عرب. وقد يبدو من ظاهر الأمر أن الزاكي يريد أن يجعل توازناً فحسب إلا أنه كان يهدف كذلك إلى تركيز الجهادية في ربع عبد الله إبراهيم وأولاد العرب في ربع أحمد علي فنقل إلى أحمد علي خمس عشرة راية من أولاد العرب من ربع عبد الله إبراهيم. وهذا يوضح أنه بالرغم من التشكك في الجهادية فهم ما زالوا القوة الضاربة في جيوش المهدية وهم الذين يرجحون أي كفة في أي صراع حول السلطة.

(د) حصن القلابات:

ولا شك أن من الأحداث الهامة التي عرفتها تلك المنطقة بناء حصن القلابات. ولعل ذلك الحصن من المظاهر المعمارية النادرة التي عرفتها المهدية. ففي فبراير عام ١٨٩٠ الموافق في جمادى الثانية عام ١٣٠٧ أمر الخليفة بتشييد سور من الحجارة حول القلابات حتى إذا خرج الجيش إلى الحرب تكون العائلات والمؤن في أمان. فاستشار الزاكي بعض الأنصار ممن لهم دراية بالبناء وعلى رأسهم إسماعيل حسن المهندس. وتم الاتفاق على بناء السور حول القلابات القديمة قبل أن تتسع بعد إقامة معسكر الجيش حولها. ويتكون السور من جزئين داخلي وآخر خارجي عرضه مائتان وأربعون متراً ونصف المتر وسمكه متر واحد. ووضع في السور الخارجي بندقيتان بين كل متر والثاني. وبني السور على ثلاث درجات بحيث يكون الجنود الذين في الدرجة السفلى جلوساً وفي الدرجة الوسطى على ركبيهما وفي الدرجة العليا وقوفاً. وبذا يصبح في كل صف أربعمائة وثمانون بندقية فإذا أضفنا العدد من

---

(١) الزاكي طمل إلى الخليفة، في ٢ شعبان عام ١٣٠٨، مهدية، ٢٤٣/٣/٤/١.

الصفوف الثلاثة ثم الجهات الأربعة لأصبح ذلك السور في هيئة حصن. وأقيمت كل بندقية على «مزغل» حتى بدا ذلك السور كأنه شبكة من أسلحة. وأقيم مكان للاستكشاف فوق بوابة الاستحكام. وشيدت أربع طوابي على أركانه. ووصف إسماعيل المهندس ذلك البناء بأنه قوي الصنع «ولا يكون له سبوق مثيل على صنعته... وعندما يصير قذف نيران السلاح (منه)... فإن شاء الله لا يمر أمامه أحد من الأعداء... ولا يوجد به فسح حتى تصله الأعداء من شدة التحام نيرانه... وأن الأعداء إن كثروا أو قلوا لا يجدوا لهم حيلة لدخوله ولا التمكن من أدنى تأثير فيه»[1].

أما السور الداخلي فالغرض منه حماية العوائل ومخزون الجبخانة والسوق ومكان أمير الجيش. ونبه الخليفة المهندس لتوفير المياه اللازمة. وقد وضعت لها الضمانات الكافية فهي محيطة بالسور من كل الجهات «تحت مرمى الرصاص». كما تم حفر بئر داخل السور عمقها ثماني قامات. وفي منتصف عام ١٨٩٠ الموافق في آخر عام ١٣٠٧ تم بناء الأسوار كلها وغادر إسماعيل المهندس القلابات[2]. ولا شك أن ذلك السور كان عملاً هندسياً رائعاً بالنسبة لظروف البلاد في ذلك الحين. وهو من الآثار المعمارية القليلة التي خلفتها المهدية بسجلات كاملة. ويعتبر بناء ذلك السور نقطة تحول في السياسة الخارجية لدولة المهدية وفي علاقتها مع الحبشة إذ تحولت القلابات إلى نقطة للدفاع فقط.

٤ ـ سياسة المهدية مع الحبشة:

(أ) معركة القلابات الكبرى:

عندما توفي أبو عنجة ترك استعدادات الحرب مع الحبشة قائمة على قدم وساق حيث أكمل الأنصار تحصين مواقعهم. أما يوحنا فقد خرج بجيش ضخم قاصداً القلابات. وفي ذلك الجو الملبد بغيوم الحرب تولى الزاكي قيادة الجيش.

---

(١) إسماعيل حسن المهندس إلى الخليفة، في ٩ رمضان عام ١٣٠٧، مهدية، ٢/٢٠/٩/٣٥٨.
(٢) انظر خريطة السور ملحق رقم ٢.

ظـل الأنصار يتتبعـون تحركـات الجيش عن طريق جـواسيسهم أو عن طريق النقادية. فعلم الزاكي أن يوحنا خـرج بجيشه في مـطلع فبرايـر الموافق في أوائل جمادى الثانية إلى جهة دمبيا على نهر عطبرة وأنـه سيصل القـلابات إما في أواخر جمادى الثانية أو مطلع رجب. وفي دمبيا اجتمع مع قـواده وسار بجيشه إلى جهة تنكل وكان يدعو قومه للاجتماع به فانضم إليـه «ما لا يـدخل تحت حصر»(١). وأعلن يوحنا لجيشه أن هدفه هو الوصـول إلى أم درمان(٢). وفي أول مارس الموافق في ٢٨ جمـادى الثانية وصـل بجيشه إلى بحـر قندوة حيث كان الأنصار يشـاهدون نيـران معسكره. ومن هنـاك أرسل جيشـه أمامـه مسافة ثلاثة أيام حتى وصل نهـر عطبـرة. وفي ٦ مارس المـوافق في ٤ رجب حط رحله على منهل ماء على بعد ساعة من القلابات «بحيث تسمع أصـوات نقاقيره». وقسم يوحنا جيشه على ست محلات وفي كل جهة وضع عـدداً وافياً من الأسلحة والجنود فـوضع حملة الأسلحـة الناريـة في المقدمـة يليهم حملة السيوف والدروع ووضع الخيالة على الجانبين(٣).

أما خطة الزاكي فكانت البقاء خلف تحصينات القلابات وعـدم الخروج لمـلاقـاة الحبش لأن أغلبهم «ذووا حيـل وربمـا خـرجنـا نحن بـالكـلة ومن مكيدتهم أرسلوا الخيالة لحرق الديم». كما أن الـزاكي لم يكن على يقين من الجهـة التي سيهجم منها الحبش وعلم أخيـراً أنهم سيهجمـون من جهـة نهـر عـطبرة وأن هجـومهم سيكـون إمـا بـالثـلاثـاء أو الخميس كمـا هي «عـادتهم النحسية». لذلك خرج الزاكي بجيشه خارج القلابات وأقام حوله زريبة.

بـدأت المعركـة صباح السبت في ٨ مـارس عام ١٨٨٩ المـوافق في ٦ رجب عـام ١٣٠٦ بهجوم الحبش على القـلابات وأحـاطوا بـالأنصار من كـل

---

(١) أحمد علي إلى الخليفة، في ١٨ جمادى الثانية، مهدية، ١/٢٧/١٤/٤٤.

(٢) كان يوحنا حسب رواية الكردفاني ـ ينوي أن يجعل من القلابات مـركزاً يستـطيع منـه الوصـول إلى أم درمان وأن يجعل من القلابات كذلك مركزاً للتبشير المسيحي. راجع: الطراز، ص ٩٠.

(٣) الزاكي طمل إلى الخليفة، نهاية رجب عام ١٣٠٦، مهدية، ١/٤/١/٨٨.

يقسم سـلاطين جيش يوحنـا إلى قسمين على أسـاس قبلي... أمـا القسم الأول فيتكـون من قبيلة التقري ومن جيش منليك وهذا القسم برئاسة الولا وأما القسم الثاني فيتكون من الأمهرة بقيادة رأس برمبراس. سلاطين، ص ٤٣٩.

الجهات بخيول وأسلحة «في شيء لا يكاد يوصف» وجعلوا معسكرهم «كحلقة الخاتم» فسد غبارهم الأفق واختفت الشمس تماماً. ثم بدأ الحبش بالضرب من الأسلحة النارية من الجهات الأربع دون أن يرد عليهم الأنصار. وما أن «ملأوا أفواه السلاح» حتى ابتدرهم الأنصار بالضرب. وفي أثناء المعركة تمكن الحبش من اختراق صفوف الأنصار من جهة أحمد علي «لاتساعها وضعف الزريبة فيها وعدم الكفاية فيها من الأنصار». والتحم الجيشان وصار الضرب بكل أنواع الأسلحة وتمكن الحبش من إحراز نصر مبكر على الأنصار، بالرغم من المساعدة التي وجدوها من فرج الله رجب الذي أتى بنجدة من التومات.

وعندما تبين ليوحنا أن قبيلته الأمهرة أظهرت شجاعة فائقة في القتال وأنهم هم الذين اخترقوا صفوف الأنصار بينما قبيلة من التقري كانت ضعيفة الأداء، قام بنفسه ليتقدم الصفوف الأمامية ليستحث قومه على القتال. فتقدم يوحنا محمولاً على كرسي وحوله مجموعة من أتباعه. وعندما لاحظ الأنصار الملابس الامبراطورية الزاهية والحشد الملتف وجهوا نيرانهم إلى جهته، ولعلهم كانوا يجهلون أن ذلك هو الامبراطور. فاخترقت إحدى رصاصات الأنصار ذراع يوحنا ودخلت صدره وجرحته جرحاً مميتاً. وفي تلك الساعة أحس يوحنا بدنو أجله فاستدعى ابنه الرأس منقشا وأوصاه بالتراجع إلى بلاده. فحمل الجيش امبراطورهم على صندوق وانسحبوا من المعركة بعد خمس ساعات من القتال. لقد أحدثت تلك الرصاصة أثراً بالغاً في تغيير مجرى الحرب، فبعد أن كان الحبش على مقربة من النصر أخذوا يتراجعون يلعقون جرحهم الامبراطوري القاتل.

فجمع الأنصار أشتاتهم وخرجوا في اليوم الثاني يقتفون أثر الحبش. فوجدوا في الطريق جثثهم تملأ الوديان وخيولهم ومواشيهم تهيم بلا هدى. لقد انفرط النظام في جيش الحبش من عملية الانسحاب غير المنظمة فاستغل الأنصار تلك الفوضى إلى أبعد مدى. ففي ١١ مارس الموافق في ٩ رجب لحق الزاكي بفلول الجيش على نهر عطبرة فهاجم زريبتهم ودارت معركة ثانية استمرت لست ساعات استطاع فيها الأنصار أن يحققوا نصراً كبيراً وأن

يخلصوا من الحبش «كافة من أسروه من المسلمين وملكنا زيادة على ذلك ما بيدهم من العوائل والأولاد». ثم قام الزاكي بقطع رأس يوحنا وعدد من قواده وهم رأس الولا، ورأس دجاج، وهيلا مريم وبرامبراس، وأرسلهم إلى الخليفة حيث علقت في سوق أم درمان(١).

وكان دور عبد الله إبراهيم وحمدين حبيب الله وعبد الرسول عمر ـ حسب رواية الزاكي ـ هو الدور الرئيسي في المعركة، خصوصاً عبد الله إبراهيم «لأنه كان في أشد الحرابة» ولذلك كان أكثر الشهداء من ربعه. ولذلك طلب الزاكي من الخليفة أن يسمح له بتعيين عبد الله وكيلاً عمومياً للمركز لينوب عنه أثناء غيابه. وكان الزاكي يرمي من وراء ذلك الإطراء إظهار أحمد علي بمظهر الضعيف، لإبعاده كلية من الوكالة على المركز.

وحدثت أثناء المعركة بعض الظواهر السلبية التي كان لها بعض الأثر في ترجيح كفة الحبش في بداية الحرب. أولها موقف التكارير في القلابات. والتكارير في رأي الزاكي غير مخلصين في إيمانهم للمهدية «وإنما هم مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء لا يميزون بالإسلام إلا من حيث النطق بالشهادتين». ويعتقد الزاكي أنهم قاموا بحرق معسكر الأنصار أثناء المعركة مما خلق جواً من الهلع وساعد الحبش على اختراق صفوف الأنصار، بل إن التكارير هم الذين ساعدوهم على دخول معسكر الأنصار من جهة أحمد علي وهم الذين كانوا يمدون الحبش بأخبار جيوش المهدية. فما مدى صحة هذه الرواية وما هي دلالتها؟ في هذه الرواية جانب كبير من الصحة لأن تاريخ

(١) جاء وصف معركة القلابات هذه في عدد من المصادر وهي:
(أ) مهدية، ١/٤/١/١٣.
(ب) مهدية، ١/٤/١٧٧١.
(ج) مهدية، ١/٤/١/٨٨.
ولعل تكرار هذه المراجع راجع إلى أن الخليفة طبع خطاب الزاكي الأصلي في مطبعة الحجر ووزعه على مختلف الجهات.
(د) الطراز، ص ١٠٦ ـ ١٢٣.
(هـ) شقير، ص ١٠٧٧ ـ ١٠٨٣.
وسلاطين، ص ٤٣٩.

التكـارير في القـلابات كـان دائماً يعكس رفضهم للنـظام الجديـد وارتبـاطهم بـالحبش وذلك على أمـل إعادة مصـالحهم التجاريـة التي ضعفت أو تـوقفت تماماً بعد نشوب الثورة المهديـة. وبالـرغم من أن التكاريـر مسلمون إلا أنهم آثروا الوقوف بجانب الحبش مغلبين بذلك ارتباطاتهم التجارية على كل اعتبار آخر ولعل التكـارير كـانوا على يقين من انتصـار الحبش في معركـة القلابـات لكبر الجيش الذي قادوه إلى هناك. وتعكس هذه الرواية كذلك بعض جوانب الضعف التي اكتنفت روح المهدية في تلك المنطقة. وليس أدل على ظـاهرة الضعف هـذه من تكـرار هـروب الجهـاديـة أثنـاء المعـركـة. فقـد قـام بعض الجهادية من ربعي أحمـد علي وعبد الله إبـراهيم بالهـروب مما كـان له آثـار عكسية على الجنود.

وبعد انتهاء المعركة قام الزاكي بحصر الشهداء والجرحى وجمع الغنائم فبلغ عـدد الشهداء ألفين وسبعمـائة وستين والجـرحى ألفاً وتسعمـائـة وأربعـة وسبعين ولعل هذه الأرقام غير دقيقة لأنه من المألوف أن يكـون عدد الجـرحى في المعارك أكثر من القتلى. ويبدو أن العدد أكثر من ذلك ولكن الـزاكي رأى أن يخفض الأرقـام الحقيقية حتى لا يبـدو النصر الـذي حققه بـأنه كـان نصراً غالياً. والشيء المؤكد من مجرى المعركة أن خسـائر الأنصـار كانت بـالغة إلا أن خسـائر الحبش كـانت أكثر منهم خصـوصاً بعـد المعركـة الثانيـة على نهر عطبرة.

أما الغنائم فأمرها كان مخيباً للآمـال إما لأن الحبش لم يحضـروا معهم من ممتلكـاتهم ما يستحق الـذكر أو لأن الـزاكي طمع في الاحتفـاظ بـأغلبهـا لنفسه. ولعل هذه الحادثة كانت بـداية لتسـرب الشك إلى نفس الخليفـة نحو نوايا الزاكي. فقد كتب الزاكي للخليفة بـأن الحبش لم يكن معهم من الغنائم ما يستحق إرسال الخمس منـه خصوصـاً الرقيق والخيـل لأنهم أحضروا معهم «رقيق الخـدمة فقط وجميعـه مستقبح لا يستحق إرسـاله لصـوب السيادة» أمـا رقيقهم الجيـد فقد تـركوه بجهـات دمبيا. وقـد طلب عبـد الله وركني، شيـخ دمبيا، إرسال نجدة إليه ليسلمها ما لديه من غنائم الحبش قبل أن يستـأثر بهـا رأس عـدار. فأرسـل له الـزاكي عشـرة آلاف من الجهـاديـة. ويبـدو أن تلك

الحملة قد عادت ببعض الفوائد فأرسل الزاكي الخمس من البغال إلى الخليفة وباع باقي الغنيمة التي لا تستحق الإرسال واحتفظ بثمنها لدى أمين بيت المال. على أن ما أورده الزاكي من شح في الغنيمة لا يتفق مع ما أورده الكردفاني من وفرتها حتى بلغ سعر الجارية بالقلابات ثلاثة ريالات والجميلة عشرة ريالات والحمار بقرشين، ولا يتفق حتى مع الروايات السماعية من أن أم درمان امتلأت بنساء الحبش وغنيمتهم.

وكان من انتصار الزاكي في القلابات أن عمت الحبشة سنوات من الفوضى والاضطراب لم يفت على الأنصار إدراكها[1]. فقد وصف الزاكي الحبش بأنهم في «أشد الهرج والمرج والزلزلة والهول ولقد صاروا يقتلون بعضهم بعضاً» واستنتج أن «جميع الدار بعد هذا تؤمن بالمهدية». ولذلك اقترح على الخليفة أن يكتب إلى بعض قادة الحبشة مثل رأس عدار ومنليك وغيرهما «لأنهم إذا أكرموا بمذاكره من لدن جنابكم يحضروا بالطاعة مهرولين لا سيما أن تلوح لهما بأن لهم الملك في الجهة على حكم المهدية»[2]. فاستجاب الخليفة لطلب الزاكي فكتب إلى منليك ورأس عدار وبعض قواد الحبشة الآخرين. وجاء في مخاطبته لمنليك إشارة إلى مكاتباته السابقة له ثم ذكره بالمصير الذي لقي يوحنا ومن معه. على أن الخليفة صفح عن منليك

---

(١) يرى هولت أن انتصار الزاكي على الحبشة كان له آثار وخيمة لا على الحبشة وحدها بل وعلى دولة المهدية كذلك. فبعد أن قتل الامبراطور يوحنا انزاحت قبضته القوية عن الحكم ودخلت الحبشة في فترة صراع داخلي عنيف مكن إيطاليا من احتلال ارتريا عام ١٨٩٠ وبذا أصبحت دولة المهدية تواجه دولة أوروبية حديثة بدلاً عن دولة الحبشة. ويذهب ثيوبولد إلى رأي قريب من هذا. راجع: هولت، ص ١٥٥.

ولعل الكاتبين قد حملا معركة القلابات أبعاداً أكبر مما هي عليه. فتطور الأحداث في الحبشة وفي السودان في هذه الفترة كان يخضع في المكان الأول للتنافس الاستعماري الذي شهدته القارة الافريقية في السنوات الأخيرة من القرن الماضي أكثر مما يخضع للأحداث الطارئة مثل معركة القلابات. على أن معركة القلابات لم تكن بدون نتائج ولكن نتائجها لم تكن بذلك العمق. وقد تعرض س.و. سميرنوف في كتابه «عصيان المهدي في السودان» للدور الذي لعبه الاستعمار في هذه المنطقة.

(٢) الزاكي طمل إلى الخليفة، في ١٥ رجب عام ١٣٠٦، مهدية ١/٤/١/٢٦.

وما بدر منه في الماضي وطلب إليه الدخول في «ملة الإسلام والانتظام في سلك اتباع المهدي عليه السلام والإذعان لحكمنا»[1].

ويبدو أن الخليفة والزاكي وبقية قواد المهدية قد بالغوا في أهمية انتصارهم الحربي على يوحنا لأنهم كانوا يجهلون حقيقة الصراعات الداخلية التي كان يدور رحاها داخل الحبشة، وطموع قواد الحبشة البارزين في الاستيلاء على السلطة بعد مقتل الامبراطور. ولذلك فإن مصير تلك الخطابات لم يختلف عن مصير الخطابات السابقة التي بعثها المهدي والخليفة. إنها لم تفعل أكثر من تأكيد اتجاهات المهدية الحازمة في الولاء لها. لذلك فانتصار الخليفة على الحبشة لم يخضع تلك الامبراطورية ولكنه أنهى الصراع الدموي الحاد الذي تحول بعد ذلك إلى غزوات على الحدود بين البلدين. فتلك الخطابات إذاً لم تثمر عن أية نتائج بل كانت استمراراً للصراع بين الدولتين الافريقيتين.

ولكن على الرغم من استمرار الصراع فإن دولة المهدية لم تتابع انتصارها على الحبش بالتوغل داخل أراضيهم ولم تغتنم الفوضى التي اجتاحتها. إن سياسة الخليفة فيما يختص بالتوسع داخل الحبشة كانت محدودة وتتلخص في أن الحبشة بلاد واسعة، وغزوها بالغ الصعوبة ولذلك رأى أن يكون اهتمام الزاكي منصباً في «إظهار سطوة المهدية» «وبانتهاز الفرصة» من الحبش ومباغتتهم في حالة غفلتهم، وأن تكون تلك المباغتة في الأماكن القريبة مثل دمبيا وأكد عليه ألا يتوجه في قلة ولا في ضعف لأن «قهر الأعداء مطلوب»[2]. فإذا أضفنا إلى هذا الاتجاه إدراك الخليفة لأحوال الحبشة الجغرافية خصوصاً مرتفعاتها الداخلية لاتضح لنا أنه لم يكن يفكر في غزو الحبشة والاستيلاء عليها، بل كان يسعى في الحصول على موافقة منليك

---

(١) الزاكي طمل إلى الخليفة، ١٣٠٦ (بقية التاريخ غير مذكور)، مهدية، ٢٨٢/٦/٣١/٢.
الأرجح أن يكون هذا الخطاب قد كتب في أواخر رجب أو أوائل شعبان لأن هناك خطابات كتبت في هذه الفترة تشابهه في معناها العام.

(٢) الزاكي طمل إلى الخليفة، في ١٨ شعبان عام ١٣٠٦، مهدية، ٤٣/٢/٤/١ ـ ١.

أو أي قائد آخر من قواد الحبشة للتبعية للمهدية ثم يوليه على أرضه أميراً من قبله، وهذا يتمشى مع سياسة المهدي والخليفة في إشعال الثورة في المناطق المختلفة، وربما كان الخليفة كالمهدي ينظر شمالاً نحو مصر ولعله كان في تلك الأثناء ينتظر مصير حملة النجومي التي بدأ التفكير في إرسالها شمالاً في يناير وخرجت في يوليو من نفس العام. إذاً فالفترة التي أعقبت انتصار الزاكي شهدت سيادة هذه الاتجاهات في السياسة الخارجية، وشهدت عدداً من الحملات الخاطفة على المناطق القريبة.

بعد واقعة القلابات أحس الزاكي بالاطمئنان من جهة الحبش «وما في هذه لجهتهم من حساب»، فرأى أن يقوم بحملات على الجبال المجاورة بغرض «إزالة ضرر الأنصار» إذ أن تلك الجبال بها «معاش وأصناف المواشي». وهكذا تحول الجهاد إلى حملات خاطفة بغرض توفير الغذاء وربما كان الهدف أيضاً إخضاع المناطق المجاورة تماماً وهي في حالة فوضى من جراء المعركة الأخيرة. وكانت أول تلك الحملات بقيادة عمر محمد الشيخ، وإبراهيم الدفيعة إلى جبل غورة. وتمكنت تلك الحملة من ضرب الحبش واتباعهم من فلول الحمدة والتكارير وتوغلت داخل الأراضي الحبشية وعادت بغنائم وافرة من رقيق وأبقار وحبوب.

وكانت الحملة الثانية بقيادة فرج الله رجب ويصحبه أربعة آلاف مجاهد إلى جهات أوسا «والجانتولة» وديم «حكومة» وجبل ورغي بل وصلت حتى غبتة وعادت إلى القلابات يصحبها سبعمائة وسبعة وخمسون من الجبرتة الذين آمنوا بالمهدية وبمعيتهم ألف وثلاثمائة وخمسة عشر من عوائلهم.

وأرسل الزاكي الحملة الثالثة بقيادة عبد الله إبراهيم وحمدين حبيب الله على رأس أربعة آلاف ومائتين من المقاتلين إلى جهات غبتة للمرة الثانية وذلك لأن أغلب سكانها من الجبرتة «المسلمين وداخلين تحت الطاعة». وكان من أهداف تلك الحملة أيضاً القضاء على عجيل الحمراني إذ هو محاصر في تلك المنطقة بمياه الأمطار وامتلاء الأودية. وكذلك من أهدافها اغتنام الفرصة في الحبش وهم في حالة من «الزلزلة... والغفلة». ويمكنها

كذلك أن تساعد على فك الضائقة المعيشية في القلابات إذ بلغ أردب الذرة ستين ريالاً. وجهة غبتة هذه «بها أغلب مدار معاش أعداء الله الحبشة لكثرة العيوش فيها». وسارت تلك الحملة حتى جهة «والية» بالقرب من قندر حيث مكثت حتى أكتوبر عام ١٨٨٩ الموافق في صفر عام ١٣٠٧. وآخر تلك الحملات كانت إلى «الجبال الصعيدية» بقيادة عبد الرسول عمر. وهكذا وزع الزاكي أغلب جيشه بين عبد الله إبراهيم وعبد الرسول عمر وبقي هو بالقلابات مع عدد قليل وحل بذلك أزمة القوت التي كانت تعاني منها القلابات حلاً مؤقتاً.

ورأى الزاكي أن يقوم في تلك الأثناء وحتى يستطيع أن يجمع شتات جيشه لحرب جديدة ـ أن يقوم بمخاطبة الحبش «بما يلزم من التهديد والوعيد» بغرض تهديدهم عله يحدث أثراً في نفوسهم فهذا أجدى من بقائه في القلابات و«قطع مخابراتنا عنهم». ويبدو أن تهديدات الزاكي قد أحدثت بعض الأثر إذ بعث رأس عدار يطلب نجدة من الزاكي ووعده بأن يقوم «بلوازم الأنصار من المعاش» وذلك لما لحقه من ضيم شديد اثر تفرق أغلب قواده من حوله وانضمامهم إلى منليك. وأكد للزاكي بأنه أصبح بمعزل عن الحبش ولذلك يريد أن يستعين بالأنصار وإلا سيحصن نفسه بإحدى الجبال. وذكر رأس عدار كذلك أن منليك في بلاده شوا وأنه «مدعي النقسية» وأنه يتحين قدوم الأنصار إليه ليقضي عليهم. ولكن الزاكي لم يأخذ كل ما جاء به رأس عدار فالحبش في رأيه «لا أمان منهم»، ويعتقد أن عدار مع منليك وما قاله ليس إلا خدعة إذ ما زال يحمل ضغينة للأنصار منذ انتصارهم عليه على عهد حمدان[1].

وعندما حل خريف عام ١٨٩٠ الموافق في ١٣٠٧ انقطعت أخبار الحبش إلا النذر اليسير الذي كان يتسرب عن طريق النقادية. ومن تلك الأخبار علم الزاكي بالصراع بين قبيلتي التقري والأمهرة وكيف استطاع منليك أن يعقد اتفاقاً مع التقري ثم قام بإخضاع الأمهرة والقضاء على أحد زعمائهم

---

(١) الزاكي طمل إلى الخليفة، في ٨ رجب عام ١٣٠٧، مهدية، ١٣٧/٢/٤/١.

ويدعى نقاش. وكان نقاش هذا قد جمع حوله عدداً من الأمهرة وأعلن ولاءه للمهدية. وعلم الزاكي كذلك أن منليك صارت له «اليد على الجميع» وأنه استطاع إخضاع الحبشة لنفوذه. ولذلك يرى الزاكي ضرورة القضاء على أي جيش يرسله منليك إلى جهات القلابات لأنه «لو حصل ذلك ولو صار ردعهم فيكون مؤدي لغرورهم»[1]. ويؤكد الزاكي ضرورة الحرب ضد منليك لأن الحبش أهل مكر وخداع «وبعيد منهم الدخول في الإسلام» ما لم يروا شديد عذاب يحل بعدو الله منليك. أما الخليفة فلم يوافق الزاكي تماماً ويرى تمشياً مع سياسته السابقة عدم الحرب مع منليك ما لم تتوفر «الكفاية لضرب الأعداء». ولعل الخليفة قد اكتفى بانتصاره الأخير على الحبش ولا يريد أن يقحم جيشه في حرب جديدة مجهولة المصير في مرتفعات الحبشة الغريبة عليهم.

وأخذ حماس الزاكي للحرب يفتر بعد ذلك وزاد من فتوره انشغال الحبش بالصراع مع الإيطاليين وتحولهم عن جهته. وعندما جاء الخريف علم الزاكي من أحد الجبرتة أن الحبش ليسوا راغبين في حرب الأنصار إلا بعد انقضاء موسم الأمطار. وما أن انتصف عام ١٨٩٠ الموافق في مطلع عام ١٣٠٨ حتى كان الزاكي قد استنفد طاقاته الحربية في المنطقة واستنزف إمكانيات المناطق القريبة منه ولذلك رحل من القلابات إلى «الصعيد» فأعالي النيل. وخلفه أحمد علي وكيلاً على المركز.

(ب) أحمد علي في القلابات:

لم تختلف سياسة أحمد علي عن الزاكي في فترة العامين الذين تولى فيهما قيادة المنطقة. فاستمر في إرسال بعض الحملات الصغيرة إلى المناطق المجاورة وظل يترقب أخبار الجيش وتحركاتهم. ولعل الحروبات المستمرة التي خاضتها الحبشة داخلياً وخارجياً أدت إلى تدهور الحالة الاقتصادية إلى درجة أن «نزل القحط بساحتهم وأهلك ضعفاءهم وأغلبهم ماتوا جوعاً وقد حضروا (إلى القلابات)... هاربين من الجوع». وعندما حل خريف عام

(١) الزاكي طمل إلى الخليفة، في ٤ شوال عام ١٣٠٧، مهدية، ١٥٤/٢/٤/١.

١٨٩١ الموافق في نهاية عام ١٣٠٨ تقلصت المناوشات الحربية بين البلدين. ولكن الأنصار ظلوا يعانون من نقص في الملبس فقرر أحمد علي «ضرب البازة والحبشة بجهة غبتة لأجل كسوة الأصحاب أغلبهم الآن متسترين بالشمال والجلود. . . وجهتنا هذه بردها شديد». فكون حملة من ستمائة وخمسين جهادياً بقيادة عبد الله حامد أبو فلج مكثت نصف شهر بالحبشة هاجمت فيه تسع قرى وعادت ببعض الغنائم منها خمسة وسبعون أسيراً وثمانمائة وتسعة وعشرين ريالاً.

وفي فبراير عام ١٨٩٢ الموافق في رجب عام ١٣٠٩ علم أحمد علي أن برمبراس بيتو وهو «من رؤساء الحبشة المعروفين وهو الريس بلا مشارك الحدود. . . لغاية قندر وأم بجارة»، قد نزل بجيشه من حصنه الذي يتحصن فيه على جبل شاهق وكان نزوله بغرض جمع الذرة. فرأى أحمد علي أن يقوم بمهاجمته دون أن ينتظر موافقة الخليفة خوفاً من أن يعود برمبراس إلى حصنه قبل وصول تلك الموافقة. فقام أحمد علي على رأس حملة قوامها ألف وستمائة وواحد وعشرون من الجهادية ولكنه وجد أن برمبراس قد عاد إلى حصنه قبل ثلاثة أيام. فما كان من أحمد علي إلا أن قام بقتل وأسر «جميع من وجدناه بداره وأحرقنا مساكنهم وعيوشهم. . . ولقد أحرقنا كنائسهم المشهورة وعددها سبعة». فتقدم برمبراس طالباً الصلح والأمان، إلا أن أحمد علي يرى أنه «ما دام على هذا الدين فلا أمان له». وعادت الحملة إلى القلابات بالغنائم فبلغ الخمس أربعمائة واثنين وسبعين ريالاً كما أُرسلت اثنتا عشرة جارية صغيرة إلى الخليفة.

وفي أبريل الموافق في مطلع رمضان علم أحمد علي أن جيشاً من التقري بقيادة رأس حقوص، ودجاج برهي، ودجاج تفري، ودجاج دستة، قد قدم إلى «ولغاية» وقتل زعيمها. فرأى أن يقوم إليهم دون أن ينتظر إذناً من الخليفة، فسار على رأس ألف وثلاثمائة وخمسين مجاهداً. وقضى يومه الأول يتجول فيَ الأراضي الحبشية في قتل وأسر ونهب. وعندما علم أحمد علي بتجمع الجيش سار إليهم ودارت معركة بين الفريقين. وعند بداية المعركة اكتشف الأنصار أن الجبخانة التي معهم تالفة إذ من مجموع دستتين صرفت

لكل جهادي وجدت خمس رصاصات فقط صالحة. فتحولت المعركة إلى ضرب بالأيادي والأسلحة البيضاء تمكن بعدها الأنصار من هزيمة الحبش وقتل ثلاثة من قادتهم أرسلت رؤوسهم إلى الخليفة. وبلغت خسائر الأنصار ثمانية وأربعين جريحاً وثلاثة وعشرين قتيلاً. وبلغت خمس الغنائم خمسمائة ريال. ولعل تلك الحملات الأخيرة قد أحدثت بعض الاثر في المنطقة إذ أخذت بعض مجموعات من التكارير تفد إلى القلابات والتومات.

ويبدو من تتبع تلك الحملات أنها كسابقاتها كانت بلا هدف محدد سوى الحصول على القوت والملبس. فلم تكن حملات منظمة بغرض احتلال الحبشة أو جزء منها. والانتصارات التي حققها الأنصار كانت ترجع إلى الضعف الذي طرأ على الحبشة ولأن تلك الحملات كانت تعتمد على عنصر المباغتة لذلك كانت تتم قبل الحصول على إذن من الخليفة. وهذه من الظواهر النادرة في المهدية لأن موافقة الخليفة كانت ضرورية لكل الأمور، ولكن لصلة أحمد علي به ولمكانته فقد سمح لنفسه بتلك الدرجة من حرية التصرف. ولعل تلك المبالغات التي وصف بها أحمد علي انتصاراته كان الغرض منها أن يبدو في مكانة مثل الزاكي طمل. وقد انتقد الخليفة طريقة أحمد علي في تسجيل انتصاراته الحربية قائلاً: «إن مثل غزوتكم هذه الذي حصل الظفر فيها. . . لا تدخلوا فيه (الرسالة) أمر الخمس. . . بل يكن بالنصرة فقط ودمار العدو لأجل يتلى على الأصحاب بالمسجد».

(ج) عودة الزاكي طمل إلى القضارف ـ القلابات:

وفي مطلع عام ١٨٩٣ الموافق في رجب عام ١٣١٠ عاد الزاكي إلى القلابات. وشهدت الأشهر الباقية من عهد الزاكي تقلص النشاط الحربي وتزايد رغبة الحبش في إحلال السلم. ولم تكن تلك الرغبة من جانب الحبش إلا لضعفهم الداخلي وتهديد الإيطاليين لهم. فعند وصول الزاكي وجد مندوباً من عظيم شلقا «مريد الصلح. . . والأمان لدارهم. . وفتح الطريق للنقادية». كما وجد رسالة من الرأس شاشا، وحسب تقدير الزاكي فإنها كتبت بإيعاز من منليك. وتعبر الرسالة عن رغبة في الأمان والاتفاق.

وعلم الزاكي أن بعض قادة الحبش راغب حتى في دفع الجزية للأنصار. فبعث الزاكي برسالة إلى منليك يوافق فيها على عقد الصلح بشرط دفع «القبرا»[1]. ويمضي عهد الزاكي دون أن تثمر تلك المحاولات عن شيء محدد.

ونلاحظ أن دولة المهدية في هذه الفترة أصبحت متحفظة في حروباتها ضد الحبشة ولعل خطاب الخليفة إلى الزاكي في مارس عام ١٨٩٣ الموافق في رمضان عام ١٣١٠ يوضح هذا الاتجاه. يقول الخليفة في وصيته: «إن تلك الجهة... هي عطش فانظر أمرها... وينبغي أن تستفهم عمن تثق به عن المنازل منزل منزل والمياه منهل منهل وتوضح لنا ذلك إيضاحاً كافياً وأن المياه المذكورة هل هي سرف أو آبار». ونستطيع أن نقول إن نهاية فترة الزاكي شهدت نهاية الحروبات ضد الحبشة حتى أن مركز الجيش نقل من القلابات إلى القضارف. وقد لخص الزاكي تلك النهاية في قوله: «إن الحبش المجاورين بالقرب أذعنوا للصلح وأوردوا القبرا وما دام أن راحة الأنصار بالقضارف ونحن بالقرب منهم فما عليهم إلا إعطاءنا الحوادث أول بأول وحتى ما رأينا أهمية تقويتها (القلابات) فإنا بالقرب». فانتقل الزاكي إلى القضارف وترك بالقلابات حامية من خمسمائة جهادي.

ولعل من أبرز معالم العلاقة بين دولة المهدية والحبشة تلك العلاقة التجارية التي كانت تتم عن طريق النقادية. وبالرغم من أن الفترة الأولى من عهد الزاكي قد شهدت ركوداً في الحركة التجارية بل توقفاً تاماً قبيل معركة القلابات وبعدها، إلا أن الأشهر التالية شهدت انتعاشاً في الحركة التجارية. ففي منتصف عام ١٨٨٩ الموافق في نهاية عام ١٣٠٦ تسلم الزاكي رسالة من أحد قادة الحبشة لعلها تحديداً لسياسة الحبشة التجارية مع الأنصار. يقول الرأس زاودة في رسالته: «أنتم القلابات ونحن الحبشة وقصدنا أن نبقى حالة واحدة... أما عن المساكين التجار المسافرين بين بلدنا وبلدكم أعطوهم الأمان فهم مساكين والمولى سبحانه وتعالى أمر بالبيع والشراء وهم يعمروا

(١) الزاكي إلى الخليفة، في ٢ رجب عام ١٣١٠، مهدية، ١/٤/٤١٦.

الأسواق»[1]. وطلب بعض زعماء المكادة من الزاكي أن يعطيهم الأمان لأنهم «خائفين من المجيء هنا زعماً منهم بأنا نرسلهم صوب السيادة بالبقعة» ويبدو أن التجار الحبش قد أحسوا ببعض الاطمئنان إذ أخذوا يتوافدون على القلابات «بما لديهم من الحبوب. . . ولقد حصل بسبب ذلك التنفيس على الأصحاب. . . ولما وجدوا (النقادية) عدم من يعارضهم في بيعهم فمأمول حضورهم بعد ذلك بما ينتفع به».

وحدد الزاكي أسعار السلع حتى لا يطمع النقادية في الأنصار. «فجراب» الذرة الذي به كيلتان ثمنه ريالان وقربة العسل الكبيرة سعة نصف قنطار بثلاثة ريالات والصغيرة بريالين والغنمة بريالين أو ثلاثة. وحتى هذه الأسعار فإنها تنخفض عند نهاية السوق.

ولكن ذلك الانتعاش لم يستمر إذ شهدت الأشهر التالية حضور النقادية بأعداد أقل. وانزعج الخليفة لتلك الظاهرة ورأى أنها قد تؤثر على الحالة الاقتصادية في المنطقة. وألقى باللائمة على الزاكي وانتقد سياسته قائلاً: «إن النقادية أناس أعجام فإن كنتم وليتم أمرهم لأناس مدربين أهل ميز من أولاد العرب لأجل أن يباشروا أخذ العشور منهم ولا يتعدوا عليهم في حقوقهم فما كانوا ينقطعون ولكن بالنظر لعدم تولية إنسان مميز لهم حصل مد اليد عليهم وانقطعوا». ويوصي الخليفة باستخدام أشخاص من أولاد العرب «أهل دين وميز وعقل وعفة» ليتحصلوا عشور النقادية حتى يستأنفوا نشاطهم التجاري ويساعدوا بذلك في إزالة «المضايقة الحاصلة من الغلا»[2]. كان هذا هو تعليل الخليفة لانخفاض عدد النقادية. ولكن الزاكي رفض ذلك التعليل ورد بأنه هو الذي يباشر أمرهم ولم يكله لأحد آخر، بل إنه يعمل دائماً على ترغيبهم في الإسلام بكسوة رؤسائهم ويبذل لهم العطاء والإشراف على

---

(١) رأس زاودة إلى الزاكي طمل، عام ١٨٨٩ الموافق في أواخر شوال عام ١٣٠٦، مهدية، ١٩٧/١٦/٣٤/١.

(٢) الخليفة إلى الزاكي طمل، بدون تاريخ، مهدية ٨٣/٤/٢٧/١.

وجدت أن تاريخ هذه الوثيقة وهو ٢٤ رمضان عام ١٣٠٧ وذلك من وثيقة أخرى هي: مهدية، ١٦٣/٢/٤/٢ في ٧ شوال عام ١٣٠٧.

راحتهم لبيع «أشغالهم. . . ومنع المعتدين عليهم وحفظ حقوقهم». فانقطاع النقادية لا يعود إلى سياسته في القلابات لأنها سياسة سليمة بل يعود إلى أسباب داخلية خاصة بأحوال الحبشة وحروباتها. ومن تلك الأسباب أنه طلب من النقادية أن يحضروا معهم كميات وافرة من الذرة، ولكن الحبشة نفسها كانت تعاني من نقص فيها ولذلك منعهم الحبش من الحصول عليها، ولم يستطع النقادية إحضار كميات وافرة منها وحتى ما كانوا يحضرونه فإنهم يأتون به «بالخفية». أما السلع الأخرى مثل البن والكسبرة والعسل فإنها موجودة ولكنها سلع لا تستهلك بكميات كبيرة ولذلك قل حضور النقادية إلى القلابات.

من هذا الحوار تتضح بعض معالم السياسة التجارية لدولة المهدية. فالمهدية ترغب في انتعاش التجارة وترى ضرورة تشجيع النقادية وتوفير الجو الصالح لهم لممارسة نشاطهم[1]. وكانت دولة المهدية ترغب كذلك في البضائع التي تشمل المواد الغذائية مثل الذرة. ويمكننا أن نخلص إلى القول بأن النشاط التجاري ظل مستمراً يقل حيناً وينتعش حيناً آخر غير متأثر بالعداء بين الدولتين.

٥ ـ الصراع بين الزاكي طمل وأحمد علي:

الصراع بين الزاكي وأحمد علي ليس كالصراعات السابقة التي شهدتها هذه المنطقة بين الأمراء والقواد الآخرين بل هو صراع حاد وعنيف، وصورة لاستبداد الحكام عندما ضعفت روح المهدية في نفوسهم، ومثال لتغول التعايشة على الحكم، ولذلك سنتعرض له من جذوره.

يرجع تاريخ هذا الصراع إلى وفاة حمدان وتعيين أحمد علي بدلاً عنه. في ذلك الوقت عمل الزاكي للحصول على القيادة ونجح في ذلك

(١) يرى هولت أن هناك عوامل أخرى لم تشجع التجار منها سلوك الأنصار مع التجار ومعاملتهم لهم ومنها انعدام العملة الصالحة إلخ. . ويرى كذلك أن الخليفة كان يشك في التجار ويعتبرهم جواسيس مرسلين من الأعداء ولذلك لم يكن يشجع التجارة مع مصر. وفي رأيي أن هذا الشك كان قاصراً على مصر أساساً ولم يشمل القلابات إلا في حدود ضيقة. راجع: هولت، ص ٢٣٧.

وأصبح أحمد علي قائداً لإحدى أرباع الجيش. ولا شك أن أحمد علي لم ينس تلك الحادثة ولعله ظل يتحين الفرص منذ ذلك الوقت للإيقاع بالزاكي. ولم يغب عن الزاكي ذلك الشعور فعمل من جانبه على إضعاف أحمد علي وإظهاره أمام الخليفة بمظهر القائد غير المقتدر كما أضعف ربعه بشكل فعال.

وعندما غادر الزاكي القلابات إلى أعلى النيل عين أحمد علي وكيلاً عنه بعد تردد ولمجرد إرضاء الخليفة الذي أبدى رغبة في ذلك التعيين. وما أن تسلم أحمد علي زمام السلطة حتى أخذ يمطر الخليفة بسيل من الانتقادات نحو سياسة الزاكي ومسلكه. منها أن الزاكي أمر بعض العمال وهما حامد الدخيري والله جابو الزاكي (عبد الزاكي طمل) بجمع غلال الزكاة وعدم إرسالها إلى القلابات بالرغم من احتياج الأنصار لها. كما أن الزاكي أخذ معه كل الأمراء والمقاديم وكافة البروجية «مع أن قوام حركة الجهادية هي البروجية». وأخذ معه كذلك مدفع المتريوز و «الطوبجية والتوفلجية والقندفلية» ولم يترك من الجهادية سوى ألف وستمائة بينما ادعى للخليفة بأنهم ألف وثمانمائة وأربعة وتسعون. كما أن الزاكي اجتمع قبل سفره بخاصته «وذاكرهم سراً» وقدم عليهم واحداً من أعوانه وأمرهم بعدم الانقياد إلى أحمد علي. دافع الزاكي عن نفسه بأن انتقد أحمد علي وذكر أن الأنصار «من طبيعتهم بالقلابات فإن لم يجدوا الريس حريصاً عليهم متفقداً لأحوالهم فيكون ذلك داعياً لنفرتهم... والمكرم أحمد علي يحتاج لزيادة الإرشاد وتقويته».

ظل الخليفة يرقب ذلك الصراع عن بعد أو في شكل نصائح عامة مؤكداً فيها قيادة الزاكي على المنطقة. ولكن عندما اشتكى أحمد علي من أن الزاكي أوكل جديد حمدان لجمع عشور النقادية وحفظها لديه تدخل الخليفة وأمر بتسليم العشور إلى أحمد علي ودافع الزاكي عن ذلك الإجراء بأن عشور النقادية من الأشياء الخاصة بالخليفة وأن حفظها يقع تحت مسؤوليته.

واختلف الزاكي مع أحمد علي حول تعيين العمال بالمراكز المختلفة. فالزاكي يرى أن تعينهم يجب أن يتم بمعرفته ويخشى أن يعزلهم أحمد علي. بينما يرى أحمد علي أن عزلهم أمر ضروري لأن أغلبهم متسلطون على

الأهالي لتسديد بعض الديون التي أخذها الزاكي من التجار. فنصر الخليفة أحمد علي ورأى أن يقوم بتعيين العمال ما دام هو المسؤول المباشر عن المنطقة. واشتكى أحمد علي من كثرة عائلة الزاكي التي بلغت مائة وأربعاً وستين زوجة وسبعة وعشرين طفلاً حتى أن ملبسهم كان يحتاج إلى أكثر من ألف ثوب.

واغتنم أحمد علي فرصة غياب الزاكي عن القلابات فعمل على تقوية نفوذه داخل الجيش. فأجرى تعديلاً في قيادة الأرباع بعزل كل من جديد حمدان، ومحمد نور كلاب، وعين مكانهما عبد الله حامد، ومحمد فرح، كما عين عدداً من مقاديم الجهادية من خاصته. ثم قام بتحويل أغلب الجهادية تحت قيادته المباشرة. وعزل حامد الدخيري عامل القضارف متهماً إياه بأخذ حقوق بيت المال. بل انتهى إلى اتهام الزاكي بأنه عمل على تشتيت الجيش حتى اضطر لإعادة جمعه فأصبح جيشاً قوياً.

وذهب أحمد علي إلى محاولة إثبات قيادته المطلقة للمنطقة بأن أنكر على الزاكي إصدار الأوامر له وتشكك في جهته التي ذهب إليها والصفة التي خرج بها. وطلب من أهل القضارف عدم الاستماع إلى أوامر الزاكي فليس له «أدنى سلطة على الرباط بل ولا على جهتكم (إذ). . . انفصلنا من المكرم الزاكي من مدة قيامه وإلى يومنا هذا. . . وإن أتاكم أمر من المكرم الزاكي. . . يطلب جرعة ماء أو إبرة من الدار لا تسلموا. . . شيء ولا تعملوا (بأمره)». ولكن الخليفة اعترض على إجراءات أحمد علي هذه وأكد أن الزاكي هو الرئيس على أحمد علي بإشارة منه.

وخشي الخليفة أن يقوم الزاكي بالتقليل من شأن أحمد وذلك بنقض الأحكام التي أصدرها مدة وكالته فطلب من الزاكي قبول كل الأحكام التي أصدرها أحمد علي إذ أن معه «قاضي شريعة» وأن الخليفة قد استشير فيها. ولكن الزاكي اعترض على تلك الأحكام لأنها تمت «بدون وجه جايز وبغير الشريعة مما أدى إلى كثرة الشكوى من أعيان البلد والأمراء والأنصار. وأورد بعض الأمثلة من تلك المظالم. فوافق الخليفة على إجراء تحقيق في تلك المظالم، وأدان التحقيق مسلك أحمد علي.

وبلغ ذلك الصراع قمته عندما قام الزاكي باستدعاء أحمد علي ووجه إليه عدة تهم أهمها أنه يتصل بالخليفة رأساً دون علم الزاكي. وكان مسلك أحمد علي يتصف بعدم المبالاة «وظهر منه ما كان كامناً بالضمير» وهو «مبني على الحقد». ورأى الزاكي في ذلك المسلك وفي مخالفات أحمد علي ما يؤدي «للفلتة» بالجيش فقام بوضع أحمد علي وأتباعه في السجن. وقد وصف أحمد علي الأسباب والظروف التي أدت إلى اعتقاله بأن الزاكي منذ عودته إلى القضارف وهو يسلط الأهالي لكي يدعو على أحمد علي أمام القضاء حتى كما يقول «صرنا آناء الليل وأطراف النهار نحن وجماعتنا أمام القضاة في الشريعة. «فأبلغ أحمد علي الأمر إلى الخليفة. فاستدعاه الزاكي على حين غفلة هو وأعوانه «وفي الحال أجرى ضبط منازلنا وأجرى تجريدهم مما جميعه حتى ثياب النساء». ولكن الخليفة سرعان ما أمر بإطلاق سراح أحمد علي حتى لا يشمت منهم الأعداء.

خرج أحمد علي من السجن ـ تسنده قرابته من الخليفة ـ وهو أكثر تصميماً لتحطيم الزاكي. فأخذ يتصل بالخليفة سراً يخبره أن الزاكي لا يعمل بأي أمر يأتيه من الخليفة بل بما يقتضيه رأيه وأن جميع تصرفات الزاكي ستؤدي إلى إحداث خلل في الجيش وذهب أحمد علي إلى إثارة الخليفة أكثر عندما ذكر له أن الزاكي قام باستدعاء «عيال التعايشة» لوقوفهم ضد الجهادية ومنعهم من الاستيلاء على الجبخانة وذلك عندما أشيع عن موت الزاكي. فقد أرسل الزاكي بعضاً من الجهادية ليلاً وقاموا بضبط وتكتيف عيال التعايشة «وأغلظ عليهم في القول... وصار... تجريدهم حتى من عممهم وأسلحتهم وحرابهم وما كان بطرفهم من الجبخانة وتركهم مجردين بهذه الصفة كأنهم نساء». وكان من جراء تلك الروايات أن استدعي أحمد علي إلى البقعة. ولعله وجد فرصة اختلى بها مع الخليفة وأوغر صدره ضد الزاكي.

وتذهب بعض الروايات إلى أن الخليفة قد وصلته معلومات عن ثراء الزاكي وبطشه ونزعته الاستقلالية فقد اشتكى بعض الأمراء في جيش الزاكي بعد عودتهم من أعالي النيل عن بطش الزاكي وطغيانه وأنه لن يتردد من إعلان

استقلاله عن الخليفة إذا وجد القوة الكافية. وكان من مظاهر ثراء الزاكي أنه إذا حضر إلى أم درمان يخرج في موكب عظيم يحيط به خمسون حارساً مسلحاً. وكان من جراء الصراعات المستمرة التي عاشها الزاكي خاصة مع التعايشة أن بدأ يفقد عطف الخليفة. ومما زاد من شكوك الخليفة أن الزاكي طلب عند عودته من أعالي النيل مزيداً من الأسلحة النارية. فرفض الخليفة طلبه وأنب الزاكي وذكر له أن لديه «بذلك البوغاز من صنف السلاح الرامنتون وغيره مقدار وافر لم يحصل في مركز آخر» وأن جميع القواد الآخرين بالبوغازات ليس لدى واحد منهم «ربع ما معك من الأسلحة».

وفي منتصف عام ١٨٩٣ الموافق في مطلع عام ١٣١١ استدعي الخليفة الزاكي إلى أم درمان بغرض «التمتع بالزيارة ومشاهدة الأنوار الساطعة»، كما طلب منه أن يحضر معه جميع رؤساء الأرباع مقاديم الجهادية بحجة خروج الحبش إلى محاربة الإيطاليين. فإذا علمنا أن الزاكي صحب معه في تلك الزيارة ثلاثة من أمراء الأرباع وثلاثة وعشرين من مقاديم الجهادية وثلاثين من أمراء الرايات وثلاثة وعشرين من المقاديم الصغار لأدركنا أن الزاكي قد ذهب فعلاً إلى أم درمان دون أن يعلم نوايا الخليفة وأنه بذلك أصبح هو وقواده تحت قبضة الخليفة وحرسه الخاص. فالخليفة لم يشأ أن يدخل في مغامرة باعتقال الزاكي في القضارف وهو بين قواده وجيشه. وكان أحمد علي قد ذهب سراً لمقابلة الخليفة لأن الزاكي رفض اصطحابه معه.

وفي أم درمان وضعت خطة محكمة لمباغتة الزاكي واعتقاله وقام بتنفيذها يعقوب والقاضي أحمد لكراهيتهما للزاكي إذ كان يحتقرهما. وتم اعتقاله في سبتمبر عام ١٨٩٣ الموافق في صفر عام ١٣١١ ووضع في السجن مكبلاً بالقيود. وشرح الخليفة أسباب اعتقال قائده الكبير بأن «به عارضاً شديداً وقيل إنه كان معه من سابق إلا أنه اشتد عليه في هذا الوقت وبأسباب ذلك أجرينا زجره وحبسه بالمشورة فإن طاب وشفي من ذلك العارض فبها وإلا فتصير معالجته منه إلى أن يقدر الله الشفاء أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً» ومكث الزاكي في السجن أربعة عشر يوماً منع خلالها من الأكل ومن الشرب ومات في ٢١ سبتمبر عام ١٨٩٣ الموافق في ١٠ ربيع

الأول عام ١٣١١. ووصف الخليفة بأنه «هلك في السجن على صفة فظيعة وحالة شنيعة وأنه بمجرد خروج روحه اشتعلت النار في جسمه واسود وجهه».

وفي الحال عين أحمد علي أميراً على القضارف فغادر أم درمان فوراً حتى يستطيع مباغتة أعوان الزاكي هناك. وفي القضارف حاصر منزل الزاكي حتى قبل نزوله من ظهر الزوامل. فصادر كل ممتلكاته وممتلكات أعوانه، كما صودرت في أم درمان خمسة آلاف ريال وكميات من خواتم الذهب والجواهر. واعتقل جديد حمدان وحامد طمل وأربعة آخرين من أعوان الزاكي وجلدت أخته حتى الموت. وطلب أحمد علي من كل شخص له ظلامة على الزاكي أن يقدمها للقضاء بل وقرر مراجعة كل أحكامه ولكنها كانت مهمة صعبة «والتبس» الأمر على القضاء.

لقد نجح أحمد علي في القضاء على الزاكي ونجح في الاستيلاء على السلطة، وبذلك انتهى فصل هام من صراعات المهدية فما هي أسباب ذلك الصراع وما هي أهميته؟ قد يبدو ذلك الصراع في مظهره تنافساً بين قائدين ولكنه في الواقع صراع بين تيارين: بين التيار الذي سماه البروفسور مكي شبيكة أولاد العرب وسماه هولت أوتقراطية التعايشة وسماه سمير نوف في كتابه عصيان المهدي «أرستقراطية البقارة» من جانب وبين القيادات الأخرى للدولة المهدية سواء إن كانوا قواداً مشهورين أو أشرافاً أو «أولاد البلد» فقد شهدت السنوات الأخيرة أو ربما النصف الثاني بأكمله من حكم الخليفة ميلاً من جانبه نحو أهله التعايشة لتوليهم المناصب الهامة في الدولة. وقد استغل التعايشة ذلك الاتجاه وأخذوا يطمحون في كل القيادات الهامة. وكان الاحتفاظ بالزاكي لمقدرته الحربية التي تفوق مقدرة أحمد علي وبغرض الاستفادة منه ضد الحبشة وفي أعالي النيل. وعندما فقدت الحروبات دورها الهام في الدولة أصبح وجود الزاكي غير مرغوب فيه.

ويعكس ذلك الصراع كذلك بعض الجوانب الإدارية لدولة المهدية. فالأقاليم الشاسعة والجيوش الضخمة المرابطة في البوغازات والثروات التي تكونت من الغنيمة كلها مظاهر تنم عن شبه استقلال. وبالرغم من تدخل

الخليفة المستمر لفرض سيطرة مركزية إلا أن الجنوح نحو نوع من الاستقلال كان غير مقبول لدى الخليفة. والطريقة الفظة التي قتل بها الزاكي كانت انتقاماً لأشياء تراكمت عبر سنوات وسنوات. والطريقة التي اعتقل بها الزاكي توضح قوته الإقليمية. فالزاكي لم يعتقل كما يعتقل أي شخص خارج على نفوذ الخليفة بل استدرج رويداً رويداً وجرد من مصادر قوته واتخذت احتياطات لذلك ثم قبض عليه. حقاً لقد كان ذلك الصراع من الفصول الهامة في تاريخ الدولة المهدية.

٦ ـ غزوة أحمد علي إلى أغردات:

عندما تولى أحمد علي زمام القيادة في القضارف وجد نفسه يرث حكماً تكلله انتصارات الزاكي الحربية التي ما زالت أصداؤها تتردد في سهول القضارف ومرتفعات القلابات ولذلك كانت فترة أحمد علي ـ على قصرها ـ محاولة دائبة من جانبه ليبني لنفسه مجداً حربياً يقترب به من الزاكي. وبما أن الحروبات على جبهة القلابات لم تعد ذات وزن فقد اتجه إلى جبهة كسلا التي كانت تواجه في ذلك الوقت خطر الزحف الإيطالي.

فما أن عاد من أم درمان حتى طلب الإذن من الخليفة بغزو جهات كسلا لنجدة مساعد قيدوم وللحصول على كساء الأنصار. ويعتقد أحمد علي أن الأوان مناسب للغزو «بالنظر لنشاف البحر ورطوبة الأرض واستوى القندول ووجود المياه بكثرة في الطرق» فوافق الخليفة بحذر شديد ولعله كان يدرك مقدرات أحمد علي الحربية. فحذره من مهاجمة أي جنود محصنين وألا يقترب من «بحر المالح بالنظر لعدم الثمرة»[1] وأن يكون متيقظاً لمكر الأعداء «ولربما أنهم يكمنوا لكم الكمائن». وطلب منه أن يستشير أهل الرأي «أما مثل ولد فرج الله وغيره من الخبراء فلا تدخلهم في المشورة بل اطلب منهم خبرة الطريق فقط». ويؤكد لأحمد علي أن الغرض من الغزوة ليس مهاجمة الإيطاليين بل تأديب القبائل الضاربة في الصحراء. ويوصيه بألا يركن إلى

(١) الخليفة إلى أحمد علي، ١٢ جمادى الثانية عام ١٣١١، مهدية، ٢٣٦/١٠/٢٧/١.

أولئك الرطانة، ويقصد الخليفة بتلك القبائل بعض الهدندوة والبني عامر. وخرج أحمد علي من كسلا يصحبه خمسة آلاف وثمانمائة وسبعة وأربعون جهادياً ومائتان وسبعون من الخيالة.

ولكن أحمد علي ـ جرياً وراء الشهرة الحربية ـ لم يتبع رأي الخليفة تماماً وتوغل بجيشه داخل ارتريا حتى وصل أغردات بطريقة غير منظمة. ويرى النور عنقرا السبب في ذلك هو خاطر حميدان الذي أفسد رأي أحمد علي. فكلما اتفق القواد على رأي يأتي حميدان ويغير رأي أحمد علي فعندما اتفق القواد على السير بطريق خور بركة لسهولته ووفرة مياهه تدخل حميدان وآثر على أحمد علي حتى سار بطريق الجبال المتعب. وعندما قرر القواد أن يعسكروا في منهل «كوفيت» لضرب «عربان الجبال» كان رأي حميدان المسير إلى «سقليب» حيث لا توجد مياه واضطر الجيش للمسير أثناء الليل بحثاً عن ماء. وهكذا وصل الجيش إلى أغردات «على حالة سيئة».

وكان حاكم اغردات الإيطالي «ارمندي» على علم بتحركات أحمد علي وبحالة جيشه المعنوية وهو يتجول بلا هدى في هضاب ارتريا. فأرسل بعض المنشورات وبثها في طريق الجيش مخاطباً فيها الجهادية قائلاً: «علم طرفنا أنه بدون اختياركم مجبورين من الدراويش المتعصبين عماليين غشوا ضد القبائل الذي تحتنا وقصدي الأمان والراحة للجميع قبل أن نقاتلكم ونعدمكم أوعدكم تتركوا أمراكم وتحضروا طرفنا بأسلحتكم بالشرف المستحق للعساكر الطيبين ويعط لكم الأمان والراحة»[1]. ولكن تلك التهديدات لم تؤثر على أحمد علي واستمر يستحث جيشه للمسير نحو أغردات. ولعله قد أغراه ضعف حامية أغردات إذ كان بها حوالي ألفي جندي فقط.

وفي نهاية ٢٢ ديسمبر الموافق في ١٣ جمادى الثانية دارت المعركة بين الطرفين وهزم في نهايتها الأنصار وفقدوا تسعمائة وواحداً وتسعين قتيلاً ونفس العدد مفقودين بالجبال. وقتل في تلك المعركة أحمد علي، وعبد الله

---

(١) ارمندي حاكم جيوش ملك إيطاليا إلى الجهادية السودانية، في ١٠ جمادى الثانية عام ١٣١١، مهدية، ٣/٦/٣٤/١.

إبـراهيم، وعبد الـرسول عمـر. وعادت فلول الجيش إلى كسـلا تجـرر أذيـال الهزيمة وانفتح الطريق أمام الإيطاليـين للزحف غرباً نحو كسلا.

وبهـذا انتهى أحد فصـول الدولـة المهـديـة وهي تعـاني ضعفـاً داخليـاً وتـواجه خـطراً خارجيـاً استعماريـاً. وبقي على أحمد فضيـل أن يشـرف على الفصل الأخير من تاريخ هذه الدولة.

الفصل الخامس

أحمد فضيل ونهاية دولة المهدية[1]

(١٨٩٤ - ١٨٩٩ = ١٣١١ - ١٣١٦)

شهدت السنوات الخمس التي قضاها أحمد فضيل في منطقة القضارف - القلابات أفول نجم المهدية وزوالها. لقد قضى أحمد فضيل معظم تلك السنوات متنقلاً بين كسلا والقضارف والقلابات ورفاعة والسبلوقة وأم درمان وأخيراً غرب السودان حيث لقي مصرعه. وكانت تلك التنقلات تمليها الظروف الحربية التي تطرأ من حين لآخر. لذلك لم تلق تلك المنطقة

(١) قبل أن يتولى أحمد فضيل إمارة القضارف قام بعدة مهام حربية وأصبح من أكثر التعايشة معرفة بالجهادية وقرباً للخليفة. وكان أول مهمة قام بها في يوليو عام ١٨٨٧ الموافق في شوال عام ١٣٠٤ حيث بعثه الخليفة إلى شات وبقي بها حتى أبريل عام ١٨٨٨ الموافق في شعبان ١٣٠٥. ثم ذهب إلى الأبيض وأصبح عاملاً للسرية الغربية وهناك قام بإلقاء القبض على الهاربين من سرية القلابات. وفي يونيو عام ١٨٨٨ الموافق في شوال عام ١٣٠٥ ذهب إلى الأضية ولبث بها حتى نوفمبر عام ١٨٨٨ الموافق في ربيع الأول عام ١٣٠٦ واستطاع القضاء على قبائل الحمر. ثم أرسله الخليفة إلى الفاشر لتعزيز موقف عثمان آدم ضد أبو جميزة. ووصل الفاشر في ١٨٨٩/١/١٢ الموافق في ٩ جمادى الأولى عام ١٣٠٦ حيث اشترك في معركة الفاشر ضد أبو جميزة. وفي فبراير عام ١٨٨٩ الموافق في جمادى الثانية كان في الاضية للمرة الثانية لمتابعة إخضاع الحمر. وفي نفس الشهر تحرك إلى البقعة حيث تولى قيادة الجهادية بالكاره خلفاً لفضل المولى صابون. واشترك مع يعقوب في القضاء على الأشراف. وبقي قائداً للجهادية حتى بعثه الخليفة إلى كسلا وخلفه إبراهيم الخليل أخ محمود ود أحمد في قيادة الجهادية، راجع:

مهدية، ٤/٢/٢٠/١،

مهدية، ٢٤/٣/٢٠/١.

مهدية، ٣٠/٤/٢٠/١.

مهدية، ٣٤/٤/٢٠/١.

اهتماماً منه، ولعل هذا أيضاً يعزى إلى أن دولة المهدية أخذت شكلاً تنظيمياً محدداً ولم تطرأ عليها أية تحولات أساسية. وكانت تلك السنوات أعوام حركة عنيفة وحرب لا أعوام هدوء واستقرار. حقاً إنها سنوات عاصفة في تاريخ الدولة المهدية وهي تصارع في عدة جبهات للحفاظ على كيانها من الخطر الخارجي الذي أخذ يشد من خناقه عليها حتى قضى على كيانها.

١ ـ الأوضاع الداخلية في عهد أحمد فضيل(١):

كانت هزيمة أحمد علي ضربة كبيرة على دولة المهدية إذ فتحت ثغرة في جبهة كسلا يصعب حراستها. وإدراكاً لخطورة هذا الموقف قام الخليفة فوراً بتعيين أحمد فضيل عاملاً عمومياً خلفاً لأحمد علي. وطلب في نفس الوقت بقاء فلول الجيش العائدة من أغردات في كسلا. وفي ٥ فبراير عام ١٨٩٤ الموافق في ٢٩ رجب عام ١٣١١ وصل أحمد فضيل إلى كسلا وتسلم القيادة من عبد الله حامد أبو فلج(٢).

ويبدو أن هزيمة أحمد علي أحدثت بعض المظاهر السلبية أهمها تسلل الأنصار من جهة كسلا إلى القضارف هرباً من خط المواجهة وبحثاً عن القوت. فقد عانى الجيش في كسلا شبه مجاعة. وحتى عندما خرجوا إلى الغزو كان مع كل واحد منهم «كيلة» واحدة من الذرة وعند عودتهم من أغردات مكثوا خمسة أيام بدون قوت وعندما صرفت لهم الذرة وكانت شحيحة «بواقع النفر قيراط واحد وبالتقطيع شيء في شيء». وانعدمت

---

(١) لا يمكننا أن نتعرض بوضوح إلى الأوضاع الداخلية في عهد أحمد فضيل إن لم نضع في اعتبارنا حادثتين هامتين. الأولى تصدي الإيطاليين لكسلا ثم احتلالها فيما بعد في يوليو عام ١٨٩٤ الموافق في محرم عام ١٣١٢ والثانية بداية الاستعداد لحملة كتشنر ثم تحركها فيما بعد نحو دنقلا في مارس عام ١٨٩٦ الموافق في شوال عام ١٣١٢. وقد عولجت الحادثتان في عدة مراجع.

(٢) منذ الأيام الأولى لأحمد فضيل والخليفة يستفسر عنه سراً وعن مقدرته الحربية وسلوكه. فقد كتب إلى النور عنقرا خطاباً سرياً بهذا المعنى. ولعل هذه ظاهرة فريدة أن يكتب الخليفة مستفسراً عن واحد من التعايشة بواسطة شخص آخر. إذ أن التعايشة كانوا هم عينَ الخليفة الساهرة والمراقبين لسلوك بقية القواد.

الأقمشة حتى للأكفان وصار الميت يـدفن «تحت التراب بـدون كفن عاري». فـرأى أحمد فضيـل أن يواجـه الأزمـة بـطريقتين. فصـرف نصف ريـال لكـل جهادي كخطوة أولى. ثانياً رأى ضـرورة القيام للغـزو «في طاعـة الله ورسولـه لنصـرة دينه». إلا أن الخليفـة اعترض على فكـرة الخروج للجهـاد ولعله كان يخشى من وقوع كارثة أخرى مثل كارثة أحمد علي قد تؤدي بالبقية الباقيـة من معنويات الأنصار. فاقتـرح على أحمد فضيـل أن ينتقل بجيشـه إلى القضارف خصوصاً بعد أن علم بأن الأنصار قد أحـدثوا بـأهل كسـلا «كل التشـويش من نهب رقيقهم وأشيائهم».

وصل أحمد فضيل إلى القضارف بأرباعه الأربعة ومعه قواده وهم فضـل الحسنة، النور عنقرا، محمد نور فور، عبد الله حامـد أبو فلج، ومعـه حوالي ستـة آلاف وخمسمـائـة من الجنـود وحـوالي أربعـة آلاف بنـدقيـة وكميـة من الجبخانة. وأدى تحول الجيش إلى إضعاف مـركز كسـلا لذلـك طالب أحمـد فضيل بإرسال رايات جديدة من أم درمان رأساً لأن الرايات التي معـه لن تقبل العودة إلى كسلا «بالنظر إلى ما شاهـدوه من ضيق معاشهـا». فأرسـل الخليفة مائتين وخمسة وخمسين مجاهداً فارتفع عـدد المجاهـدين بكسلا إلى حـوالي ألف وسبعمائة.

ولنـا أن نسـأل عن الأسبـاب التي أدت إلى نقـل كـل الجيش إلـى القضارف وترك مركز كسلا مفتوحاً في الوقت الـذي كان فيـه الخطر الإيـطالي يقترب بل إن الإيطاليـين احتلوا كسلا في يوليو عام ١٨٩٤ الموافق في محـرم عام ١٣١٢. هل كـان ذلك التحـول نتيجة للظروف المعيشيـة في كسلا أم أن الخليفـة أحس بضعفه أمـام الإيطاليـين فتخلى لهم عن كسـلا طـوعـاً؟ ربمـا للسببين معاً ففيهما يكمن ضعف المهـدية في سنـواتها الأخيـرة هذه: الجـوع والتغول الاستعماري.

ظلت مشكلة نقص المواد الغذائية تواجه دولة المهـدية طـوال السنوات الباقية من عمرها. ورأى أحمد فضيل أن أخذ الجهادية بالشدة في هذا الصدد قـد يدفعهم للجـوء للحبشة أو الإيـطاليـين فاستعـان عليهم «بكثرة التـذكير». ورأى أحمـد فضيل أن يتخـذ عدة إجـراءات لمواجهـة انعدام الـذرة. فـطلب

إرسال أربعمائة جمل محملة بالذرة من قلعة رانج وذلك لصرفها على الجنود على أن يعتمد الأنصار المقيمين بالقضارف على زرعهم. كما طلب إرسال عبد القادر أبو سن وولد زايد من أم درمان ليساعدوا في عمليات الزراعة.

وكان الإجراء الثالث أن يقوم بعدة غزوات لجلب الغذاء. ففي آخر عام ١٨٩٣ الموافق في منتصف عام ١٣١١ أرسل أحمد فضيل حملة لغزو ثلاث جهات في الحبشة هي «البرون» وجبل «تابي» و«الدنكر». وفي منتصف عام ١٨٩٥ الموافق في آخر عام ١٣٠٢ خرج فضل الحسنة قاصداً غزو بعض جهات الحبشة ولكن هطول الأمطار أدى إلى عودته إلى المركز. وتمثل الإجراء الرابع في إرسال مجموعات من الجهادية للإشراف على عملية الزراعة وحراستها. فأرسل أحمد فضيل مائتين وعشرين من الأنصار إلى جهة الفاشر[1] ومعهم سبعون أردباً «تواريب» وألحقها بثلاثة وثمانين أردباً أخرى عندما شاهد «وفرة الخريف». وقسم أولئك المجاهدين بحيث تشرف كل مجموعة على زراعة أرض أحد رؤساء الأرباع إذ كان لكل قائد ربع زراعته الخاصة به. فكان من بينهم خمسة وعشرون جهادياً للإشراف على زراعة أحمد فضيل. وفي العام التالي أرسل مائتين وثمانين جهادياً للقيام بنفس العمل السابق.

وبرر أحمد فضيل اهتمامه الشديد بالزراعة لأنها «هي رأس الربح وعين الثمرة وفيها راحة الجيش بحصول مؤونته الكفاية للتقوية بها على الجهاد وبالمثل مسألة الزراعة بالقضارف حاصل الاستعداد لها وجارى حث الأصحاب عليها». ويبدو أن سياسة أحمد فضيل الزراعية قد حققت بعض النجاح إذ توفرت الذرة حتى بلغ الأردب في القضارف ريالاً بل إن المزارعين «صاروا يطلبون الناس بأخذ الغلال منهم بالدين... ولم يجدوا راغب في ذلك». وشجعت تلك الوفرة الغذائية على انتشار قطاع الطرق الذين يعترضون

---

(١) مركز الفاشر هو مشرع على الضفة الغربية لخور القاش قبالة كسلا. وقد أقامه الأنصار بعد احتلال الإيطاليين لكسلا. والفاشر تعني في اللهجة المحلية نوعاً معيناً من الأرض وهي الأرض المرتفعة الصالحة للزراعة. وليس لهذه الفاشر أي صلة بالفاشر عاصمة دارفور. (هذه المعلومات مأخوذة من بعض أهالي المنطقة).

المسافرين وينهبون ممتلكاتهم. فعين أحمد فضيل دوريات للمناطق الخطرة. وتدل ظاهرة قطع الطريق هذه، بالرغم من وفرة المحصول، إلى سوء توزيع الذرة مما جعلها معدومة عند البعض.

وفي عام ١٨٩٨ الموافق في ١٣١٦ والأنصار يواجهون خطر الغزو الإنكليزي ـ المصري من الشمال أخذت أسعار الذرة ترتفع نسبياً فبلغ الأردب ريالين قوشلي في القضارف ريال ونصف في مناطق الزراعة. وعندما أخذت جيوش كتشنر تتوغل داخل أراضي السودان بدأ الأنصار يفرون من الزراعة فأرسل أحمد فضيل مائتي جهادي لمراقبة الزراعة على نهر عطبرا. وعند انتقال أحمد فضيل بجيشه إلى أم درمان طلب إرسال أعداد وافرة من الجمال إلى القضارف لحمل الذرة لأنها متوفرة هناك بينما «جهات البحر (حاصل بها) الضيق وصعوبة العيش وتعاليه في الأسعار وعدم تيسيره».

وتمت في تلك الفترة بعض التغييرات في حدود المراكز وفي قيادات الأرباع. فأخذت سبع جهات من القضارف وضمت إلى الجزيرة «لخدمة الأنصار بالبقعة»، وأعيدت جهة «كركوج وتوابعها الثلاثة» إلى القضارف. كما نقل المركز من التومات إلى الجيرة لقربها من القضارف لأهميتها الزراعية. كما أنشأت مراكز جديدة في الفاشر واصبري والمقطع على نهر عطبرا لمراقبة الإيطاليين الذين احتلوا كسلا.

وأجرى أحمد فضيل بعض التنقلات في قيادات الأرباع فعزل فضل أصيل من ربع الإمدادية وعين بدلاً عنه عيسى كشوش. ونقل خاطر حميدان بربعه إلى الفاشر وعزله فيما بعد ليحل محله عثمان الككر ثم محمد صالح عربي. وعزل حامد علي من كسلا لسوء إدارته وتعديه على قوت الأنصار. فقد استولى على مائة أردب من الذرة كانت مرسلة «لتقوية الأنصار» وجمع حامد علي لنفسه ثروة كبيرة.

ولا بد لنا ونحن نتعرض للأوضاع الداخلية في هذه الفترة أن نختتم الحديث بإشارة عن قبيلتي الشكرية والضبانية. ولعل أهم ما يستحق الملاحظة أن دولة المهدية أصبحت تعتمد كثيراً على هاتين القبيلتين لتساهما

في عملية الزراعة. ولذلك طلب أحمد فضيل إرجاع ود زايد وعبد القادر أبو سن وطه أبو جن من أم درمان فوراً عندما استدعاهم الخليفة «للمذاكرة». وبالرغم من خضوع الشكرية التامّ للمهدية إلا أنهم كانوا يخفون في داخلهم تذمراً ورفضاً للنظام. فقد قام عبد القادر أبو سن بالاتصال بأحد الشكرية ويدعى حسب الله رحمة الله وكان مقيماً بكسلا تحت حماية الإيطاليين. واشتكى عبد القادر في رسالته من سوء حالة قبيلته. ويبدو أن «الميجر هيدالقو» حاكم كسلا الإيطالي قد اطلع على تلك الرسالة، فاتصل بعبد القادر وعرض عليه حماية حكومته وطلب منه أن يرحل بأهله إلى كسلا[1]. ويبدو أن عبد القادر قد تحايل على أحمد فضيل وطلب منه إرسال بعض أعوانه كطلائع لكشف أخبار الإيطاليين بكسلا بينما كان يهدف إلى الاتصال بالإيطاليين هناك. ولكن تلك الاتصالات لم تثمر وظلت مجهولة لدى أحمد فضيل تماماً. فقد كان أحمد فضيل مرتاحاً لمسلك عبد القادر بل وصحب معه جعفر أبو سن في إحدى غزواته تعبيراً عن تلك الثقة. وشهد منتصف عام ١٨٩٦ الموافق في مطلع عام ١٣١٤ وفاة عبد القادر أبو سن وخلفه جعفر في زعامة القبيلة. وفي أغسطس من نفس العام الموافق في ربيع الأول توفي محمود عيسى زايد وخلفه عوض الكريم عيسى زايد. وقد شارك هذان الزعيمان الجديدان في الدفاع عن دولة المهدية ضد الخطر الاستعماري وسمح لهما الخليفة برفع راية للجهاد خاصة بكل منهما.

وشهدت تلك السنوات الأخيرة في عهد الخليفة انقسام قبيلة الشكرية بين رفاعة والقضارف انقساماً واضحاً. وكان رأي عبد الرحيم أبو دقل، عامل جهة القضارف، أن الشكرية يجب أن ينضموا على رفاعة لا القضارف لأنهم أصلاً من جهة «الهوى» وأنهم لا يرغبون التبعية لجعفر «لتشوشهم من تبعه... وكراهيتهم لجهة القضارف»[2]. ولكن الخليفة رأى أن يكونوا تابعين لجعفر. واعترض عبد الله عوض الكريم أبو سن على قرار الخليفة

---

(١) الميجر هدالقو حاكم التاكا إلى عبد القادر أبي سن، عام ١٨٩٥ الموافق في ٢٠ جمادى الأولى عام ١٣١٣، مهدية، ٧/٧/٣٤/١.

(٢) عبد الرحيم أبو دقل إلى الخليفة، في ٥ ربيع الأول عام ١٣١٦، مهدية، ١١٤/٧/٢٩/٢.

بحجة أن الشكرية في رفاعة «ما لهم علاقة في القضارف ولا سكنة ولا تبعية» وأنهم قد انضموا عليه في رفاعة «ومنهم المساعدة التامة. . . في أمر الدين وحفظ الجهة ورغبتهم الإقامة مع أهلهم الموجودين هنا ورجوعهم للقضارف في هذا الزمن فيه كبير ضرر لهم ومشقة»(١). وهكذا انتهى عهد الخليفة والشكرية يعانون انقساماً جغرافياً ويظهرون ولاءً ويخفون نفوراً وتذمراً من النظام(٢).

وحدثت في تلك الفترة بعض الأحداث الصغيرة التي تعكس تدهور الأوضاع الداخلية لدولة المهدية وهي تعيش السنوات الأخيرة من عمرها. منها محاولة تغيير العملة. فقد كانت المعاملات التجارية من جهة واد مدني وحتى كركوج والقضارف والقلابات تتم بالريال القوشلي. وفي عام ١٨٩٧ الموافق في أواخر عام ١٣١٤ وأوائل عام ١٣١٥ أمر الخليفة بعدم استعمال الريال القوشلي وأن يستبدل بالريال المجيدي. وأدى ذلك الإجراء إلى توقف التعامل التجاري «وتعسر الضروريات على الناس». وقد اتخذ الخليفة ذلك الإجراء لتعدد أنواع الريال القوشلي ولكثرة استعماله حتى أصبح مطموس المعالم. ولكن أحمد فضيل رأى أن يستعمل الريال المجيدي في أم درمان ويترك استعمال القوشلي في بقية المناطق. ويبدو أن الخليفة وافق على رأي أحمد فضيل. إلا أن ذلك الإجراء يعكس ضعفاً في النظام الاقتصادي. فالدولة غير قادرة على إصدار عملة مقبولة للناس وغير قادرة على فرض عملة معينة يقبلها الناس مما جعلهم يدخلون أي عملة يرونها مناسبة دون خشية من النظام الحاكم.

ولم يقتصر تزعزع الثقة في العملة فحسب بل انعكس في مظاهر أخرى أهمها هروب أمراء الرايات من قياداتهم. فقد هرب ثلاثة من الأمراء من القضارف بعد أن باعوا «عيوشهم» وحملوا عوائلهم. بل إن بعض الأمراء

---

(١) عبد الله عوض الكريم أبو سن إلى الخليفة، في ٢٠ ربيع الأول عام ١٣١٦، مهدية، ٢/٢٩/٧/١٦١.

(٢) ولعل الشاعر الحاردلو قد عبر عن هذا الشعور في قوله:

يا يابا النقس يا لإنجليز الفونا

أخلوا منازلهم من العوائل استعداداً للتشتت في أنحاء البلاد في حالة انهيار النظام الحاكم. وأخذت القضارف نفسها تستقبل مجموعات من الأنصار هاربين من أم درمان عندما أخذت تقترب منها جيوش كتشنر. وقد وصل فقدان الثقة مرحلة جعلت النور عنقرا يطالب بعودة أحمد فضيل إلى القضارف والبقاء بها حتى يبعث الرهبة في الأعداء والثقة بالأنصار. واقترح الخليفة بناء حصن حول القضارف لحماية الأهالي وبعث الطمأنينة في نفوسهم. كما أمر الخليفة بإغلاق سوق القضارف من العصر حتى لا يصبح مسرحاً للجواسيس واللصوص بالليل. ويمكننا أن نلاحظ أن الاختلاسات بدأت تأخذ طريقها في هذه الفترة إلى قلب النظام. فقد اعتقل إسماعيل عبودي أمين بيت المال القضارف لاختلاسه سبعمائة ريال من أمانته.

وعانت المهدية في هذه الفترة نقصاً في القوى البشرية المحاربة. ولا شك أن كثرة الحروب وامتداد المجاعة عبر سنوات عديدة وتسلل الجهادية قد أدى إلى ذلك النقص. ويبدو أن الدولة أصبحت تعتمد على تجنيد كل أفراد القبائل مع استمرار اعتمادها على البقارة وخاصة التعايشة. وقد حوت كل الكشوفات الخاصة بالجيش في عام ١٨٩٥ الموافق في عام ١٣١٣ إلى عام ١٨٩٧ الموافق في عام ١٣١٥ فرقاً جديدة في الجيش هم الخماسي والسداسي وهؤلاء صبية صغار كانوا يضافون للجيش وأغلبهم من أبناء التعايشة. فإذا وصلت الدولة مرحلة تجنيد الصبية في سن خمس عشرة وست عشرة سنة فإن هذا يعكس بعض نواحي ضعفها.

ولا شك أن تحركات أحمد فضيل المستمرة ـ إما منفرداً أو بجيشه ـ قد ساهمت بدورها في إضعاف الإدارة الداخلية في هذه المنطقة. وكانت تلك التحركات تمليها الظروف الحربية واحتياجات الدفاع والتشاور مع الخليفة في الأخطار الخارجية المتجددة.

من الواضح أن أحمد فضيل لم يمكث بالقضارف طويلاً وحتى عند بقائه بها كان مشغولاً بقضايا هامة على مستوى الدولة ككل، ولا غرابة إذا تدهورت الأوضاع الداخلية ولحق بالناس الكثير من الظلم والتعدي على

حقوقهم[1]. ويمكننا أن نخلص إلى القول بأن عهد فضيل شهد طغيان الأحداث الخارجية والخطر الاستعماري على الأحداث الداخلية ولذلك كان عهده عهد تدهور داخلي وفقدان للثقة في حكم المهدية.

٤ ـ الصراع بين دولة المهدية والإيطاليين:

لا شك أن احتلال الإيطاليين لكسلا في يونيو عام ١٨٩٤ الموافق في محرم عام ١٣١٢ قد فتح جبهة جديدة كان على المهدية مواجهتها مما استنزف قدراً من طاقاتها الحربية. فقد قام الإيطاليون بغزو كسلا والاستيلاء عليها وحرقها وهرب مساعد قيدوم من المعركة حتى لقبه الخليفة «بحليمة». ولم يكن الأنصار على يقين من أمر الإيطاليين إن كانوا ينوون الإقامة بكسلا أو العودة[2]. ولذلك طلب الخليفة من أحمد فضيل اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة وأن يكون على حذر من مكر «الإيطاليين والعربان المنافقين». فقام أحمد فضيل بإرسال عمر محمد الشيخ مع خمسين جهادياً للإقامة بالفاشر «لرصد أخبار الأعداء»، كما عين عدداً من المجاهدين «للإقامة... بالطرق الداخلية على مركز القضارف من بحري ومن قبلي». ورتب عدداً من الدوريات لتمر من التومات حتى الفاشر ودوريات أخرى من الفاشر إلى جهة اصبري على أن تتعاقب هذه الدوريات يومياً. ولأهمية نقطة الفاشر لأنها «موالية لكسلا» أرسل أحمد فضيل أحد عشر راية بقيادة كويس النور لتعزيزها. واصطدمت تلك الرايات بأربع «قلعات» للإيطاليين في الملوية. فهاجم الأنصار الإيطاليين «وهنوهم قتلاً وأثخنوهم طعناً وضرباً» وقتل في تلك المعركة القائد الإيطالي هرودة[3]. ويبدو أن الإيطاليين تهيبوا الخروج من تحصيناتهم في كسلا بعد تلك الواقعة.

وفي أبريل عام ١٨٩٥ الموافق في شوال عام ١٣١٢ قرر أحمد فضيل

---

(١) عبد الرحيم البرجو إلى الخليفة، في ١٥ رمضان عام ١٣١٥، مهدية، ٢/٢٨/٩/٣٠٤-٣٠٥.

(٢) أحمد فضيل إلى الخليفة، ١٣ صفر عام ١٣١٢، مهدية، ١/٢٠/٦/١١٧.

(٣) البشاري إسحق إلى الخليفة، في ٧ جمادى الثانية عام ١٣٢١، مهدية، ٢/٣٩/٢/١٦٢.

أن يغزو جهة كسلا قبل أن يرتفع نهر عطبرة فيحول بين الأنصار و «جهة المعاش» إذ أن بقاء الجيش بالقضارف يؤدي إلى «تضايق بالمعاش ولزوماته الضرورية بالمركز لأنه ضيق وبيت ماله خالي». ويقترح أحمد فضيل غزو المنطقة «الوسطانية بالصعيد ما بين بحر اتبرة. . . وبحر النيل الأزرق. . . (إذ) فيها حلالات معتاد ضربها. . . وهي جهة دنكر وجهة الفنجارة وبها من الغنائم ما يساعد الجيش على تحمل فترة الخريف». واستعداداً لتلك الغزوة استدعى أحمد فضيل رايات خاطر حميدان من الفاشر على أن يعيد تقوية مركز الفاشر والمراكز الأخرى بعد انتهاء فصل الخريف. لقد تحولت جيوش المهدية إلى مجموعات مقاتلة تبحث عن قوتها في مختلف الاتجاهات. ويتضح كذلك الاستفادة من العوامل الجغرافية إذ تسحب الجيوش من المراكز في زمن الخريف ويعاد تقويتها بعد انتهائه لمواجهة أي هجوم مرتقب. وفعلاً بعد انتهاء الخريف أرسل أحمد فضيل ثلاث عشرة راية إلى الفاشر وتسع رايات إلى مشرع الشقراب ومائة وثلاثة وأربعين جهادياً بقيادة عبد الرحيم أبو دقل إلى اصبري.

وفي مارس عام ١٨٩٦ الموافق في شوال عام ١٣١٣ حدث تطور سياسي هام في تلك المنطقة عندما استطاع الحبش هزيمة الإيطاليين في معركة عدوة. ولم تغب أهمية ذلك الحدث على انتباه الأنصار فقد وصلت أخباره إلى الأنصار عن طريق جواسيسهم من الجبرتة. وعلم أحمد فضيل كيف صار الإيطاليون «في وهن وخيبة وقلة جموعهم بكسلا». فرأى أن يغتنم فرصة انشغال الإيطاليين بالحرب مع الحبشة ويقوم بغزو كسلا وإعادتها. وتردد الخليفة كثيراً قبل أن يأذن بتلك الغزوة خوفاً من وقوع كارثة حربية أخرى قد تؤثر على نظامه بأكمله.

وعندما علم الإيطاليون بتحرك الأنصار قاموا بتعزيز كسلا فأرسلوا كميات وافرة من المؤن والذخيرة و٣٥٠٠ جندياً بقيادة الكولونيل استفاني. وفي ٢ أبريل الموافق في ١٨ شوال خرج الإيطاليون من تحصيناتهم وهاجموا الأنصار فتراجع أحمد فضيل إلى تكروف بخسارة أربعمائة رجل. وفي اليوم التالي هزم أحمد فضيل وفقد ثمانمائة رجل آخرين وانسحب من المعركة.

ولكن أحمد فضيل لم يعط وصفاً صادقاً للمعركة فقد ذكر للخليفة بأنه هزم الإيطاليين حتى تراجعوا لكسلا وصاروا «يرموا جللهم من بطن زريبة الديم. . . ويأتي منها إعدام الخيول». كما ذكر أن جبخانة الأنصار فرغت منهم مع العلم بأن كل جندي معه سبعة دستة منها. وهذا ما جعله ينسحب من المعركة ويتراجع إلى نهر عطبرة[1]. ومن هناك سار إلى القضارف حسب تعليمات الخليفة. ثم قام بتقوية المراكز لمواجهة الإيطاليين فأرجع عبد الرحيم أبو دقل ومعه ست عشرة راية وعشرون صندوقاً من الجبخانة إلى اصبري وأرسل حامد علي بربع الجعليين والدناقلة وعشرين صندوقاً جبخانة إلى الفاشر. كما رأى حراسة «المقطع» بالدوريات «الوقتية المتصلة كل دورية تتسلم من المتقدمة لها إلى أن يمتلي البحر». ورأى أن تلك الاحتياطات كافية «لأن البحر دخله النقس». ويتضح من تلك الإجراءات أن أحمد فضيل قد هزم فعلاً في تكروف وأنه اتخذ تلك الاحتياطات لاحتمال تقدم الإيطاليين.

وشهدت الأشهر التالية نشاطاً حربياً ملحوظاً من جانب الأنصار ومن جانب الإيطاليين أيضاً. فقد قام أحمد فضيل بحملة توغل بها داخل ارتريا. وكانت تلك الحملة بتوجيه من الخليفة الذي رأى أن مهاجمة الإيطاليين في ضواحي كسلا وإخضاع القبائل الموالية لهم سيجعل بقاءهم في كسلا أمراً صعباً وسيخفف من ضغطهم على المراكز الحربية على نهر عطبرة. فأرسل إلى أحمد فضيل ثلاثمائة صندوق من الجبخانة ومدفعين.

وفي ديسمبر عام ١٨٩٦ الموافق في رجب عام ١٣١٤ تحرك الجيش من القضارف قاصداً التومات ومنها عبر نهر عطبرة وسار محاذياً لنهر سيتيت حتى مشرع الحجار الزرق حتى وصل الجيرة. وهناك تأكد لأحمد فضيل أن الأنصار لن يتمكنوا من التسلل والرجوع إلى القضارف فصرف لكل مجاهد سبع دستات جبخانة. ثم اتجه الجيش إلى سرف ميتيت حتى وصل «حلال العبيد البازة محل الزرع» وفي «امديب» ـ بين كسلا واغردات ـ دارت معركة

(١) أحمد فضيل إلى الخليفة، في ٢٤ شوال عام ١٣١٣، مهدية ١/٢١/١/١٠٢.

مع القبائل المتعاونة مع الإيطاليين وكانت بقيادة علي نورين. وبعد هزيمة «العربان» بقي الجيش ثلاثة أيام قضاها في شن الغارات بالخيول وأهل السلاح على الجهات وتخريبها. ومارس الجيش نفس الأعمال الحربية في «مقريب» وظل في سيره حتى سرف الفيل «صعيد كسلا». وقد بلغت جملة القرى التي هاجمها الجيش منذ خروجه من بحر سيتيت اثنتين وثمانين قرية متفرقة في عشر مناطق.

وعندما وصل الجيش إلى سرف الفيل وجد عليه حراسة من خمسين شخصاً بقيادة حسب الله ولد رحمة الله الشكري فهاجمهم الأنصار وواصلوا سيرهم إلى كسلا. وكان بها «أربعة كبانيات والكبانية بها مائة نفر». ولم يشعر الإيطاليون بقدوم الأنصار «لداعي قطع السلك» وقفل الطريق أمام الجواسيس. وظلوا يتحصنون بكسلا ولم يخرجوا لملاقاة الأنصار. ولهذا السبب ولفراغ الزاد وخشية من تسلل الجهادية لجهات البحر بأسباب الجوع قرر أحمد فضيل العودة إلى القضارف. ولعل السبب الأهم أنه كان يخشى من هزيمة كالتي لحقت به من جراء مهاجمة الإيطاليين في تحصيناتهم.

وكانت عودة أحمد فضيل إلى القضارف بدون إذن من الخليفة وهذا يخالف التقاليد المتبعة في المهدية. ولذلك رأى أن يقوم بغزوة أخرى حتى لا تبدو عودته وكأنها خوفٌ من الحرب. وذكر للخليفة أن تلك الجهات لم تكن معروفة من قبل للأنصار أما الآن فإنهم صاروا فيها خبراء «والدرب فاتح». كما أن الجيش لم يمسه ضرر من الغزوة السابقة. والذرة أصبحت شحيحة بالقضارف وارتفاع نصيب الأنصار في الغنيمة سيصبح حافزاً قوياً. وبالرغم من تعدد الأسباب التي أوردها أحمد فضيل إلا أنها تتناقض مع ما ذكره من قبل من قلة المعايش بجهات كسلا. ولعل الخليفة أحس بضعف تلك الحجج فرفض خروج الجيش للغزو. وانشغل الخليفة بعدها بالخطر الزاحف من الشمال. وهكذا انتهت مجهودات أحمد فضيل الحربية ضد الإيطاليين دون أن تغير من الوضع الحربي في المنطقة ودون أن تحدث أي آثار سياسية.

أما مجهودات الإيطاليين الحربية فقد تركزت في الهجوم على النقاط

الحربية التي أقامها الأنصار على نهر عطبرة وبالذات مركز اصبري لأنه أهمها إذ يسيطر على الطريق إلى البطانة والقضارف. ففي يونيو عام ١٨٩٦ الموافق في مطلع عام ١٣١٤ هجم الإيطاليون على مشرع المقطع بعد أن عبروا البحر سباحة. وبما أن الأنصار لا يعرفون السباحة ـ فأغلبهم من الغرب ـ فلم يتمكنوا من اللحاق بهم وضربهم ولذلك طلب قائد المنطقة مده بالمراكب.

وبعد أسبوع من تلك الحادثة هاجم الإيطاليون مركز اصبري وظلوا يمطرونه بالرصاص من الشاطئ الشرقي دون أن يتمكن الأنصار من العبور إليهم لامتلاء النهر. وأحس عبد الرحيم أبو دقل بضعف موقفه إذ كان معه مائة وخمسون رجلاً مقاتلاً فقط فاستغاث بأحمد فضيل طالباً «النجدة النجدة». أما الإيطاليون فقد أعادوا هجومهم مرتين متتاليتين بالرغم من وجود دوريات كانت تمر على الشاطئ الغربي. وعندما بدأ النهر في الانحسار زادت خطورة الموقف إذ كان بإمكان الإيطاليين العبور إلى الضفة الغربية ومهاجمة أي من المراكز المنتشرة عليه. فأرسل أحمد فضيل الرايات «اللازمة» لتعزيز الموقف في اصبري والفاشر.

وفي يناير عام ١٨٩٧ الموافق في رجب عام ١٣١٤ هجم الإيطاليون على مركز اصبري ودارت معركة عنيفة استمرت ثلاثة أيام استولى بعدها الإيطاليون على شاطئ النهر الغربي. وظل الأنصار داخل تحصيناتهم والمعركة دائرة. وبعد أسبوع نفذت جبخانة الأنصار فاضطر أبو دقل للتراجع إلى الصفية بعد أن فقد أحد عشر شهيداً وجرح من جماعته خمس وثلاثون واستولى الإيطاليون على اصبري. ثم قاموا بتعزيز مواقعهم في اصبري بأن حضروا في أعداد جديدة «أكثر مما كانوا به» كما أنهم «مشتغلين... بالبناء اللازم للإقامة». ولكن أبو دقل ظل يجهل نواياهم «إن كانوا متوجهين للقضارف أم قاصدين أعمال فقط على شاطىء بحر اتبرة بمحلات معلومة لديهم»[1].

ولعل الخليفة أدرك أن نشاط الإيطاليين المتزايد في الشرق كان

---

(١) عبد الرحيم أبو دقل إلى الخليفة، في ٢٧ شعبان عام ١٣١٥، مهدية، ٢/٦/١١/٣٠.

الغرض منه شغل الأنصار حربياً حتى تسهل مهمة الجيوش الغازية من الشمال. ولذلك رأى ضرورة الاهتمام بمركزي اصبري والفاشر حتى لا تصبحا منافذ للتسلل الإيطالي، بل ورأى ضرورة استعادة اصبري. ولكن أحمد فضيل اعترض على تلك الخطوة خوفاً من أن يتسلل الأنصار وينضموا إلى الأعداء فيعلم الأعداء «بحالة ضعفهم بعد التسلل» واقترح إما أن يقوم الجيش بأكمله إلى اصبري والفاشر أو يرسل ربع عبد الرحيم البرجو بأكمله إلى هناك. ولكن الخليفة رأى أن تلك الخطوة تخدم أغراض الأوروبيين تماماً ورأى أن يرسل بعض الخيالة من السرية وأن يعود أبو دقل إلى اصبري مع بعض التعزيزات. ورأى كذلك بدلاً من إرسال خبراء من الجيش أن ترسل دوريات تسير بين الفاشر واصبري ليصبح نهر عطبرة تحت «الاستكشاف المستمر»[1]. وشغل الخليفة بالخطر الذي أخذ يشتد من الشمال فأمر أبو دقل بالانسحاب إلى رفاعة ليكون بالقرب من أم درمان. وهكذا انتهت علاقة الدولة المهدية بالوجود الإيطالي في كسلا حتى استولى عليها الإنكليز وكانت كفتهم دائماً راجحة في المعارك الحربية. وقد أنهكوا من قدرات الدولة المهدية في تلك الجهة أيما إنهاك.

٣ ـ سياسة دولة المهدية تجاه الحبشة:

تتلخص سياسة دولة المهدية تجاه الحبشة في هذه الفترة في ثلاثة اتجاهات رئيسية: حربية، واقتصادية، ودبلوماسية. أما الناحية الحربية فقد شهدت تدهوراً عاماً في عهد أحمد فضيل. وهذا التدهور هو امتداد للتدهور الذي بدأ بعد معركة القلابات الكبرى واستمر بقية عهد الزاكي طمل وأحمد علي. ولعل أبرز مظاهر ذلك التدهور انتقال المركز العسكري من القلابات إلى القضارف. ويعكس ذلك التحول انصراف الدولة المهدية من الحروبات الحبشية وتركيزها على الزراعة وعلى جبهتي كسلا والشمال. وأصبحت القلابات مركزاً عسكرياً صغيراً به خمسمائة جهادي بقيادة النور صلصة (غير الخليفة اسمه فيما بعد إلى صلاح) ومعه عدد من الأمراء المغمورين.

---

(١) أحمد فضيل إلى الخليفة، في ٨ شوال عام ١٣١٥، مهدية، ٢٩٤/٣/٢١/١.

وينعكس ذلك التدهور الحربي كذلك في تغيير نقطة الجيرة إلى التومات. ولذلك فالأعمال الحربية التي تمت في هذه الفترة لا تعدو عن كونها مناوشات في الحدود وبعض أعمال التجسس وبعض حركات الشفتة. وكان أولئك الشفتة مصدر إزعاج حتى لدولة الحبشة نفسها. لقد تحول النشاط في هذه المنطقة إلى أعمال اللصوصية بعد أن كانت مسرحاً لمعارك هامة ولعل انتصار الحبش على الإيطاليين قد أعطى الحبشة وضعاً حربياً متفوقاً وساعد بذلك في حسم الصراع بين الدولتين.

على أن ذلك التدهور العسكري لم يصرف الأنصار عن تتبع أخبار الحبش والتجسس على تحركاتهم. وكان للأنصار بعض الجواسيس داخل الحبشة من بعض القبائل التي كانت تنظر صوب المهدية ترغب في أن تستظل بظلها. ولعل الجبرتة هم أهم تلك القواعد. وكان للجبرتة راية في جيوش المهدية منذ بداية الثورة واستمرت طوال عهد المهدية تنتقل من النور فقرا إلى عمر أحمد خوجلي وغيرهما. وظل الجبرتة ينقلون للأنصار أخبار الحبش بانتظام حتى اضطر منليك إلى حربهم. وأرسل الأنصار الشيخ حسين الجبرتي إلى شلقة حاملاً معه الأمان لأهلها وذلك بغرض إفساد مشاريع منليك لضم أهالي تلك المنطقة إلى صفه لاستغلالهم في إزعاج حدود الأنصار[1].

وظل الأنصار يهتمون بأخبار الحبش فقد كانوا دائماً في شك من نواياهم وهم في نظرهم دائماً «أعداء الله ولا يؤمن لهم عاقبة كونهم مبطنين بالمكر». وشعر الأنصار بارتياح شديد عندما اشتد الصراع بين الحبش والإيطاليين فهما في نظر الأنصار أعداء الله. وعندما انتصر الحبش على الإيطاليين «قاتلهم الله» معاً لم يهدأ خاطر الأنصار وربما اعتقدوا بتقدم الحبش إلى القلابات. فأرسل أحمد فضيل ربعي عبد الرحيم البرجو وسعد الله عز الدين ولكن الحبش قبعوا في مكانهم وتلاشت مخاوف الأنصار.

أما النشاط التجاري فقد أصبح يمثل عنصراً هاماً في علاقة الدولتين

(١) النور صلعة إلى فضل الحسنة، في ١٩ ربيع الثاني عام ١٣١٢، مهدية، ١/١/٤/٦٤.

ولم تكن العلاقة التجارية بين المهدية والحبشة تتأثر بالظروف الحربية بل ظلت تسير دائماً في مجراها الطبيعي وظل «النقادية واردين بحالة اطمئنان وهم لا لهم تعلق بالحرابة ومن عوائدهم السابقة أن الحرابة تكون دائرة بين الأنصار والمكادة وهم يحضروا ويبيعوا ويشتروا». وفي السنوات الأخيرة هذه أصبح النشاط التجاري يحتل حيزاً كبيراً في تلك المنطقة. ولعل خير ما يعبر عن سيادة الناحية التجارية هذه ما كتبه حاكم شلقا إلى النور صلاح قائلاً: «ونحن طالبين عمار السوق وعمار البلد بالمشورة معكم ونحن نبهنا تنبيه للنقادية بالنزول وأنتم كذا تنبه تنبيه وتعطوهم أمان الله وأمان رسوله»[1]. ويبدو أن إعطاء الأمان للنقادية كان من الضروريات الهامة لاستمرار التجارة. فقد كانوا يحضرون أحياناً إلى القلابات بجزء من بضاعتهم لأنهم غير مطمئنين على مستقبلها. ولم يتردد الأنصار في تأمين النقادية وتأمين بضاعتهم. ولعل الحبش لم يكونوا أقل حرصاً من الأنصار على استمرار تلك التجارة. وكثيراً ما كانوا يرسلون الهدايا إلى أمراء الأنصار وإلى الخليفة تعبيراً عن شعورهم الودي حتى لا يعترض الأنصار على عملية التبادل التجاري. بل لجأ الحبش، وتبعهم الأنصار فيما بعد، إلى إعطاء التجار الذين كانوا ينتقلون عبر الحدود أوراقاً تثبت هويتهم التجارية حتى لا يتهموا بالتجسس. وأحياناً كانت سلطات البلدين تشك في بعض التجار فكانوا يضعونهم «تحت النظر أشبه بحبس عين». ونتيجة لتلك المجهودات فقد انتعشت التجارة في القلابات وأصبح «المكادة طالعين نازلين» بل إن بعضهم كان يأتي من مصوع ومن «أقصى ديارهم من لم يسبق له وصول القلابات كلية حتى في زمن الكفرة وكذا من سبق حضوره وانقطع السنين العديدة». وحتى التومات التي لم تعرف من قبل كمركز تجاري أصبح يرد إليها النقادية بأعداد كبيرة إذ وصلها في شهر واحد ثمانية وثمانون تاجراً[2].

---

(١) حاكم شلقا إلى النور صلعة، في عام ١٨٩٤ الموافق في غرة جمادى الأولى عام ١٣١٢، مهدية، ٢٠٢/١٦/٣٤/١.

(٢) يوسف سليمان ود الجزولي إلى الخليفة، في ١٢ ذو القعدة عام ١٣١٥، مهدية، ٣٧١/٢/٢٩/٢.

وأصبحت زريبة القلابات سوقاً تجارياً نشطة ودار صراع بين عدد من العمال حول الإشراف على تلك الزريبة لأن الإشراف عليها كان مصدراً للثروة والنفوذ. وأخيراً ولى أمرها إلى يوسف سليمان وآدم الجزولي ولعل هذه الإدارة الثنائية كانت بغرض تفادي التلاعب بأموال الزريبة. وتقاضت دولة المهدية من النقادية العشور على بضائعهم. وأحياناً كانت تلك العشور تزيد قليلاً. وبلغت إيرادات العشور في تلك الفترة مبالغ طائلة. ففي فبراير عام ١٨٩٨ الموافق في رمضان عام ١٣١٥ بلغت خمسمائة ريال، وبعد شهرين ألف ريال وفي الشهر التالي بلغت ألف وخمسمائة ريال وفي نهاية نفس الشهر كانت ألف ريال أخرى. وقد أدت تلك الإيرادات الطائلة إلى أن يفكر الخليفة في الدخول في عملية التجارة وذلك باستخدام رؤوس أموال لجلب بضائع من الحبشة وبيعها. وسارت الإجراءات لتنفيذ تلك الخطوة في سرية تامة وظل المندوبون من الخليفة «يتصلون سراً بالنقادية». ولعل انشغال الخليفة بالزحف البريطاني في ذلك العام أدى إلى توقف تلك المساعي[1].

وكانت أهم البضائع التي ترد إلى القلابات الأقمشة مثل الدمورية والمرمر والزراق والدبلان والولاية والجاوة. وكانت الدمورية والمرمر أكثرها انتشاراً، ويأتي البن في المرتبة الثانية إذ يصل الوارد منها في العام إلى عشرات القناطير. ثم يأتي العسل بعد ذلك. وكان من ضمن الواردات بعض الكماليات مثل العطور والفناجين وغيرها. أما الحيوانات الواردة فأهمها الخيول والحمير. أما صادرات القلابات فقليلة أهمها الأبقار وبعض المنتجات الزراعية.

وأدى انتعاش الحركة التجارية إلى انتشار الشفتة ـ قطاع الطرق ـ في تلك المنطقة. واضطر الحبش إلى إقامة دوريات في الطرق لحراسة القوافل التجارية. وتعدى نشاط الشفتة القوافل وأصبحوا يهاجمون القرى في كل من البلدين مثل هجومهم على التومات. وحدث أن نهبوا قافلة تحمل مبلغ ثمانمائة ريال. واشتهر «كدانا مريم» كأخطر أولئك الشفتة في تلك المنطقة،

(١) المصدر السابق.

وكان مصدر إزعاج أكبر بالنسبة للحبش أنفسهم. وبالرغم من أن نشاط الشفتة قد أدى إلى عرقلة الحركة التجارية إلا أنه كان مظهراً لانتعاش تلك الحركة وازدحام الطرق بالقوافل.

وتطورت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين في تلك الفترة تطوراً ملحوظاً. وكان لتدهور الأحوال الداخلية في دولة المهدية وتزايد الخطر الخارجي أثره على الخليفة إذ تنازل كثيراً عن التشدد المذهبي الذي كان سمة علاقته بالحبشة في الفترات الأولى من حكمه. فشهدت السنوات الأخيرة من عهده محاولات جادة لإقامة نوع من السلم أو قل الصلح مع الحبشة. فنشطت حركة الوفود التي كانت تروح وتغدو بين الخليفة والنقس. على أن الحبش كانوا أكثر وعياً بضرورة إحلال السلم خصوصاً قبيل صدامهم وبعد انتصارهم على الإيطاليين.

وبدأت تلك المفاوضات برسول من قبل منليك يدعى محمد الطيب الجبرتي جاء يحمل رسالة شفهية إلى الخليفة فيها عرضاً للصلح. وغادر محمد الطيب بلاط منليك في يوليو عام ١٨٩٥ الموافق في صفر عام ١٣١٣ بعد أن قابل منقشا (ابن يوحنا). وأعاد الخليفة رسول منليك إليه برسالة يطلب فيها من منليك أن يحرر مكاتبة رسمية بختمه «بالتماس ذلك (السلم) للنظر فيها»[١]. ويبدو أن محمد الطيب مرض في الطريق ولم يتمكن من مقابلة منليك فوراً وفي الأثناء انتصر منليك على الإيطاليين[٢]. فأرسل الرأس بتوادد منقشا رسالة سريعة إلى الخليفة نيابة عن منليك جاء فيها «والآن فإن الامبراطور يرغب في السلام والعلاقات الأخوية ومن الأرجح أن تكتب له حالاً خطاباً ودياً»[٣]. وأتبعها منليك برسالة من عنده حملها رسولاً خاصاً

---

(١) الخليفة إلى منليك، في ١٣ صفر عام ١٣١٣، مهدية، ٢٢/١٢/٣٤/١.
يرى هولت أن هذه الرسالة حادة النغمة. ولكن إذا قارناها مع رسائل الخليفة نرى فيها تنازلاً كبيراً من جانبه.

(٢) محمد الطيب إلى أحمد فضيل في عام ١٣١٣ (بقية التاريخ غير مذكور)، مهدية، ٧٨/٨/٤١/٢.

(٣) الرأس بتوادد منقشا إلى الخليفة، في عام ١٨٩٤ الموافق في عام ١٣١٢، مهدية، ٢١٩/٦/٣٤/١.

يدعى الحاج أحمد الجبرتي حتى يسمع الخليفة «كافة الكلام من لسانه». يقول منليك في تلك الرسالة الهامة «ومن جهتي أنا أحب الصلح والأمان والمحبة كما (أخبرتكم) قبل الآن. . . والآن كذلك أحب أن أعيش بالصلح والمحبة مع جيراني الافريقيين ولا أريد معهم حرب ولا إكراه بل المحبة الصافية الحقيقية التي هي طيبة ـ أحب أيضاً أن أعيش بالمحبة مع الدول الذي بعيد من بلادنا ـ ولكن العدو الذي يجيء عليّ من دون حق أرجعه بقوة ربنا ـ ولا أريد أن أفوت من حدود اثيوبيا وأدور خناقة مع الناس»(١) وكتب بتوادد منقشا إلى الخليفة مؤكداً ذلك المعنى قائلاً: «وأرجو أن ألفت نظرك لتكون على حذر من الإنكليز الذين دخلوا دنقلا في الشتاء وأن عدوك عدونا وعدونا هو عدوك ونحن يداً واحدة في اتحاد متين»(٢).

فبعث الخليفة في سبتمبر عام ١٨٩٦ الموافق في ربيع الثاني عام ١٣١٤ وفداً برئاسة محمد عثمان حاج خالد ومعه عبد الرحمن الجبرتي ومحمد السنوسي وآدم الجزولي وعبد الرحمن الملازمي والبشري الجبرتي. وتحرك الوفد في ٢٧ أكتوبر الموافق في ٢٠ جمادى الأولى من القضارف إلى القلابات حيث تخلف بعض أعضائه. ثم ساروا إلى شلقا وبعد نصف شهر وصلوا إلى ليبو (LIBO) وهي عاصمة الرأس منقشا. وهناك تأخر الوفد شهراً لمرض محمد عثمان حاج خالد وبعض مرافقيه وقد أكرم منقشا الوفد غاية الإكرام وسر لقدومهم وهو في رأي ولد حاج خالد «صاحب الاهتمام الأساسي في عقد الصلح ليوقف غارات الأنصار»(٣) وكانت البعثة تقابل في طريقها إلى منليك في اديس أبابا بالحفاوة «حتى كلما مر بنا على قطر يحتفلون كبراهم مسافات بالخيول والبغال ويتحملوا عفشنا من بهايمنا على رؤوسهم ويحملونا نحن على بهايمهم وبهايمنا يطلقوها سدا تمشي. . .» وعند وصول الوفد إلى

---

(١) منليك إلى الخليفة، في ١٦ أبريل عام ١٨٩٦ الموافق في ٣ ذو القعدة عام ١٣٠٣، مهدية، ٢٢١/١٦/٣٤/١.

(٢) بتوادد منقشا إلى الخليفة، في ١٧ يوليو عام ١٨٩٦ الموافق في ٦ صفر عام ١٣١٤، مهدية ٢١٦/١٦/٣٤/١٢.

(٣) محمد عثمان حاج خالد إلى الخليفة، في ٢٧ جمادي الثاني عام ١٣١٤، مهدية ٥/٧/٣٦/٢.

اديس أبابا قابله منليك «بعساكره الخاصة». فسلم محمد عثمان خالد رسالة الخليفة إلى الامبراطور.

وتختلف هذه الرسالة عن رسائل الخليفة السابقة في روحها وطريقة عرضها. فالخليفة في تلك الرسالة يقبل مبدئياً العرض المقدم من منليك لعقد الصلح بينهما ولكن الخليفة أبدى تحفظات معينة. فهو يؤكد لمنليك بأنه لا صلة له بالأوروبيين وليس بينه وبينهم إلا الحرب. ويطلب من منليك أن يكون كذلك وأن يمنع جميع الأوروبيين من الدخول إلى بلاده. فإذا وافق منليك على ذلك عليه أن يرسل شخصاً من طرفه «لانعقاد الصلح»[1] فتلقى منليك الرسالة «بغاية السرور بالقبول والانشراح وجميع مقاصد خليفة المهدي وافق عليها موافقة الطباق الصحاح». وكان منليك متحمساً لعقد الصلح ويرى أن الخلافات الدينية لا تهم كثيراً بل اقترح إنشاء مواصلات منتظمة بين البلدين.

وقابلت البعثة قبل عودتها الرأس منقشا بن يوحنا وقابلت الرأس عدار وعادت تحمل رسائل منهم جميعاً إلى الخليفة. وصحبتها كذلك بعثة سلام من منليك مكونة من عشرة أشخاص وفي أبريل عام ١٨٩٧ الموافق في نهاية شوال عام ١٣١٤ وصلت البعثتان إلى القضارف في طريقها إلى أم درمان. ورأى ولد حاج خالد أن تكرم بعثة منليك بالمستوى اللائق فاقترح على الخليفة أن يذبح لها كل يوم «خروف» وهي في الطريق. كما رأى أن يتأخر بالبعثة حتى تصل إلى أم درمان مع «عرضة العيد... ليرى (رئيسها) ما يرغبه ويرهبه». وفي مايو الموافق في مطلع ذي الحجة وصلت البعثة إلى أم درمان وسلمت الرسائل الثلاثة.

وكان رد منليك على رسالة الخليفة واضحاً. فذكر له أنه لا توجد بينه وبين الأوروبيين أي علاقة ما عدا التجارة والتي هي ضرورية للحبشة وللسودان معاً وأن إيقافها سيكون أكثر ضرراً للبلدين. وأعرب عن استعداده لقبول أي شروط أخرى وأنه مستعد لتقديم أي مساعدة من مال وعتاد في حالة

---

(١) الخليفة إلى منليك، ربيع الثاني عام ١٣١٤، مهدية، ٢٤/١٢/٣٤/١.

أي غزو أوروبي ضد السودان[1]. وجاء في رسالة منقشا «فالآن حيث صارت المحبة ستكون أكثر من الشر الذي فات» وأبدى استعداده للتعاون مع الخليفة[2]. وكتب الرأس عدار قائلاً: «ونحن جميعاً الاثيوبيين والسودانيين أبناء بلد واحد. . . وأرسلت نفراً من توابعي. . . لتأكيد المحبة وبعد هذا اجعل الطريق مفتوح لتسهيل المواصلات بيننا» وبعث للخليفة بحصان وبغل كعنوان لتلك المحبة[3]. على أن تلك البعثات الودية لم تثمر عن عقد أية معاهدة بين البلدين[4]. ولعل الغزو البريطاني قد شغل الخليفة ولعله كذلك قد صرف منليك عن الخليفة.

وطلب الخليفة من منليك أن يعاونه في إخضاع ولد تور الغوري حاكم بني شنقول الذي تمرد على سلطة الخليفة. فوجدها منليك فرصة ليزحف بحدوده غرباً نحو النيل الأزرق. كما أرسل حملة أخرى نحو النيل الأبيض بغرض وقف الزحف الأوروبي على النيل وكتب للخليفة موضحاً تلك الخطوة بقوله: «أخبرك أن الأوروبيين الموجودين حول النيل الأبيض مع الإنكليز قد خرجوا من الشرق والغرب وقصدوا أن يدخلوا بين بلادي وبلادك. . . والآن أمرت جيوشي أن يصلوا إلى النيل الأبيض ولربما تسمع خبر من التجار أو غيرهم تفتكر في شيء آخر ولذلك كتبت إليك لكي تعرف القصد وأنت من جهتك تحفظ ولا تدع الإفرنج يدخلوا بيننا وتشدد لأنه إذا دخل الإفرنج في وسطنا يصير تعب عظيم لنا. . . وإذا كان يحضر عندك أحد من الإفرنج عابر طريق اعمل كل اجتهادك حتى تصرفه بالمحبة»[5].

---

(١) أقوال محمد عثمان حاج خالد التي أدلى بها للمخابرات البريطانية بعد واقعة كرري، في عام ١٨٩٨ الموافق في عام ١٣١٦، مهدية، ١/٣٤/١٥/١٤٣ ـ ١٥٠.

(٢) منقشا يوحنا إلى الخليفة، في ١٣ سبتمبر عام ١٨٩٧ الموافق في ١٠ رمضان عام ١٣١٤، مهدية ١/٣٤/١٦/٢٢٧.

(٣) تكلا هيمانوت إلى الخليفة، في عام ١٨٩٧ الموافق في عام ١٣١٥، مهدية، ١/٣٤/١٦/٢٣٠.

(٤) يقول عبد الله حسين أنه في عام ١٨٩٧ أبرمت معاهدة بين منليك والخليفة وهذا ما لم يحدث بتاتاً. راجع: عبد الله حسين، ص ٢٥١.

(٥) مهدية، ١/٣٤/١٦/٢٥٩. (هذه الرسالة بدون عنوان وبدون تاريخ ولكن من الواضح أنها من منليك إلى الخليفة وأنها كتبت حوالى عام ١٨٩٧ ـ ١٣١٥).

وعندما أخذت جيوش كتشنر تقترب من أم درمان بعث منليك برسالتين إلى الخليفة يطلب منه أن يفتح عينيه حذراً من الأوروبيين. كما أرسل له علماً فرنسياً لكي يرفعه في حدوده إذا هاجمه الإنكليز. ولكن الخليفة رفض رفع العلم وأعاده مع محمد الطيب إلى منليك[1].

٤ ـ نهاية دولة المهدية في منطقة القضارف ـ القلابات:

عندما احتل كتشنر دنقلا طلب الخليفة من أحمد فضيل أن يحضر بجيشه إلى أم درمان لمواجهة أي تطورات غير مرتقبة. وفي تلك الأثناء تم احتلال كسلا بواسطة الإنكليز وانسحب منها الإيطاليون. فأرجع الخليفة أحمد فضيل إلى القضارف لمواجهة الخطر الذي ظهر في الشرق وأخذ منه رايتي فضل الحسنة وعبد الله حامد وأضافهما إلى جيش محمود ولد أحمد. وعندما اقتربت جيوش كتشنر من أم درمان رأى الخليفة ضرورة حضور أحمد فضيل. فغادر القضارف بجيشه وترك خلفه حامية بقيادة النور عنقرا وسعد الله عز الدين. وفي طريقه إلى أم درمان علم أحمد فضيل بسقوطها فعاد أدراجه إلى القضارف واتصل الخليفة بأحمد فضيل من مخبئه بدار الجوامعة وحثه على الصمود وأخبره بأنه سيعيد الكرة حتى ينتصر الدين[2].

أما كتشنر فقد رأى أن تراجع أحمد فضيل بذلك الجيش إلى القضارف سيكون مصدر خطورة. فأمر الكولونيل بارسونز (C.S.B. Parsons) القائد البريطاني لحامية كسلا بأن يتحرك إلى القضارف. كما أرسل أحد معاونيه ـ هانتر (A. Hunter) إلى النيل الأزرق لمتابعة تراجع أحمد فضيل ثم التقدم إلى سنار والرصيرص واحتلالهما. أما بارسونز فقد اتجه إلى القضارف واحتلها في ٢٢ سبتمبر الموافق في ٦ جمادى الأولى عام ١٣١٦ بعد أن خرجت حامية الأنصار بقيادة النور عنقرا وسلمت نفسها. واتجه أحمد فضيل إلى القضارف بعد أن رفض كل العروض التي قدمت له للتسليم. وفي ٢٨

---

(١) أقوال محمد عثمان حاج خالد.

(٢) الخليفة إلى أحمد فضيل، (بدون تاريخ ولكنها كتبت بعد واقعة كرري)، مهدية، ٤/٣٤/٢/١.

سبتمبر الموافق في ١٢ جمادى الأولى هاجم القضارف ولكن الحامية البريطانية المتحصنة في القضارف نجحت في صد الأنصار فتراجع أحمد فضيل إلى عصار وظل يرسل الدوريات من هناك لقطع اتصال الجيش بكسلا.

فأرسل كتشنر تعزيزات إلى القضارف بقيادة الميجر رندل (Rundle) بهدف زعزعة أحمد فضيل من موقعه. فوصل الجزء الأول من فرقة رندل إلى القضارف في ٢٢ أكتوبر الموافق في ٦ جمادى الثانية بقيادة كولنسن (G. Collinson) عند ذلك أدرك أحمد فضيل ضعف موقفه وخطورة بقائه في عصار فغادرها في ٢٣ أكتوبر الموافق في ٧ جمادى الثانية قاصداً اللحاق بالخليفة. فسار عن طريق بيلة ـ الرهد إلى الرصيرص وفي الطريق هجره ثلاثة آلاف رجل من جيشه وانضموا إلى السلطة الجديدة. وهكذا انتهت السلطة المهدية في منطقة القضارف[١].

أما القلابات فقد قام الحبش باحتلالها عندما علموا بنهاية الخليفة في أم درمان. وكتب بتوادد منقشا إلى القمندان الإنكليزي في القضارف قائلاً: «لقد دخلنا القلابات بأمر الملك منليك والذي يرغب في خلق علاقات حسنة معكم بغرض فتح الطريق التجاري وإنشاء علاقات تجارية بين السودان والحبشة. وقال لي منليك إنه لا يوجد أي شيء سوى المحبة بين الحبش والإنكليز»[٢] ثم دارت مفاوضات بين الإنكليز والحبش انتهت بإخلاء الحبش

---

(١) أما أحمد فضيل فبعد مغادرته القضارف اتجه إلى الرصيرص. وهناك كان هانتر قد ترك حامية بقيادة لويس. وعندما كان أحمد فضيل يعبر بجيشه النيل عن طريق شلالات الدمازين هاجمه لويس وأسر بقية جيشه الذي كان على الضفة الشرقية وأوقع خسائر فادحة في البقية التي كانت تعبر النيل. وفي ٢٦ ديسمبر تمكن أحمد فضيل من عبور النيل مع البقية الباقية من جيشه فاتجه بهم غرباً إلى النيل الأبيض. عند عبوره للنيل الأبيض التقى بالوابور الذي كان عائداً من فشودة فسلم جزء من جيشه إلى الإنكليز. أما أحمد فضيل فاتجه غرباً للحاق بالخليفة. وعندما أرسل كتشنر حملة للقضاء على فلول المهدية بقيادة الخليفة هاجمت تلك الحملة أحمد فضيل في الطريق. وفي ٢٤ نوفمبر لقي أحمد فضيل مصرعه مع الخليفة في أم دبيكرات.

(٢) بتوادد منقشا إلى قمندان القضارف، في ٢٤ يناير عام ١٨٩٩ الموافق في ١٢ رمضان عام ١٣١٦، مهدية، ١/٣٤/١٦.

للقلابات ودخلتها الجيوش الإنكليزية بقيادة بارسونز في ٧ ديسمبر الموافق في ٢٣ رجب.

وما أن حل عام ١٨٩٩ حتى كانت الدولة المهدية قد انهارت في كل المنطقة وفرضت السلطة الاستعمارية الجديدة ظلها في كل منطقة القضارف - القلابات.

أهم مصادر هذا البحث

تعتمد هذه الدراسة على وثائق المهدية. وكانت هذه الوثائق حتى حقبتين خلت بعيدة عن متناول الباحثين. ثم أنشئت دار الوثائق المركزية فكان ظهورها فتحاً في مجال البحث العلمي خصوصاً في تاريخ السودان في عهد المهدية. وقد تعرض كثير من الباحثين لطبيعة دار الوثائق المركزية وتكوينها وتصنيف الوثائق فيها والإمكانيات التي تتيحها للبحث[1]. ولذلك لن أتعرض لهذا الجانب بل سأتحدث عن أهم وثائق المهدية التي اعتمدت عليها، وهي الأقسام الثلاثة الأولى منها.

يشمل القسم الأول من وثائق المهدية الرسائل المتبادلة بين الخليفة من جانب وقواد المهدية وأمرائها المشهورين من الجانب الآخر. فرجعت في هذا القسم إلى المراسلات بين الخليفة ومحمد أرباب، ويونس الدكيم، وحمدان أبو عنجة، والزاكي طمل، وأحمد علي، وأحمد فضيل وغيرهم. ولعلي أول من اطلع على هذه الرسائل متكاملة فكانت مصدراً هاماً من مصادر هذا البحث.

أما القسم الثاني فهو عبارة عن رسائل مختلفة مرسلة من بعض أمراء

(١) راجع: P.M. Holt, *The Archives of the Mahdia* (London, 1955).
Mohamad Ibrahim Abu Saleem: *The Central Archives and Possibilities of Research.* A. Paper Presented to the Philosophical Society of the Sudan (1964).

المهدية وقوادها للخليفة أو ليعقوب أو لكبار القادة. وكانت هذه الرسائل أيضاً ركيزة ثانية اعتمدت عليها في هذه الدراسة.

ويعرف القسم الثالث من رسائل المهدية بدفاتر الصادر وتشمل الخطابات الصادرة من المهدي أو الخليفة إلى مختلف الأقاليم. وتتميز دفاتر الصادر هذه، بل أغلب وثائق المهدية، بميزة هامة وهي أن أغلب تلك الخطابات تبدأ بخلاصة للرسالة السابقة التي يكتب الرد عليها. فالمهدي والخليفة وبقية قواد المهدية كانوا يلخصون الرسالة الواردة إليهم قبل أن يشرعوا في الرد عليها. وأصبحت تلك الرسائل في الواقع عبارة عن رسالتين. وقد أفادت هذه الطريقة كثيراً لأنها حفظت لنا الكثير من الخطابات التي ضاعت وسهلت في كثير من الأحيان الوقوف على تسلسل الأحداث، بل وفي وضع التواريخ في الرسائل التي غاب ذكر التاريخ فيها.

ورجعت إلى كتاب إسماعيل عبد القادر الكردفاني باسم الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش الذي حقق مؤخراً، وهو في القسم الثامن من وثائق المهدية. وهذه المخطوطة لها أهميتها لأنها تمثل مصدراً أولياً عن حروب المهدية على الجبهة الحبشية. وقد تعرضت لهذه المخطوطة والظروف التي أحاطت بتأليفها وأسلوب الكردفاني في مقالتي بمجلة الدراسات السودانية[1].

كذلك فإن التقرير الذي كتبه البكباشي سعد رفعت المصري الذي قام بسحب الحامية المصرية من القلابات من المراجع الهامة عن الفترة الأولى من علاقة دولة المهدية بالحبشة.

وقد سافرت إلى منطقة القضارف وقضيت بها قرابة الشهر واتصلت ببعض الشخصيات التي تهتم بالتاريخ ولم أفد منها كثيراً مما يستحق الذكر ما عدا ملاحظات عابرة هنا وهناك.

---

(١) محمد سعيد القدال «الطراز المنقوش» مجلة الدراسات السودانية، العدد الثاني، المجلد الأول، يونيو عام ١٩٦٩ م، ص ١٤٠ ـ ١٤٥.

هذه هي أهم مصادر هذه الدراسة، وهناك مصادر أخرى تشمل على مؤلفات عربية وإنكليزية لها فائدتها ويعرفها الباحثون في تاريخ المهدية.

وقد اتصلت بشعبة التاريخ بجامعة هيلا سلاسي وبدار المحفوظات الاثيوبية وأفادوا بأن ليس لديهم ما يمكن أن يعين في هذا البحث. ولذلك اعتمدت على رسائل ملوك الحبشة وقوادها المتبادلة مع المهدي والخليفة وبقية الأمراء الموجودين في القسم الأول من المهدية (١/٣٤). وبما أن هذه الدراسة تهتم باتجاهات دولة المهدية في السياسة الخارجية فإن هذه الرسائل كانت كافية وقد أعانت كثيراً في تفهم هذه الاتجاهات.

المصادر

(أ) وثائق المهدية[1]:

١ ـ القسم الأول:

١/٤ رسائل الزاكي طمل إلى الخليفة.
١/٦ رسائل حامد علي إلى الخليفة.
١/٢٠ الرسائل المتبادلة بين الخليفة وأحمد فضيل.
١/٢١ الرسائل المتبادلة بين الخليفة وأحمد فضيل.
١/٢٢ رسائل يونس الدكيم إلى الخليفة.
١/٢٥ رسائل الخليفة إلى حمدان أبي عنجة.
١/٢٦ رسائل الخليفة إلى حمدان أبي عنجة.
١/٢٧ الرسائل المتبادلة بين الخليفة من طرف والزاكي طمل وأحمد علي من طرف آخر.
١/٢٨ الرسائل المتبادلة بين الخليفة من طرف وحمدان أبو عنجة وأحمد علي من طرف آخر.

---

(١) لم أذكر الأرقام التفصيلية للوثائق اكتفاء بالتفاصيل الواردة في الهوامش والخاصة بكل وثيقة. فالأرقام الأولى تمثل نمرة المجموعة كلها والأرقام الثانية تمثل المجموعات الصغيرة التي تشمل عدداً من الوثائق. كما أني حذفت الكثير من الهوامش والتي تهم المتخصص أكثر من القارىء العادي، ويمكن الرجوع إليها في الرسالة الأصلية بمكتبة جامعة الخرطوم.

١/٢٩ رسائل حمدان أبو عنجة إلى الخليفة.

١/٢٤ الرسائل المتبادلة بين الخليفة من طرف وحاكم الحبشة والإيطاليين من طرف آخر.

١/٤٢ رسائل الخليفة بعد سقوط الخرطوم.

٢ ـ القسم الثاني:

٢/١ قوائم بالجنود.
٢/٥ رسائل من الخليفة إلى أشخاص مختلفين.
٢/٦ رسائل مختلفة.
٢/٧ رسائل مختلفة.
٢/٧ رسائل مختلفة.
٢/١٠ رسائل مختلفة.
٢/١١ رسائل مختلفة.
٢/١٣ رسائل مختلفة.
٢/١٥ رسائل مختلفة.
٢/١٧ رسائل مختلفة.
٢/١٨ رسائل مختلفة.
٢/١٩ رسائل مختلفة.
٢/٢٠ رسائل مختلفة.
٢/٢١ رسائل مختلفة.
٢/٢٢ رسائل مختلفة.
٢/٢٣ رسائل مختلفة.
٢/٢٣ رسائل مختلفة.
٢/٢٤ رسائل مختلفة.
٢/٢٥ رسائل مختلفة.
٢/٢٦ رسائل مختلفة.
٢/٢٧ رسائل مختلفة.

٢/٢٨ رسائل مختلفة.
٢/٢٩ رسائل مختلفة.
٢/٣٠ رسائل مختلفة.
٢/٣١ رسائل مختلفة.
٢/٣٣ رسائل مختلفة.
٢/٣٣ رسائل مختلفة.
٢/٣٤ رسائل مختلفة.
٢/٣٥ رسائل مختلفة.
٢/٣٦ رسائل مختلفة.
٢/٣٩ رسائل مختلفة.
٢/٣١ رسائل مختلفة.
٢/٤٠ رسائل مختلفة.
٢/٤١ رسائل مختلفة.

٣ ـ دفاتر الصادر:

دفتر صادر ١ .
دفتر صادر ٢ .
دفتر صادر ٣.
دفتر صادر ٤ .
دفتر صادر ٥ .
دفتر صادر ٧.
دفتر صادر ٩.
دفتر صادر ١١ .
دفتر صادر ١٢ .
دفتر صادر ١٣ .
دفتر صادر ١٥ .
دفتر صادر ١٧ .

٤ ـ القسم الثامن من وثائق المهدية:

(أ) وثائق حيدر آباد ٥/٨ قلم.

٥ ـ تقرير البكباشي سعد رفعت:

(ب) مراجع عربية:

إبراهيم فوزي: السودان بين يدي غردون وكتشنر (جزءان)، القاهرة، عام ١٣١٩ هـ.

يوسف ميخائيل: مخطوط غردون في السودان، تحقيق الدكتور صالح محمد نور، (رسالة دكتوراه لجامعة لندن ـ غير منشورة)، عام ١٩٦٢م.

الطاهر عبد الكريم: ود زايد شحم البل، بيروت، عام ١٩٦٨ م.

فيليب رفلة: الجغرافيا السياسية لافريقيا، القاهرة، عام ١٩٦٥ م.

محمد إبراهيم أبو سليم: منشورات المهدية، بيروت، عام ١٩٦٩ م.

محمد إبراهيم أبو سليم، ومحمد سعيد القدال: (تحقيق) الحرب الحبشية السودانية، «الطراز المنقوش»، الخرطوم، عام ١٩٧٢ م.

محمد فؤاد شكري: مصر والسودان: تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر، ١٨٢٠ ـ ١٨٩٩، مصر، عام ١٩٦٣ م.

مكي شبيكة: السودان عبر القرون، بيروت، عام ١٩٦٥ م.

نعوم شقير: جغرافية وتاريخ السودان، بيروت، عام ١٩٦٧.

يونان لبيب رزق: السودان في عهد الحكم الثنائي الأول ١٨٩٩ ـ ١٩٢٤، (رسالة دكتوراه لجامعة عين شمس ـ غير منشورة)، عام ١٩٦٧ م.

عبد الله علي إبراهيم: الصراع بين المهدي والعلماء. شعبة أبحاث السودان كلية الآداب ـ جامعة الخرطوم، عام ١٩٦٨ م.

(ج) مقالات عربية:

محمد سعيد القدال: الطراز المنقوش، مجلة الدراسات السودانية، العدد الثاني، المجلد الأول، يونيو عام ١٩٦٩ م، ص ١٤٠ ـ ١٤٥.

سمير نوف: س.ر. عصيان المهدي في السودان، (ترجمة عربية غير منشورة).

(د) كتب بالإنكليزية:

Abu Saleem, Mohamad Ibrahim: *The Central Archives and Possibilities of Research.* A Paper Presented to the Philosophical Society of the Sudan (1964).

Barbour, K.M.: *The Republic of the Sudan: A Regional Geography.* London, 1961.

Carlson, Lucile: *Africa's Lands and Nations.* New York, 1967.

Hill, Richard: *Egypt in the Sudan, 1820-1881.* London, 1959.

– *Abibliography of the Anglo-Egyptian Sudan from the Earliest Times to 1937.* London.

Holt, P.M.: *The Archives of the Mahdia.* London, 1955.

– *The Mahdist State in the Sudan,* 1881-1898. Oxford, 1958.

– *A Modern History of the Sudan.* London, 1961.

Jones, A.H. and Elizabeth Monroe.: *A History of Ethiopia.* Oxford, 1962.

Neufield, C.: *A Prisoner of the Khalifa.* London, 1899.

Perham, Margery.: *The Government of Ethiopia.* London, 1947.

Sanderson, G.N.: *England, Europe and the Upper Nile,* 1882-1899. Edinburgh, 1965.

Shibeika, Mekki.: *British Policy in the Sudan.* London, 1952.

Slatin, R.C. (Von).: *Fire and Sword in the Sudan,* London, 1896.

Theobold, A.B.: *The Mahdia: A History of the Anglo Egyptian Sudan.* London, 1951.

Wingate, F.R.: *Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp, 1882-1892.* London, 1892.

– *Mahdism and the Egyptian Sudan.* London, 1891.

Trimingham, J. Spencer.: *Islam in Ethiopia.* London, 1965.

Yousif Fadl. (ed).: *Sudan In Africa*. Khartoum, 1971.

(د) مقالات بالإنكليزية:

Sudan Notes & Records **(S.N.R.).**

Cumming, D.C. «The History of Kassala and the Province of Taka», *SNR*, Vol. XX, Part I (1937), 1-45. Part II Vol. XXIII (1940) 1-34.

Reid, J.A. «The Mahis Emirs», *SNR*, Vol. XX Part II, (1937), 308-312.

Sanderson, G.N. «Emir Suliman Abu Ingar Abdalla», *SNR*, Vol. XXXV, Part I, (1954), 22-71.

SNR, «The History of Gallabat», Vol. VII, No. I, (1920), 93-101.

Theobold, A.B. «The Khalifa Abdallahi», *SNR*, Vol. XXXI (1980), 254-273.

The Journal of African History **(JAH).**

Marcus H.G. «Ethio-British Negotiations concerning the Western Border with Sudan, 1896-1902», *J.A.H.* Vol. IV (1963), 81-94.

al-Nagar, Umar «Takrur: History of A Name», *J.A.H.* Vol. X, No. 3, (1969), 365-274.

Sanderson, G.H. «The Foreign Policy of Negus Menelik II: 1896-1898», *J.A.H.* Vol. V, (1964), 87-97.

Journal of Ethiopia History **(JEH).**

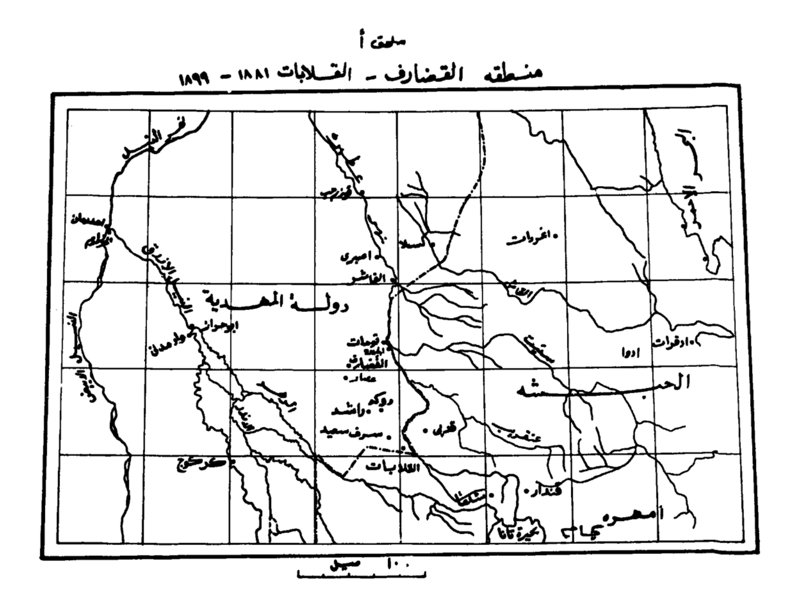
Pankhurst, Richard «The Trade of Northern Ethiopia in the Nineteenth and Early Twentith Centuries», *JEH*. Vol. II, (January, 1964), 49-159.

Bulletin of the School of Oriental and African Studies **(SOAS).**

Holt, P.M. «The Sudanese Mahdia and the outside world», *SOAS*, (1956), 276-290. Vol. XXI.

ملحق أ

منطقة القضارف - القلابات ١٨٨١ - ١٨٩٩



المحتويات